مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

٥٤٩٥

مجانين بيت لحم

رواية

مجانين بيت لحم

أسامة العيسة

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2013 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة الثانية، 2015

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2013
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّة وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: **معجون**
صورة الغلاف: **Shutterstock**
اقتباس التصميم: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **53 Dots**

ر.د.م.ك.: 978-9953-26-964-1

احتراز

في هذه الرواية-الشهرزادية، مِثل ما في الروايات الأخرى:
قليلٌ من الحقائق، كثيرٌ من الخَيال، وثرثرة...
تمامًا مثل الحياة.

دهيشة المجانين

يقول الفلسطينيون للشخص الذي تظهر عليه علامات الجنون، أو لِمَن يغضبهم، أو لِمَن يمازحونه، أو لِمَن يتمنَّون له شرًّا لا يصل إلى حدّ بلوغ المنيّة، أو لِمَن يشمتون به، أو للشرّير الذي يتمنَّون أن يَغرُب عَن محيطهم، ولأسباب أخرى كثيرة:

– أنت لازم يرسلونك إلى الدهيشة..!

وها أنا، مَن تقمّصت شخصية الروائي حينًا، والراوي الكُلّي المعرفة في أحيانٍ أخرى، الذي يعرف كلّ شيء، وقد لا يعرف شيئًا، وتواريتُ خلف شخصيات أخرى، كي لا يكشفني أحد (ولكنّ هذا لن يمنع القارئ من المطابقة بين الراوي والمؤلف، ولن يسبّب لي ذلك أيّ حساسية ولن أجهد لنفي ذلك)، على وشك الذهاب، طوعًا، وبإرادتي الحرّة إلى هذه الدهيشة، بعدما كتبت نزرًا عن مجانينها، فأصبحت، من دون أن أدري، واحدًا منهم. وآمل أن يكون يوسف علّان في انتظاري.

هل عندما فكّرت بكتابة رواية عن دهيشة المجانين، كُنت مجنونًا بالفعل، أم كانت لديّ بوادر جنون لم أتبيّنها، تطوَّرت مع انغماسي في عالم المجانين؟

ربّما بدأ الأمر بدون تخطيط، مجموعة أوراق مُبعثرة تركها خالي العبد علوي، لا يُفهم منها الكثير، وعلى الأغلب خَطّها وهو في دير المجانين، في

محاولة لكتابة حكايته وزملاءه، يبدو أنه تراجع عنها لاحقًا، فحرّكني الفضول للسؤال، والسؤال إلى آخر.

«ما الدنيا إلّا سؤال كبير؟» قالها مُنير شحاتة في أيام جنونه الأولى، وأكاد أرقبه من مكانه هناك، حيث لا يعود أحد، يرقب ساخرًا هذا المؤلف المحتار في كيفيّة خوض الغمار.

لن يتوقّف، في هذه الرواية، انثيال الأسئلة التي يصعب، بالنسبة إليّ، الإجابة عنها.

المؤلف

ملاحظة: تتخلّل الرواية بعض النصوص التاريخية والأدبية التي نُقلَت بحرفيّتها، ولم تخضع للتدقيق اللغوي حفاظًا على روحها وعلى الأمانة في نقلها.

«مَنْ عرف اللّه سار، ومَن سار طار، ومَن طار حار».

المجنون عُجيل المقدسي
من كتاب «عقلاء المجانين»
لمؤلفه الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري
(ت 406هـ)

سِفر تكوين

ولِمَ لا تُدهِش الدهيشة الباشا المصري؟

– اقتلعوا كل هذه الأشجار... لا تتركوا شيئًا...!

في مخيّم الدهيشة للاجئين وُلِدت، وهو جبل، أو إذا شئنا الدقة عبارة عن تلّتين، جبلين، من أراضي مدينة بيت لحم، على طريق القدس-الخليل، كان قبل أن يقطنه المشرّدون من قراهم عام 1948، أحراجًا مُخيفة. واكتسب اسمه من دَهشة إبراهيم باشا (1789-1848)، ابن محمّد علي باشا الوالي المصري الطموح، الذي أرسل ابنه في مغامرة استمرّت تسع سنوات (1831-1840م) إلى فلسطين وبلاد الشام، بعد رفض عبد الله باشا الجزّار تسليم آلاف المصريين الذين فرّوا إلى فلسطين هربًا من السخرة، باعتبار أنّ البلدين تابعان لسلطان عثماني واحد. وكان من سوء حظ إبراهيم باشا، أنّ فلاحي فلسطين، وشيوخ الجبال المتنازعين في ما بينهم، والمنقسمين إلى حزبي قيس ويمن، واجهوه بالثورة والتمرّد، وأقلقوا راحة وجوده، رغم أنّ بعضهم تذبذبت مواقفهم، فوقفوا أحيانًا معه. وفي طريقه لقمع تمرّد الثوار، مرّ على الجبال الحرجية الموحشة على طريق القدس-الخليل قرب بيت لحم، فقال:

– إيه ده.. دي هيشة.. دي هيشة..!

وانطلقت الفرق المختصة، تمحو غابة أخرى من غابات فلسطين، مثلما فعلت في أماكن أخرى، حتّى تكشف مواقع الثوّار، وتمنعهم من الاختباء.

غُصّة الفاتح المصري، يا عُجيل يا سَطّحار، لا تُخمد نارَها أيُّ نار يشعلها في الجبال الفلسطينية. لا شيء يخمد فشله في ترويض فلّاحي الجبال وشيوخها الذين تمرّدوا عليه، لأسبابٍ كثيرة من بينها الضرائب الباهظة التي فرضها عليهم ومنها ضريبة الرأس التي يجب أن يدفعها كلّ شخص ثمنًا لوجوده على قيد الحياة، وطلبه تجنيد الآلاف منهم، والإصلاحات التي لم تعجبهم، ومنها مثلاً إلغاء «العادة المعتادة» التي كان يُحَصّلها أعيان الأرستقراطيّة الدينيّة في القدس من الكنائس. ولم تعجبهم أيضًا ملابس جند الباشا الضيقة، فردّ عليهم بقسوة فظيعة، ولاحقهم في كلّ مكان، ونصب مخيّمه عند برك سليمان، خلف الدهيشة، ففاجأه الثوّار وقتلوا العشرات من جنوده، قبل أن يواصل طريقه إلى الخليل، حيث دمرّ وقتل وشرّد، وحاصر الحرم الإبراهيمي، الذي فرّ إليه مَن بقي من سكان المدينة. عندما غادر الخليل، جرّ إبراهيم باشا معه إلى مصر المئات من فتية مدينة إبراهيم الخليل (وفي رواية أخرى جميع فتية المدينة)، الذين شكّلوا في ما بعد الجالية الخليليّة في مصر المحروسة، التي لا نعرف عنها الآن، الكثير، ولكنّ الراقصة لوسي الشهيرة، صاحبة تصريح: «إذا كانت الممثلات يرقصن، فلماذا لا تمثّل الراقصات؟»، كشفت في حديث صحافي عن جذورها الخليلية.

عزيزي عُجيل،

لعب القدر لعبته، مع الباشا المصري، الذي تكالبت عليه قوى دولية، جعلته يتقهقر إلى مصر، بينما فضّل عدد كبير من أفراد جيشه، إن لم يكن معظمه، أن يبقوا في فلسطين، فأصبح في كلّ قرية فلسطينيّة تقريبًا عائلة «المصري»، وعائلات حملت أسماءً مشابهة مشتقّة من محافظات وبلدات مصرية، أو أسماءً مصرية متنوّعة. وظلّ هؤلاء يُعرفون بالمصاروة، حتّى بعدما أصبحوا جزءًا من هذه العائلة الكبيرة أو تلك في المناطق التي استقرّوا فيها، وشمل ذلك مسلمين ومسيحيين، ما زالوا يذكرون أصولهم التي تعود إلى تلك الحقبة الفوّارة في تاريخ فلسطين الحديث، دون أن يستطيع أغلبهم تحديد نَسَبِه تمامًا، فيما سعى آخرون، بعد أكثر من قرن على مغامرة إبراهيم باشا، الذي وُصف بأنه أشقر وأزرق العينين، مثل الفرنجيين، لولا ارتداؤه العمامة،

للتعرّف إلى أبناء عمومتهم، ومنهم واحد من مخيّمنا، ذهب إلى القاهرة، وتزوّج من هناك، وأسّس عائلة أخرى، وأصبح يتنقّل، كلما سنحت الفرصة وتوفّر لديه المال، بين مخيّم الدهيشة والقاهرة.

حتّى وقت قريب، يا عُجيل، كان يمكن مُقابلة كثيرين من كبار السن، في بعض مخيّمات اللاجئين، وتمييز لهجتهم المصرية في مخارج الحروف والكلمات. والأمر الغريب بالنسبة إليّ، أنّني عثرت على بعض من عائلات «المصري» تلك في تجمّعات بدوية، يعيشون كبدو وكجزء من القبائل البدوية، والبعض منهم، ومن أفراد القبائل التي ينتمون إليها، يذكر أنّهم جاؤوا من مصر.

لقد أسّس جنود الباشا المنهزم، ومعظمهم من الفلاحين، قرى، وبلدات فلسطينيّة، على أنقاض خرائب قديمة، أصبحت بعد قرن من الزمن، ضمن القرى التي يتباكى عليها الفلسطينيون، بعدما فقدوها في النكبة، أمّا بعض المدن التي بقي فيها فلسطينيون أصبحوا مواطنين في دولة إسرائيل، مثل يافا، فإن السيّر في ما بقي منها، قد يُشعر الزائر بأنّه يسير في إحدى حارات القاهرة القديمة.

وهناك مواقع أخرى غير الدهيشة، في بيت لحم، تُنسب تسميتها للباشا المصري، مثل هندازة. ويقال إنّ الباشا الذي هدم الحارة الإسلامية في بيت لحم انتقامًا من الثوّار، عندما رأى حقول الزيتون في المنطقة، المنتعشة منذ عهد الرومان، قال مندهشًا (.. وما أكثر ما أدهشت فلسطين هذا الباشا وأرّقته):

– دي هندسة...!

فأصبحت، مع التحريف والوقت، هندازة. ولم يترك الباشا خلفه الأسماء والضحايا ومعظم جيشه فحسب، بل أيضًا مصطلحات كثيرة منها ما يُستخدم حتّى الآن في بلاد الشام دلالة على النقود حيث تُنسَب كلمة «مصاري» إلى مصر.

في عام 1831 ضرب محمّد علي النقود المصرية الحديثة، بإصداره دكريتو تُسَكّ بموجبه نقود من الذهب والفضة ولكلّ منهما قوّة إبراء غير محدودة.

وفي عام 1836، سُكَّ الجنيه المصري، في الوقت الذي خضعت فيه بلاد الشام لحكم الباشا المصري، واستُعملت نقوده التي سمّاها النّاس المصاري.

قد تقف يا جدّنا عُجيل، متعجّبًا، إزاء القمع الشديد الذي مارسه الباشا المصري، ولكن، للحقّ، إنّ مغامرته قد تكون شكّلت الهوية الفلسطينية كما نعرفها الآن، بما فيها مصريّتها.

وقد تتعجّب، يا عميد مجانين فلسطين، على مَرّ الأزمان ومُرّها، أيضًا، من حجم التكالب الدولي، على الباشا الطموح، وكذلك من تدخّل الدول الكبرى، في شؤون هذا البلد الصغير فلسطين، لكنّ المقدّس ضمن الإمبراطورية العثمانية. ومثال ذلك الحرب التي شنّتها الإمبراطورية الروسية البيضاء، ضدّ الرجل المريض، والتي تحوّلت إلى حرب عالمية صغيرة، انضمّت إليها دول مؤثّرة أخرى، عُرفت باسم «حرب القرم» وكان ذلك عام 1853م، واستمرّت ثلاث سنوات، والسبب يبدو الآن مجنونًا، يتعلّق باختفاء النجمة الفضّية من مغارة كنيسة المهد في بيت لحم، التي يُعتقد أن السيد المسيح وُلد فيها، فقد عُدَّ ذلك تعدّيًا على حقوق الأرثوذكس في الكنيسة، وبالتالي استهتارًا بالروس، لمصلحة اللاتين.

وانتهت حرب القرم، ذات الأسباب التافهة، على الأقلّ تلك المباشِرة منها، كسرقة نجمة المهد، بنتائج عظيمة في وقتها، وكان لها تأثيرات جانبيّة عالميّة، شديدة الأهميّة، كما يذكر المؤرّخ و. أ. فيشر في كتابه المرجعي «تاريخ أوروبا في العصر الحديث»، ومنها أنّها خلقت الظروف الملائمة لتحرير الأمّتين الألمانيّة والإيطاليّة، وحرّرت مقاطعتين للنمسا بالإضافة إلى نهر الدانوب.

وليس هذا فقط، فإن حرب القرم كانت لها فوائد أخرى هذه المرّة لنساء بريطانيا، فالسيدة البريطانيّة فلورنس نتينجيل، التي نشأت في ظلّ حياة فكتوريّة ناعمة، هجرت وطنها وتوجّهت إلى مواقع الحرب لتمريض الجرحى.

كتاب فيشر هذا عَثرتُ عليه في مخلّفات العبد علوي، من بين كتب عديدة سميكة، يُذكر في أحدها اسمك يا عُجيل. كان يُحوّش قروشه القليلة ليشتريها، هل كان ذلك قبل جنونه أم في أثنائه؟ لن أعلم أبدًا.

آلت مكتبة العبد علوي، ليوسف علّان، وفي الواقع إنّ هذا الأخير يستحقّ الثناء على شجاعته ومبادرته، عندما تقدّم وجمع كتب العبد علوي،

التي رمتها والدته، مع كراكيبه القليلة، أمام المنزل، تمهيدًا لحرقها، بعد أشهر من رحيله، لتنظيف غرفته بهدف استخدامها من جديد.

بماذا فكّر ذلك المواطن البيتلحمي المجنون، وسأفترض أنه من اللاتين، عندما انتزع النجمة من مكانها؟ ربما فكّر بأيّ شيء، إلا أنّه سيتسبّب بحرب عالمية، تحرّر أممًا ونساء أمم، وتمحق أممًا، ولم يكن يدرك أنّ العالم عندما يفكّر بمدينته، فإنه لا يفكّر إلا بجنون، فيحارب ويقتل ويُشرّد.

الخلافات المجنونة ما زالت تعصف حتّى الآن بكنيسة المهد المقسّمة بين الطوائف المسيحيّة المختلفة، ضمن نظام الاستاتيكو (أي الوضع القائم) وهو حصيلة توازن القوى الدولية في حينه، الذي حدّد لكل طائفة حقوقها في الكنائس الرئيسة في فلسطين. ولا يمكن إحصاء عدد المرّات التي تشاجر فيها رهبان الطوائف، وتحوّلت المشاجرات إلى أكثر من ذلك، مثل حريق الكنيسة في عام 1873، عندما نظّم الأب الإيطالي أنطون بولي المعروف باسم أبو اليتامى، قدّاسًا بطلبٍ من إحدى المحسِنات المتبرّعات لمشاريعه الخيرية، لشفاء ابنها الصغير، الذي سقط في بركة ماء وكاد أن يغرق.

في صباح 25 نيسان 1873، أقام أبو اليتامى القدّاس، ويبدو أن ذلك لم يعجب الروم الأرثوذكس، فهجم نحو 200 منهم مسلّحين بالخناجر والعصيّ، فدمّروا الهيكل الخاص بالآباء الفرنسيسيّين وحرقوا الستائر الثمينة لمغارة المهد، التي تزيّن جدرانها، والتي كانت فرنسا قد أهدتها للكنيسة بعد استئذان الحكومة العثمانية، ونتج عن هذا الهجوم إحراق أجزاء من الكنيسة.

تدخّل يومها قنصل فرنسا إرنست كربون، واحتجّ قناصل إسبانيا وإيطاليا والنمسا وإنجلترا ضدّ مثيري الفتنة وطالبوا الدولة العثمانية بمعاقبتهم أو مطاردتهم، مع حفظ حقوق فرنسا في حماية الأماكن المقدّسة، ورفعوا الشكوى إلى إسطنبول، ووقفت روسيا مع الأرثوذكس.

بعد تلقّي السلطان الشكاوى أصدر إرادة سنية بأن تُشيَّد قرب كنيسة المهد ثكنة لمئة جندي ودارٌ للحكومة، سُمّيَت السرايا. أين كانت ثكنات الجنود في عهدكم يا عُجيل؟

وشكّلَ متصرّف القدس، الذي تتبع بيت لحم له، لجنة تحقيق ضمّت قنصل فرنسا، وغرّمت الروم أكثر من 110 فرنك تعويضًا للآباء الفرنسيسيّين، وعُزل أسقف الروم أفتيموس مع راهبَين آخرَين.

وعهدت الحكومة العثمانية لحافظ السعيد نائب القدس في المجلس العثماني، وهو أديب يجيد العربية والتركية، مهمّة الفصل بين الطوائف وعيّنته مدير ناحية بيت لحم، فأعدّ تقريرًا قرّر فيه حقوق كلّ طائفة، تبنّته مديرية المذاهب (الأديان) في الباب العالي (رئاسة الوزراء) وبقي في بيت لحم ثلاث سنوات لتنفيذ ما جاء في تقريره، ثمّ عاد إلى يافا، وتدرّج في المناصب حتّى أصبح رئيسًا لبلديّتها.

وبُدئ العمل في دار السرايا، في مطلع عام 1874، في حقلٍ لعائلة السكافي، وتكوّنت من تسوية استُخدمَت إسطبلاً للخيول، وفوقها بناء من طبقتين، الأولى مركز شرطة وسجن، والثانية مقرّ الحاكم ودار المحكمة، والقسم الأمامي أصبح دارًا للبلدية، والخلفي دائرة الصحة العامة، وعلى بعد أربعة أمتار بُني سور حجري على ارتفاع متر ونصف وفوقه درابزين من الحديد المشبّك، وفي وسطه باب عرضه 4 أمتار.

في صباح 1917/12/8، أصبحت دار السرايا بريطانية، مع دخول قوات الحلفاء إلى بيت لحم. عندما غادر العثمانيون عن الطريق الروماني القديم شرقًا، واحتلّها البريطانيون، وصف جندي بريطاني بيت لحم بأنّها بلدة أشباح. كانت المدينة خارجة لتوّها من حرب غير عادلة، وترزح تحت وطأة الجوع والأمراض، وكان عليها، بدلاً من أن تعيش عصرًا جديدًا، أن تموت في عصور عديدة تظلّلها الأشباح.

وفي عام 1934، صوّر بدر لاما (الأعمى) البيتلحمي، الذي أدخل صناعة السينما مع شقيقه إبراهيم إلى مصر، فيلمه «الهارب» الذي يتحدّث عن هروب فلسطينيّ من التجنيد الإجباري العثماني، في السرايا، وأكمله في منطقة الدهيشة وبرك سليمان – كما يتذكّر مؤرّخ المدينة المهمَّش، مثلي ومثلك يا عُجيل، حنا جقمان (أبو عبده)، بفخر وحنين.

ولم يكن بدر وإبراهيم، وهما يُصَوّران فيلمهما، قريبًا من بيوت أجدادهما القديمة، يعرفان أنّه بعد أربعة أعوام، ستهبّ العواصف على الأرض

المقدّسة، ليس بسبب العثمانيين، ولكن بسبب الإنجليز، ففي صيف 1938، أحرق الفلسطينيون الثائرون على سياسة بريطانيا الداعمة لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، السرايا، واشترت الأوقاف الاسلامية عمودَين حجريَّين مميّزَين كانا على مدخلها، ووضعتهما على مدخل مسجد عمر بن الخطاب، القريب منها، والمقابل لكنيسة المهد، وفي عام 1942، أُعيد بناء السرايا، من فائض الضرائب العربية، التي قرّرت بريطانيا أن تنفقها في بناء سجونٍ وحصونٍ لجيشها، فيما سُلِّمَت حصّة اليهود للوكالة اليهودية.

– قدوم عسكر من جهة والي مصر...!!

هكذا سجّل الكاتب، يا عُجيل، في سجلّات محكمة القدس الشرعية، بحياديّة، عندما رأى طلائع جنود الباشا تتهادى من بعيد.

لماذا نفى ساحر النساء صفة السحر عنه؟

هناك تفسير آخر لاسم الدهيشة، يا عُجيل، لا يلقى شيوعًا مثل التفسير الأوّل، ويتعلّق بشخص، سكن في أحد المنازل القديمة على شارع القدس-الخليل، واشتهر فلسطينيًا وعربيًا وعالميًا باسم (داهش بك) أو الدكتور داهش، صاحب الطريقة الداهشيّة أو الدعوة الداهشيّة، وأطلقتُ عليه أنا لقب «نبيّ القرن العشرين».

مصدري في سبب تسمية الدهيشة هذه هو جورج غانم، العازب المخضرم، وهو واحد من قلّة من كبار السن في مدينة بيت لحم ممّن لا يزالوا يذكرون ابن مدينتهم داهش بك، الذي رحل عن عالمنا منذ عقود، ولكنّه ما زال حاضرًا لديهم بما يقولون إنّها أفعاله الخارقة.

لطالما نظر النّاس عبر التاريخ، إلى الأنبياء، من خلال السحر، والجنون، والأفعال الخارقة، ولطالما شكا الأنبياء من هذه النظرة. انظروا لما خطّته الكتب المقدسة. قد تكون يا عُجيل أكثر الناس إدراكًا لذلك.

يقول غانم، وهو يجلس في المدبسة، في محلّه الذي حوّله إلى قعدة يلتقي فيه أصدقاؤه من كبار السن، بعد أن ملّ المتاجرة بالغاز، إنّ روح الفتى السرياني، الذي عرفه باسم داهش بك، ما زالت مُخيّمة، لا فقط على مَدينتي بيت لحم والقدس، حيث وُلد ونشأ، بل أيضًا على مُدنٍ أخرى، من أبرزها بيروت، التي دعا فيها إلى «دينه» أو طريقته الجديدة.

اسمه سليم موسى العشّي. وُلد في بيت لحم عام 1909، وتربّى يتيم الأب. هرب جدّه من المذبحة التي ارتكبتها السلطات التركية في الحرب العالمية الأولى والتي طالت نحو مليون ونصف مليون من الأرمن والسريان.

وعُرف سليم في المدينة التي وُلد فيها، ومدن فلسطين الأخرى، كساحرٍ فذّ، رغم عمله المتواضع في تأجير وإصلاح الدرّاجات الهوائية في ساحة المهد في المدينة، أمام إحدى أقدم كنائس العالم وأشهرها.

ويذكر كبار السنّ خصوصًا من سريان بيت لحم، أفعاله الخارقة التي يصعب تصديقها، بكثير من الزهو والفخر، فمثلاً يقولون إنّه كان يدعو رجال الدين والوجهاء إلى مائدة طعام ويضع أمامهم خيارًا، ويطلب منهم أن يتناولوه، وعندما يتناول الواحد منهم إصبع الخيار، يجد في فمه حذاءه.

ولا تخلو رواية من هذا النوع، كما قد تكون لاحظت يا عُجيل، من الغمز من قناة رجال الدين والوجهاء، ولكن هناك حكايات أخرى مدهشة عنه أكسبته لقب داهش بك عن جدارة مثل أنّه كان يدخل إلى الحلاق، ويتناول رأسه بيديه ويضعه على الطاولة ويطلب من الحلّاق قصّ شعره ويخرج للتجوال ثمّ يعود ليأخذ رأسه بعد أن يكون الحلّاق قد أنهى عمله!

ويروي غانم قصّة يقول إنّه كان شاهدًا عليها: «دُعينا مرّة إلى محاضرة سيلقيها في الساعة الواحدة، وتأخّر في الحضور، وعندما أصبحت الساعة الثانية دخل داهش، ووسط احتجاجنا على تأخّره، قال لنا إنّه لم يتأخّر وطلب منا النظر في ساعاتنا فوجدناها تشير إلى الساعة الواحدة» – لا تضحك يا عُجيل.

ويتحدّث بعضٌ من معاصريه عن جانب آخر حسّاس من حياة داهش بك، وهو علاقاته النسائية، وخصوصًا علاقته مع سيّدة تُيِّمت به وتركت زوجها ولازمته في رحلاته، حتّى استقرّ في بيروت.

ويؤكّد هؤلاء كيف أنّ داهش سَحَرها، وجنَّن زوجها، الذي أصبح يسير هائمًا مهلهل الثياب، أضحوكةً للناس.

وأكثر من هذا، ما زال البعض متأكّدًا بأنّ قدرة داهش هي التي جعلت بعض مَن اعترضوا على علاقة داهش، خارج إطار الزواج، بتلك السيّدة، يصابون بالجنون.

وبرغم هذه الصورة الجامحة التي تُقدَّم لداهش حول علاقاته النسائية التي كان يخوضها ولو تسبّب بالأذى لآخرين، فإنّ معاصريه يذكرون امرأة أخرى استثنائيّة في حياته، هي أمّه، المرأة القويّة التي جاهدت لتربية هذا اليتيم، في ظروف قاسية. ويبدو أنّ داهش لم ينسَ تلك المرأة قطّ، وهذا ما يمكن استشفافه من كتاب بعنوان «أناشيد حزينة: لذكرى والدة مؤسس الداهشيّة» أعدّه أحد أتباع داهش واسمه ماجد مهدي الداهشي. أتعبني التنقيب عنك في الكتب يا عُجيل، ولم أعرف شيئًا عن أمّك، أو عن والدك، لماذا لم تفعل مثل داهش؟ أسمع نصيحتك تأتيني عبر أطوار الأزمان: «لا تدع أحدًا يحكي قصتك، ببساطة احكها أنت». إنّني أحاول يا عجيل.

عُرف داهش بك لكثير من القُرّاء القدامى كصاحب كتب متعدّدة، وصلت إلى 150 كتابًا، منها ما يضمّ خواطر أدبيّة تقترب من الشعر الحديث، وبعضهم يشير، ربّما بمبالغة، إلى أنّه كتب هذا النوع من الشعر قبل جيل الروّاد أمثال بدر شاكر السياب ونازك الملائكة.

من الذين يتحمّسون لإضفاء هذا الجانب الأدبي على داهش بك، الأب يعقوب، راعي الطائفة السريانيّة في بيت لحم، الذي قابل داهش عام 1964، في قصر هذا الأخير في بيروت.

صعدتُ درج سوق بيت لحم، ودخلت كنيسة مار افرام، لأرتقي درجًا صغيرًا إلى حيث مكتب ومسكن الأب يعقوب، غير المحبّ للكلام عادةً، والذّي تدفّق، هذه المرّة، في الحديث عن داهش: «كانت زيارة داهش بك لا تتمّ إلا بموعد، ولكنّه عندما عرف أنّني جئته من بيت لحم، سارع لمقابلتي. رأيت رجلاً ستينيًّا، متوسّط القامة. وأنا أنتظره في الصالون، نظرت إلى رفوف الكتب المحيطة وقدّرت عددها بنحو ربع مليون كتاب، وكان قصره مليئًا بأسود ونمورٍ محنّطة، وعندما جاء سألني عن أخبار بيت لحم وناسها».

خاطب الأب يعقوب داهش قائلاً: «أعرف أنّك إنسان تخاف اللّه، وأنّك صاحب ثقافة واسعة ولستَ مشعوذًا أو دجّالاً، وأعتقد أنّ ما كنت تفعله من أعمال سحر هو لإدخال السرور والفرح للناس». فأجابه داهش: «أنت يا أبونا الوحيد الذي عَرَف حقيقتي، فأنا لم أكن مشعوذًا ولا ساحرًا».

عاش الأب يعقوب متعاطفًا تعاطفًا كبيرًا مع داهش بك، فقد كان يرى فيه من حاول أن يثبت لنفسه وللناس، وهو الفقير اليتيم، أنّه إنسان جدير بالاحترام، ومَن حاول أن يظهر بمظهر الكاتب والمثقف والمتعلم.

وقد تحقّقت لداهش بك بذلك شهرة واسعة عندما تجمّع حوله عدد من المثقفين والأدباء وأسّسوا طريقة جديدة أو عقيدة جديدة كما يحبّون أن يصفوها، سمَّوها «الداهشيّة»، وكانت فكرتها التقريب بين الأديان التوحيديّة، ومن أبرزهم الأديبة والتشكيليّة ماري حدّاد (1895-1973)، التي تضيف صفة الداهشيّة لاسمها، ولماري عدّة مؤلفات شعرية وأدبية، وهي شقيقة المفكّر ميشال شيحا الذي يُوصف بأنّه «أحد مؤسِّسي التيّار الفكري اللبناني».

ورغم أنّ الأب يعقوب يتحدّث عن أفعال خارقة لداهش بك، هي أشبه بالمعجزات، في عصر لم يعد فيه أحد يؤمن بها، مثل أنّه كان يظلّ في قاع البحر لأكثر من ستّ ساعات ويخرج لمريديه سالمًا، يذكر أيضًا أنّه سأل داهش بك ذات مرّة إن كان يستطيع أن يسير على الماء فأجابه بنعم، ولكنّه يرفض ذلك لأنّ السيد المسيح فعلها وهو لا يريد أن يتمثّل به، وذلك دلالة إيمان بالنسبة للأب يعقوب. كما يمكن أن تستنج يا عُجيل، ربّما كان داهش بك يردّ على الأب يعقوب بالإجابة التي كان يتمنّى هذا الأب الطيب سماعها.

يقول الأب يعقوب، العراقي الهوية، وصديق بدر شاكر السياب، بينما كان صوت صخب أولاد سريان في باحة الكنيسة يصلنا، مما أثار انزعاجه، إنّ أعضاء الداهشيّة ومعظمهم من الأغنياء كانوا يساعدون الفقراء ويحلّون المشاكل الحياتيّة لكلّ مَن يطرق أبوابهم، ويشير إلى أنّ داهش كان لطيف المعشر، وذكيًا، معتزًّا بفلسطينيته، وله صديقاته من الداهشيات. عند ذكر هذه النقطة الأخيرة، كانت ابتسامة خجولة موحية تظهر على وجه الأب يعقوب.

تُوفّي داهش بك في بيروت، التي تُعدّ المحطة الأهمّ في حياته، حيث اكتملت أسطورته، وفيها أعلن دعوته الداهشيّة في 23 آذار (مارس) 1942.

وتعرّض نتيجة لهذه الدعوة، كما يقول أتباعه، لاضطهاد في عهد الرئيس اللبناني بشارة الخوري، الذي جرّده من جنسيته اللبنانيّة قبل أن يُنفى من لبنان في أيلول 1944.

وطرحت واحدة من أتباع الدكتور داهش واسمها ماجدة حدّاد عليه فكرة اغتيال بشارة الخوري، ولكنّه رفض، فذهبت إلى نهاية المشوار، واعتبرت والدتها أن ما فعلته ابنتها «فعل إيماني».

وتمكّن داهش من العودة إلى لبنان عام 1953 واستعاد جنسيّته، وحتى بعد سنوات طويلة من موته، لا يزال هناك مَن يهتمّ بنشر كتبه من أتباعه، مثل المصرية أميرة زاهد التي أسّست في نيويورك عام 1995 الدار الداهشيّة للنشر، ومتحفًا يضمّ لوحات فنّية عالمية جمعها داهش، بالإضافة إلى كتب وصور، وتحتلّ هذه الدار الآن ثلاث طبقات.

ومن الكتب التي أصدرتها الدار الداهشيّة، كتاب من ثلاثة أجزاء يحمل عنوان «ناثر وشاعر» ويضمّ أكثر من 600 قطعة أدبية بقلم «الأديب العملاق الدكتور داهش»، مع صياغتها الشعرية بقلم الشاعر حليم جريس دَمّوس، الذي فُتن بداهش، ولقّب نفسه، وهو المسيحي، بـ»حسان» تيمّنًا باسم شاعر الرسول محمد.

ووصفت دار النشر الداهشيّة الكتاب بأنّه «لا نظير له في الأدب العربي وفيه من التفرّد والسبق والابتكار ما يرفعه إلى مرتبة الأعمال الأدبية العالمية الخالدة». وإن كان من الصعب، يا عُجيل، التسليم بهذا الحكم النقدي، فإنّه يعكس المكانة التي تبوّأها داهش لدى أتباعه وجعلته أسطورة تمشي على قدمين.

سيكون من باب التكرار، الإشارة إلى عثوري على هذا الكتاب، وغيره من صحفٍ لبنانيّة قديمة تتعلق بداهش، في مخلّفات العبد علوي، التي تَكَرّم يوسف علّان، وسمح لي بالنبش فيها متى أشاء.

واصل إبراهيم لاما العمل في شركته، بعد وفاة شقيقه بدر عام 1947، حتّى عام 1953، عندما قرّر إنهاء حياته على طريقة مصائر أبطال أفلامه التراجيدية، وذلك بإطلاق النار على نفسه، بعدما قتل مطلّقته بنفس المسدّس، إثر فشله في ردّها إليه، وغيرته المجنونة عليها.

في هذه الأيّام يا عُجيل، ما إن تنتهي احتفالات عيد الميلاد، التي تستقطب اهتمامًا عالميًّا، حتّى يدور العرض الساخر الجنوني، وذلك خلال

طقس غسل كنيسة المهد، بعد الاحتفالات، حيث يخرج رهبان الطوائف المختلفة، بالمكانس، لتنظيف الكنيسة، ولكن سرعان ما تتحوّل المكانس أسلحة، ورواق الكنيسة ساحة حرب، فتغطّي الدماء وجوه الرهبان، في مكانٍ يعتبره مسيحيو العالم، الأقدس، ويجلّه أيضًا مسلمو العالم.

إنّها لوثة الجنون التي أصابت هذه البقعة من العالم. البقعة التي تفخر بأنّها حملت رسالة السلام إلى العالم، ولم تستطع صُنع سلامها الخاص. ولعلّك أكثر واحد في العالمَين، عالمنا وعالمكم، خبِرَ ذلك يا عُجيل.

الجنون، ولوثته، هذا ما تبادر إلى ذهني عندما هاتفني صديق الطفولة وزميل الدراسة، الصحافي عمّار الجوري، ليخبرني بذبح سليمة في زقاق مجاور لكنيسة المهد.

«لوثة بيت لحم» أو «لوثة الدهيشة» نظريّة صاغها الجوري، ولم أقتنع بها مكابرًا، إلا أنّني ألجأ إليها لتفسير ما يصيب بعض البشر، والذي لا يُفسَّر إلا إذا أُخذت بالاعتبار سطوة المكان.

قصدتُ مكان الجريمة، وهو زقاق متفرّع من شارع مغارة الحليب، يفضي إلى حارة العناترة القديمة، وجدت جمعًا متجمهرًا واجمًا، صافحت الجوري، الذي أراني بقايا الدماء على الأرض، وأخبرني بأنّ سليمة نُقلت إلى مستشفى بيت جالا الحكومي. قال ذلك متحسّرًا.

أبديتُ مثل آخرين في المكان دهشتي وأنا أنظر إلى النساء والأولاد الذين يطلّون من الشبابيك، ورجال الدين والراهبات الإثيوبيات والأقباط، الذين يملكون كنائس صغيرة في المكان، وأصحاب محالّ سياحية وقفوا يتفرّجون ساهمين، اقتربتُ من راهبة صغيرة السنّ وسألتها عمّا رأت، فأجابت بهدوء: «لم يكن أحد قادرًا على التدخّل، حدث كل شيء بسرعة، خلال ثلاث ثوان فقط كان قد ذبحها». تصوّر يا عُجيل...!

كيف دَهش داهش، جبرا وشرابي؟

سلفَنا عُجيل،

من مكان غير متوقَّع، بالنسبة لي على الأقلّ (وربما أيضًا بالنسبة للقرّاء والقارئات)، أسهم اثنان من أبرز المثقّفين العرب، جبرا إبراهيم جبرا وهشام شرابي، في تغذية الجدال حول داهش بك، بطريقة غير مقصودة، إذ طالعني اسم داهش بك في مذكّراتهما، بينما كنت أحاول أن أنهي حكاية داهش عند حدٍّ ما، لأكمل روايتي عن الدهيشة ومجانينها.

في سيرته الذاتية «البئر الأولى»، يتحدّث جبرا إبراهيم جبرا عن طفولته في بيت لحم والقدس، وفيها يظهر داهش بك. وما يجمع جبرا وداهش كثير، فكلاهما ينتمي للطائفة السريانية ولنفس الحيّ ولنفس الطبقة الفقيرة.

كتب جبرا من منفاه في بغداد:

«لا يمرّ فصل من فصول السنة إلا وتزور البلدة جماعات تجتذب النّاس في حلقات كبيرة حولها، وقد تستمرّ ألعابها ساعة أو ساعتين، وبخاصة إذا كانت من فرق لاعبي السيمياء. «أيدي في الهواء فاضية بوش..»، يقول الساحر، وإذا هي فجأة تخرج بيضًا، أو كرات ملوّنة، أو أرانب. يضع منديلاً في فمه، وبعدها بقليل يُبرز من بين شفتيه طرفًا من خيط، يمسك به زميله ويجرّه، وإذا هو يجرّ من فم الساحر مناديل، وأعلامًا، وحدائد، وشفرات صدئة،

ويمتدّ الخيط ويمتدّ، والأشياء العالقة به، الخارجة من جوف الساحر لا تنتهي، وبعدها يبلع سيوفًا، وينفث لهبًا من النار.

وكان في تلك الأيام أن سمعت الكبار يتحدّثون عن سليم العشي (صديق أخي الأكبر مراد حينئذ)، الذي يعمل مؤجِّرًا ومصلحًا للدرّاجات في دكان صغير في ساحة باب الدير، وقد جعلوا يسمّونه بسليم الساحر، بسبب الحيَل المدهشة التي كان يقوم بها في السهرات لإمتاع شيوخ البلدة، وقد رأيتُه، فتى قصير القامة، له وجه ضامر لا يبتسم، تشعّ منه عينان واسعتان مذهلتان».

ويضع جبرا حاشية في الكتاب: «سرعان ما تحوّل هذا الشاب، الذي علّم نفسه بنفسه، إلى أسطورة بما يقوم به من «خوارق التنويم» المغناطيسي واستحضار الأرواح بواسطة أخته، وذلك بعد رحيله إلى القدس، ثمّ إلى بيروت، حيث دعا نفسه داهش بك ثمّ الدكتور داهش وأسّس طريقة عُرفت بالداهشية».

وإذا كان جبرا، كما تلاحظ يا عُجيل، قد تجنّب إطلاق أحكام على داهش بك أو إبداء وجهة نظره الخاصة بشأنه، فإن هشام شرابي فعل الأمر نفسه ولكنّه قدّم داهش بك بطريقة مختلفة ربمّا تميط اللثام عن أسطورته، في سيرته التي تحمل عنوان «صور الماضي».

كان يتردّد على بيت جدّ شرابي في عكا، شاب اسمه داهش بك، اشتهر في الأوساط الاجتماعية بقدرته على التنويم المغناطيسي والتنبّؤ بالمستقبل. لم يلتقِ به هشام إلا بعد مدّة طويلة من تعرّفه إلى بيت جدّه، ذلك أنّه نادرًا ما أتى لزيارتهم خلال الصيف، أي عندما كان هشام يمضي عطلته في عكا، لذلك سُرَّ عندما سمع ذات يوم جدّته تنادي بصوت متهدّج: «داهش بك قادم، افتحوا الباب».

كان داهش بك آنذاك في أواخر العشرينات من عمره، أسود الشعر، نحيل القامة، يذكر هشام خاصةً عينيه النافذتين وجوّ الصمت والانقباض الذي التفّ حوله.

صوّب داهش إلى هشام نظرة حادّة دون أن يحيّيه أو يبتسم، وقدّمته جدّته على هذا النحو:

– هذا هشام ابن فطمة. رح يروح على المدرسة الداخلية في بيروت.

عندها، مدّ داهش يده مصافحًا. كانت باردة كالثلج. لم يره هشام بعد ذلك في عكا إلا مرّة واحدة بشكل عابر، ولم يجتمع به ثانية إلا بعد مرور ما يقارب أربعين سنة في بيروت.

لكنّ اللقاء الأوّل كان مهمًّا بالنسبة لهشام، ففيه، سلّم داهش بك جدّته كتابًا كان قد انتهى لتوّه من تأليفه عنوانه «ضجعة الموت أو بين أحضان الأبدية» وعليه تقديم: إلى عارف بك وعائلته الكريمة.

تصفّحت جدّة هشام الكتاب، ووضعته على الرف الذي كانت تضع عليه خالته الصغرى كتبها المدرسية. بعد ذلك، من الأرجح أنْ لا أحد سوى هشام لمس الكتاب، الذي كان مُجلَّدًا تجليدًا مُتقنًا ومطبوعًا على ورقٍ فخمٍ لمّاع، توّجت صفحته الأولى صورة المؤلف وتلاه إهداء الكتاب بخطّ رقعي، ظلّ هشام يذكر منه هذه الكلمات «إلى الموت والحياة الأبدية»، أمّا نصّ الكتاب فقد كان مجموعة قصائد كُتبت أيضًا بالخط الرقعي ضمن إطار أسود. وإلى جانب كلّ قصيدة طُبعت رسوم بعضها على صفحة كاملة وبعضها الآخر على نصف صفحة، ومعظمها إيروتيكي في موضوعه وإخراجه الفني.

قرأ هشام بعض القصائد، لكن دون أن يستطيع فهمها. بدت معقّدة إلى درجة الغموض الكامل. لكنّ الصور والرسوم، التي كان أكثرها مُستمَدًّا من أعمال فنّاني عصر النهضة، سحرته. قلّب الصفحات الملساء الناعمة، وتأمّل طويلاً في رسوم أجساد النساء العاريات، فأحسّ لأوّل مرّة بذلك الشعور المبهَم إزاء الموت واللذة.

بلغ تأثير لوحات الكتاب على هشام درجة كبيرة، وظلّ يذكر منها لوحتَين، لا كما شاهدهما بعد ذلك مِرارًا في أصلهما الملوَّن، بل كما رآهما لأول مرّة في كتاب داهش بك: رسم أسود على بياض. كانت الأولى منهما لفينوس، بريشة بوتشيللي، وهي تسير في اليمّ عارية لا يخفي جسدها سوى شعرها الطويل الذي انحدر فوق كتفيها وثديها الأيسر بينما بقي ثديها الأيمن عاريًا إلا من بعض رذاذ.

بدت فينوس لهشام، في تقاطيع وجهها الدقيقة ونظرتها البريئة وجسدها النحيل، تجسيدًا لطهارة الأنثى وبراءتها. أمّا اللوحة الأخرى، فكانت لوحة مشهورة تُسمّى «ليدا والبجعة»، تظهر فيها ليدا مكتنزة الجسد وهي تستلقي عارية فوق شاطئ بحيرة هادئة تحيط بها الأشجار وقد حطّ بين ساقيها طائر أبيض يسحب عنقه الطويل ليتّكئ برأسه بين ثدييها. جذبته هذه اللوحة في الاتّجاه المعاكس، ففيما بعثت فينوس بوتشيللي في نفسه مشاعر الطمأنينة والارتياح، أثارت فيه صورة ليدا شعورًا قويًّا بالرغبة والقلق.

وظلّ صدى كتاب داهش بك ولوحاته يلاحق هشام. أراد التأكد من أنه رأى هاتين الصورتين في كتاب داهش بك فعلاً ولم يتخيّلهما. فقضى شهورًا في تقصّي الكتاب في المكتبات الخاصة والعامة لكنّه لم يجده، إلى أن وقع على نسخة منه قبل أن يدفع مخطوطته «صور الماضي» إلى المطبعة في مكتبة صديقه الدكتور سمير الصليبي في بيروت. فتح الكتاب بيدين مرتجفتين. آخر مرّة نظر إليه كان في العاشرة. طالعته صورة ليدا تمامًا كما يتذكّرها، إلّا أنّها لم تكن مضطجعة فوق شاطئ بحيرة تحيط بها الأشجار، بل ممدَّدة بين ظلال سوداء أحاطت بها من كلّ جهة، ما زاد من بياض جسدها ومن عريها. أمّا فينوس، فلم تكن عارية إطلاقًا، والصورة التي جابهته كانت صورة صغيرة لا يظهر فيها سوى وجهها الجميل البريء وشعرها الأسود الطويل تدفعه الريح إلى الجانب الأيسر من وجهها. لماذا رآها عارية؟ ذلك سؤال أرّقه ولم يجد له من جواب.

عندما أصدر «صور الماضي»، أرفق هشام به صورة عن غلاف الكتاب الذي كان ثمنه «40 قرشًا فلسطينيًّا» وهو سعر باهظ، بالإضافة إلى صورٍ أخرى، منها واحدة لامرأة عارية الصدر تمسك بطفل ميّت، وأخرى لليدا عارية وأخرى لوجه فينوس.

بقي كتاب «ضجعة الموت» حاضرًا دائمًا في ذهن هشام الذي أصبح، يا عُجيل، عالم اجتماع، ناقدًا للبنى البطريركية في المجتمع العربي، ومثقّفًا مرموقًا في عصرنا، ناقش شباب مخيّم الدهيشة كتبه، في ناديهم.

تذكّر هشام كتاب «ضجعة الموت» وهاتين اللوحتين عندما التقى داهش بك بعد مرور سنوات طويلة. كان ذلك في أوائل سبعينيات القرن العشرين، خلال إحدى زياراته الصيفية لبيروت. سأل أمّه، بدون مناسبة، يوم وصوله، وهما يحتسيان القهوة، عمّا حلّ بداهش بك. حتّى تلك اللحظة، وطوال تلك السنوات، لم يخطر اسم داهش بك على باله مرة واحدة. نظرت أمه باستغراب. قالت: لقد سمعت أنّه يقيم في بيروت.

هل فعلاً لم يخطر داهش بك على بال هشام شرابي، ولا مرّة؟ رغم ما ذكره عن أثر كتابه ولوحاته عليه، هل هو استعلاء مثقّف كبير؟ حتّى وهو يخطّ كتابًا فيه ما فيه من البَوح؟ ساعدني في الإجابة يا عُجيل.

في اليوم التالي، وبحدود الساعة الثالثة بعد الظهر، كان هشام مثل معظم سكان بيروت في ذلك الوقت من اليوم، مستلقيًا على السرير يطالع الصحف والمجلات ويحاول أن يغفو قليلاً، حين رنّ جرس الباب الخارجي، وسمع الخادمة تفتح الباب ثمّ تأتي إلى الغرفة المجاورة وتقول لوالدته: «السيد داهش بك يسأل عن السيد هشام».

قال هشام في نفسه: «لا بدّ أنّ والدتي قد أرسلت إليه خبرًا تعلمه بأنّي موجود في بيروت وبأنّي سألت عنه، فأتى لزيارتنا».

جلس داهش في زاويةٍ معتمة من غرفة الاستقبال الصغيرة، «ورغم حرارة الجوّ فقد خُيِّل إليَّ أنّي شعرت بلفحة من الهواء البارد تهبّ على وجهي لدى دخولي الغرفة»، تذكّر هشام لاحقًا.

وقف داهش. سلّم بصمت. وشعر هشام بالانقباض ذاته الذي شعر به عند لقائهما الأوّل في عكا منذ سنين طويلة. ما إن جلس داهش حتّى لاحظ هشام أنّه قد تغيّر كثيرًا. لقد أصبح أثقل وزنًا، وبدت في تقاطيع وجهه علامات الكبر. إلا أنّ عينيه النافذتين لم تتغيّرا.

سأله داهش بك:

– أتذكرني؟

فردّ عليه هشام:

– بالطبع أذكرك.

وتحدّث الاثنان قليلاً بحضور والدة هشام، ثمّ غادر داهش، على أن يلتقيا مرّة ثانية.

بعد مغادرة داهش بك، سأل هشام أمّه كيف تمكّنت من الاتصال به، فأخبرته بأنهّا لم تتّصل بداهش فسألها ثانية:

– إذًا ما الذي جعله يزورنا؟

– لست أدري.

اجتمع هشام في ذلك الصيف بداهش بك مرّتين أو ثلاث مرّات، وكان اللقاء الأخير قبل وفاة داهش بك بفترة قصيرة.

تمّ ذلك اللقاء في أحد مقاهي الروشة، خلال واحدة من فترات الهدوء الأولى بعد انفجار الحرب الأهلية. جلسا في مقهى دبيبو وكان خاليًا من الروّاد. طلبا فنجاني قهوة. لكنّ داهش لم يمسّ فنجانه.

سأله هشام إن كان يذكر كتابه «ضجعة الموت أو بين أحضان الأبدية». ابتسم داهش وسأله كيف اطّلع على الكتاب، فأخبره هشام. قال داهش بصوت خفيض: «حماقات شباب».

فردّ هشام على هذا الاعتراف: «لكنّه كتاب فذ. كان له تأثير غريب عليّ». وبعد صمت قصير، قال داهش بك: «النّاس بتحبّ الروحانيات».

فردّ عليه هشام بملاحظة ذكيّة: «وكذلك الصور والرسوم اللاروحانية!».

وأجابه داهش: «النّاس بتحبّ الروحانيات خصوصًا إذا كانت مرتبطة باللاروحانيات»، ثمّ ابتسم ابتسامة فاترة وقال: «لا تظلمني. ولا تظلم النّاس. أنا لم أكذب على أحد. النّاس تريد الهرب، إلى الماضي. إلى المستقبل. إلى العالم الآخر. النّاس تريد الاتصال بالأرواح للخروج من كابوس الحياة. الصوت الذي يسمعونه من عالم الموتى هو صوتهم، صوت الموت الصادر من أعمالهم».

وربما، يا عُجيل، يا سَطّحاري الحارس، كان كلام داهش هذا أهمّ تفسير لظاهرة ذلك الولد السرياني اليتيم الذي وُلد لاجئًا في مدينة بيت لحم وأصبح داهش بك ثمّ الدكتور داهش، ومؤلفًا لا تزال طبعاته تنفد حتى الآن وصاحب طريقة وأتباع ما زالوا يؤمنون بأسطورته.

لا شكّ في أنّ داهش واحد من مجانين الدهيشة، بل ربّما كان أشهرهم، فأيّ صفة يمكن إطلاقها على نبيّ القرن العشرين هذا، الذي يروي البيروتيّون أنّه كان سببًا في طلاق الكثير من النساء اللواتي لحقن به في أسفاره؟ ولا شكّ في أنّهن كُنّ أوفر حظًّا من ماجدة حدّاد.

كيف تصبح الحمامة الذبيحة شهيدة؟

عندما بدأت النبش والتحقيق في حياة داهش، كان ذلك بسبب أمور كثيرة، كما يمكن أن تخمّن يا عُجيل، جذبتني إلى أسطورته، خصوصًا أنّني التقيت في شوارع بيت لحم مَن عرفَه وما زال يذكره، ويروي أساطيره، ثمّ إنّني أمرّ دائمًا بجوار منزله السابق في الدهيشة، كما أنّني أُخذت باهتمام مثقّفين من طراز جبرا وشرابي به. إلّا أنّني ما لبثت أن خرجت عن حيادي الإيجابي المحبَّب الفضولي تجاهه، وانتابتني مشاعر الغضب تجاه مجنون النساء هذا، بسبب ماجدة الحدّاد، وخُيِّل إليّ أنّه مسؤول عن وفاة هذه «الحمامة الذبيحة»، كما وصفَتها شقيقتها في كتاب توثيقي عنها صدر بعنوان «الحمامة الذبيحة أو الشهيدة الداهشيّة الأولى ماجدة الحداد»، ووقّعته الشقيقة بكثير من الفخر باسم زينا حدّاد الداهشيّة. بالطبع، هي لا تلوم داهش بشيء أبدًا، بل تتّهم خصومه بما جرى لشقيقتها «الذبيحة».

سألتُ نفسي مرارًا، هل كانت ماجدة التي أطلقت على نفسها النار من مسدّس بارد بعد أن أوت إلى فراشها وهي في عمر الثامنة والعشرين، ضحيّة تصديقها لداهش بك؟ هل أُغرمَت به وبأفكاره، مثلما شاع في الأوساط البيروتية واللبنانية، فانتحرت لأجله، ولأجل قضيته؟ لعلّك تسأل نفس الأسئلة يا عُجيل.

هل انتحرت بسبب إيمانها بمن سمّته النبيّ؟ أم بسبب عشقها له؟ أم من الصعب الفصل بين الأمرين؟ فلا إيمان بلا حبّ، هذا صحيح، ولكن الحبّ

يمكن أن يكون بدون يقين أو ثقة، يلاحق أملاً حقيقيًا أو مخاتلاً. ببساطة، لقد صدّقت ماجدة الأمر، فذهبت إلى النهاية مفتونة بالمعلّم الكبير.

الأديبة ماري الحدّاد الداهشيّة، والدة ماجدة، روت من خلال كتبها عن تعرّفها إلى داهش، وإيمانها وزوجها وعائلتها به، وبأفعاله الخارقة، ولا شكّ في أنّ ماجدة تأثّرت بكلّ ذلك، وقد تكون كلمة «تأثرّت» لا تصف ما حدث فعلاً، فالتأثّر وحده لا يفضي إلى الانتحار، إن لم يكن ممزوجًا بشيء من الجنون، أو الكثير... الكثير منه، على الأقلّ في حكاية ماجدة مع داهش.

لحظات ذرى عديدة سبقت انتحار ماجدة، أوصلتها إلى قرارها المفجع، آخرها، على الأرجح، أنّ الرئيس اللبناني بشارة الخوري، وهو زوج خالة ماجدة، قد قلق، وفقًا لمناهضي الداهشيّة، بعدما نجح «النبي المزعوم في تضليل الكثيرين والكثيرات، خصوصًا في الأوساط النسائية والطبقة الميسورة من المجتمع اللبناني عامةً والبيروتي خاصة»، فأسقط الخوري الجنسية اللبنانيّة عن ابن بيت لحم، ونفاه من لبنان عام 1944.

ربّما لا يكون «القلق» فقط وحده ما جعل الخوري يقدم على إجراءاته بحقّ داهش، فقد يكون ذلك ممزوجًا بأمور أخرى ذات طابع شخصي، بعدما تمكّن داهش فعلاً من الدخول إلى عرين العائلة التي يُفترَض أنّ الخوري كبيرها وعميدها.

ردّ فعل ماجدة على طرد نبيّها الحبيب كان كبيرًا، كبيرًا جدًا، ويبدو أنّها أدركت أنّ علاقته بها وبعائلتها كانت أحد أسباب ما جرى له، فعرضت على داهش، في منفاه، أن تغتال الخوري، فأرسل لها رسالة من حلب بتاريخ 15 كانون الثاني 1945، ينهاها فيها عن القيام بذلك. وقد نشر الداهشيّون تلك الرسالة بعد انتحار ماجدة، ليقولوا إنّه «لولا داهش، لاغتالت ماجدة بشارة الخوري». ولكن بعض ما في الرسالة قد يوحي، يا عُجيل، أنّها قد لا تكون كُتبت فعلاً قبل انتحار ماجدة، لأنّها تشرح أمورًا يُفترَض أنّ ماجدة تعرفها، إلا أنّ الكاتب يذكرها وكأنّه يشرحها بالتفصيل لمتلقٍّ غريبٍ عنها. آمل أن تتمكّن من مقابلة داهش، يا عُجيل، في عالمكم، وأن تعرف منه الحقيقة.

في رسالته، وصف داهش ماجدة بأنّها رمز الشهامة والإخلاص، وكتب لها: «بلغني أنّك تأثّرت بفداحة ما أصابني على يد زوج خالتك بشارة الخوري من سجنٍ وتجريدٍ ونفيٍ وتشريد، من خالتك وخالك ميشال شيحا. ولم يكتفوا بذلك، بل طاردوا شقيقتي واضطهدوها، ثمّ زجّوها في أعماق السجون، لأنّها أرسلت إلى الشيخ بشارة برقيّة تسأله فيها عن مقرّي كي تستطيع السفر حيث أقيم».

يضيف داهش: «جميع هذه العوامل أثّرت بنفسيّتكِ وإحساسك المرهَف، فإذا بكِ تبعثين برسالة صاخبة مملوءة بالتهديد والوعيد للشيخ بشارة وزوجته. ثمّ صمّمتِ على اغتياله انتقامًا لما حلّ بي وبسمعتك شخصيًا من تلك الأكاذيب الحقيرة التي نشرتها جريدتا العمل، والديار، إذ لفّقوا التهم الدنيئة بإيعاز من بشارة ولور وخالك ميشال شيحا وهنري فرعون».

واضح من هذا المقطع، أنّ الكلام عن علاقة داهش وماجدة كان منتشرًا، ووصل إلى الصحف، وبالتأكيد أصبح مدار حديث الصالونات، تختلط فيه الحقائق بالإشاعات.

في تلك الرسالة أيضًا، يطلب داهش من ماجدة ألا تنفّذ «أيّ عمل عدائي ضدّ الشيخ بشارة أو سواه»، ويتوعّد هو بالنيل منه، ويتنبّأ بكسر يد الخوري، بعد أن يذكّرها بأنّه سبق له أن تنبّأ له بذلك قبلاً عندما سأله الصحافي إسكندر رياشي:

– إذا جرّدك بشارة الخوري من جنسيّتك ظلمًا، فماذا سيكون موقفك؟

فأجابه:

– إذ ذاك ستُكسر يده التي سيوقّع بها المرسوم من العنق.

يكتب داهش، محاولاً السيطرة على ماجدة، مسترسلاً في استعراض قدراته برأيي، وهو رأي قد تشاركني فيه يا عُجيل: «وقد نشر إسكندر ريّاشي نبوءتي في جريدة (الصحافي التائه) وذلك في العدد الصادر بتاريخ 20 شباط 1944، وبما أنّ بشارة الخوري جرّدني من جنسيّتي فستكسر يده من العنق وستحقّق نبوءتي بحذافيرها».

ويذهب أبعد من ذلك: «وسيجازى، أيضًا، روحيًّا، فيصاب بخبل وجنون، وفي النهاية سيطرده الشعب من كرسيّ حكمه، فيغادره مهانًا ذليلاً، مُنكّس الرأس. وسيكون أوّل لبنانيّ يُطرد بإجماع رغبة الشعب».

تسلّمت ماجدة وفقًا لعائلتها هذه الرسالة في 20 كانون الثاني: «فكان أسفها عظيمًا لعدم استطاعتها اغتيال مرتكب الجريمة القذرة تنفيذًا لوصيّة مؤسّس عقيدتها، وأرادت أن تسمع صوتها للرأي العامّ، فانتحرت».

بتاريخ 23 نيسان 1945، نشرت مجلّة «ألف ليلة وليلة»، لصاحبها كرم ملحم كرم، ملفًّا عن انتحار ماجدة، ومن حسن الحظ أنّه يتضمّن جزءًا من مذكّراتها المؤثّرة.

تكتب ماجدة في أيامها الأخيرة مفتقدة النبيّ المعلم الحبيب: «وبات شغلي الشاغل بعد اعتقال النبيّ الحبيب أن أثأر له ممّن أنزلوا به الضنى. وصمّمت على القتل، على الجريمة. روح بروح. وأوشكت أن أدرك الوطر في 11 تشرين الثاني 1944 في المعرض البلجيكي في بيروت. غير أنّ الزمن كان معاندي. فانطلقت إلى عاليه لتحقيق مأربي فما أسعفني القدر. وإذا رسالة ترد من داهش تصدّني عن المبتغى. قلت: بل سأنتقم، سأنتقم من المضطهدين، ممّن كتبوا علينا الشقاء!».

ويبدو أنّ الشقاء الذي تتحدّث عنه ماجدة يتجاوز شقاء مريدة ببعد نبيِّها، إلى شقاء عاشقة ببُعد الحبيب. لا تبتسم يا عُجيل، بخبث، من استنتاجاتي، فأنتَ أيضًا قد تكون توصّلت لنفس الاستنتاج.

تكتب ماجدة متابعة: «بيد أن الرسالة هنا، أمامي، فكيف أنقض أمرًا يفرضه النبيّ الحبيب؟.. وأدركني الوهن. وشعرت بأني أذوب؛ بأني أفنى ساعة فساعة. وبدوت شرسةً، كارهةً للحياة. فدعاني الأهل إلى براح لبنان إلى مصر، فرضيت بعد مكابرة. ولكنّ العصبة الحاقدة علينا لم تشأ أن أنطلق إلى مصر، فهي تصرّ على بقائي في لبنان أشقى وأتعذّب. أيّها النبيّ، أيّها النبيّ، أين أنت كي تنقذني من علّتي، كي تخفّف عنّي وقع المصاب؟... ليست حياتي، وقد حجبوك عنّي، غير نارٍ تحرق ولا تبيد. هي نار دائمة الاضطرام. إلا أنّي سأنجو من أعبائي، سأنتقم من أعدائك بنفسي. فإذا منعتَ عنّي قتلهم، فلم تمنع عنّي أن أطفئ حياتي بيدي، أن أسدّد إلى رأسي رصاصًا نويت أن أسدّده إلى صدورهم!».

ويمكن تصوّر الحالة التي كانت ماجدة عليها وهي تكتب هذه الكلمات المؤثرة: «أيّها النبيّ، لقد أبقيتَ في أضلعي لهيبًا لا يخمد. كلّي إليك حنين

وهيام. على أنّ دهري كافر لا يشوقه أن أنعم بالهناء. فقد اختارني منذ نشأتي للموت، ولست أخاف الموت. أين أنت أيّها المسدّس المنقذ كي أضمّك إلى صدري، كي أقبّلك وكأني أقبّل ذاك؟.. لست أخشى برودتك وأنت مستودع الشرر. تعال؛ عانقني، انفذ إلى مكمن العذاب وحلّ قيودي، وضمّد جراحي. هي جراح لا أقوى على احتمال مضضها!».

وتكتب ماجدة أروع كلمات يمكن أن تصف تأثّر حبيب بفراق شقّه الآخر: «إليكِ عنّي أيّتها الحياة، فأنتِ بؤرة ديدان، ملعب ثعابين وتماسيح. شبعتُ منك على شحّك وحقارتك أيّتها الدنيا. يا نبيّ السَّماء اغفر لي، أنا علّة شقائك. دقّت ساعة الخلاص!».

ذهبت ماجدة، ضحية الحبّ المفجوع، بعد خمسة أيّام من رسالة داهش المفترَضة، ونعَتها عائلتها: «بحقّ اللّه والنبيّ الهادي، جورج إبراهيم حدّاد وزوجته ماري شيحا والإخوة والأخوات الداهشيّون ينبئون بأن روح عزيزتهم ابنتهما ماجدة حدّاد قد انتقلت إلى جوار ربّها يوم السبت في 27 كانون الثاني 1945، عن ثمانية وعشرين ربيعًا. وهي تدين بالمذهب الداهشيّ. وجرى الاحتفال بدفنها يوم الأحد في جونية على الطريقة الداهشيّة. بحق اللّه والنبيّ الحبيب الهادي أن يمتّعها اللّه بجنّات النعيم!».

عاشت ماجدة ما اعتبرته أجمل سنوات عمرها داهشيّة، ورحلت داهشيّة، ودُفنت على الطريقة الداهشيّة. بتاريخ 9 شباط 1945، نشرت صحيفة «الدنيا» حوارًا عن الداهشيّة مع «أحد الأقطاب الداهشيين»، الذي أجاب عن أسئلة تتعلّق بانتحار ماجدة.

سأله المحرّر:

- لقد اطّلعتُ على ورقة نعوة المرحومة ماجدة حدّاد، فإذا بنجمة مخمَّسة قد كُتبت في داخلها حروف أبجدية. فماذا تعني هذه الحروف؟

أجاب القطب الداهشيّ: «ليست الحروف الستّة التي شاهدتموها تعني غوامض، كما وقع في هذا الخطأ بعض الصحف التي تسرّعت وتوهّمت وذكرت مثل هذا الزعم. ولكنّ هذه الحروف وسواها تحمل في طيّاتها جملاً رائعة المعنى، بعيدة المرمى، سامية الأهداف. وعليها يرتكز أساس الدين الداهشي

الذي أصبحنا نعتنقه بفخر عظيم، وهنا أعطيك مثلاً بسيطًا على هذا: ففي القرآن الكريم تجد كلمة (بسملة) وهي مختصر جملة (بسم اللّه الرحمن الرحيم) وهناك كلمة صلعم مختصر (صلّى اللّه عليه وسلم). وهكذا (الحوقلة والحمدلة وكهيعص) وغيرها كثير من الاصطلاحات التي اتّفق عليها كبار أئمّة الدّين».

وأكمل القطب الداهشي إلى أن ختم إجابته قائلاً: «لكلّ رسالة إلهية إشارات ورموز خاصة يختلف بعضها عن البعض الآخر. فشعار رسالة النبي سليمان مثلاً هو (النجمة المسدّسة) التي لا يزال اليهود يحتفظون بها، وهي مرسومة على أبواب مجامعهم وكنائسهم حتّى اليوم. أمّا شعار رسالة السيد المسيح فهو النجمة المخمّسة التي هي شعار رسالتنا الداهشيّة اليوم».

أمّا على سؤال المحرّر: لماذا انتحرت الآنسة ماجدة حدّاد؟ فقد ردّ القطب الداهشي بإفاضة، عازيًا موقف بشارة الخوري ضدّ داهش «لأسباب عائلية شخصيّة»، وانتحار ماجدة إلى رفض داهش قرارها اغتيال الخوري، «وهكذا سجّلت هذه الشهيدة الداهشيّة الأولى بدمها الزكي الطاهر أنّ الاضطهاد والنفي والتعذيب والإرهاب جميعها لا تستطيع قتل الفكرة التي اختمرت في الرؤوس ونزع الإيمان الصحيح الذي زرُع في القلوب والنفوس».

وتحدّث القطب عن مراسم دفن ماجدة قائلاً: «لقد قام بمراسم الدفن كلّ من الدكتور خبصا ويوسف الحاج وسواهما، لأن المذهب الداهشيّ يسمح لأيّ أخ داهشيّ أن يتلو قطعة روحية ملائمة للموضوع المراد القيام به، دون حاجة إلى سيامة أو تعيين فئة معينة كالقسس عند بعض الطوائف المسيحيّة مثلاً، لأن الداهشيين جميعهم إخوة وكهنة لله العليّ، وتلك القطع التي تُقرأ جميعها في مثل هذه المراسيم هي من وضع الدكتور داهش وإلهامه وتشريعه».

وشرح كيف تتمّ مراسم الدفن في الديانة الداهشيّة: «توضع الجثة في النعش، وتؤخذ إلى المقبرة حيث يتلو أحد الإخوة عدة قطع روحية لرئيسنا الديني، ممّا يجب تلاوته في حالة الموت والدفن. وبعد الانتهاء من قراءة القطع ومن وضع الجثمان في الجدث، يرُسم الرمز المقدس كما هو في ورقة النعوة، ثمّ يحُرق وينُثر رماده في الهواء».

أيّ طقوس ومراسم اجترحتَها يا ابن بيت لحم؟

كم عمرًا تعيش الأساطير الحاتمية؟

عُجيلي العزيز،

نعاني في زماننا، ربما كما في زمانكم، من شحّة المصادر. لذلك، لم أهتدِ إلى مصادر تؤيّد تسمية الدهيشة نسبة لداهش، بل إنّ قصّة إبراهيم باشا هي الشائعة. وفي الحقيقة، لا أرغب في ترجيح أيّ قصة على الأخرى، لأنني إن فعلت، فسأرتكب حماقة بحق روايتي. وهذا رأي صديقي عمّار الجوري، وهو رأي أخذته على محمل الجدّ، فهو وإن لم ير فائدة في سِفر تكوين لروايتي هذه، ولم يرتح كثيرًا لزجّ جدّنا عُجيل فيه، فإنّه نصح بتلوين السِفر بحكايات الباشا المصري، والبك الدهيشيّ، والداهشيّ.

بالنسبة لي، المهمّ هو الإشارة إلى منطقة تمتدّ على جانبي شارع القدس-بيت لحم، بطول نحو 3 كلم، أصبحت تسمّى الدهيشة، وإلى الموقع الذي أصبح مخيّم الدهيشة والذي كانت ملكيته قد آلت قبل تأسيس المخيّم، إلى شخصيّة ذات طابع أسطوري محلّي، وإن لم تصل إلى غرابة داهش بك، أو شهرة المغامر المصري ابن الوالي الطموح. هي شخصية تبدو في صفاتها شديدة الأسطورية، لكنّها أسطورة حقيقية، عاش مَن يروي عنها، مثل سلطانة عبد ربه، التي التقيتها وعمرها 104 أعوام، ومَن كتب عنها مثل حنا جقمان، أبو عبده، الذي رحل وفي نفسه غصّة من المدينة وأهلها الذين لا يُقدّرون الكتب وكاتبيها، ولا يأبهون للتاريخ وصانعيه، فتاريخهم يتغيّر بسرعة، وكل

عصر يدفع برجاله ليأخذوا حصّتهم، من دمها، ودينها، وإرثها، ويرحلوا، تاركين إيّاها، في كلّ مرّة، تلعق جراحها.

اسم هذه الأسطورة التي عاشت في زمننا، يا عُجيل: سليمان جاسر، صاحب القصر المهيب القريب من قبّة راحيل، على شارع القدس-الخليل أيضًا، وهو أشهر دور بيت لحم على الإطلاق، وهو الآن فندق الأنتركونتيننتال، أحد أفخم فنادق الضفة الغربية. وقد لا يوجد مكان أكثر مثالية من موقع دار جاسر للإشارة إلى التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسيّة التي مرّ بها الشعب الفلسطيني خلال أكثر من قرن.

تُزيِّن مدخل القصر المهيب، على واجهته الأمامية، الآية القرآنية 53 من سورة النحل: «وما بكم من نعمة فمن اللّه»، نقشها سليمان، المسيحي، عميقًا في الحجر.

وعلى عَمودين في مدخل القصر نقش: «سليمان جاسر وإخوانه»، وأسفلهما تاريخان يفصل بينَهما بنجمة، الأوّل سنة 1910، والثاني سنة 1914، وهما يشيران إلى بدء العمل والانتهاء منه. كان سليمان جاسر قد ترك رئاسة بلدية بيت لحم قبل شروعه في البناء بثلاث سنوات. وقبل البلدية، وفي عصر المخترة، كان مختارًا للاتين.

وهذا النقش مع التاريخين يتكرّر في مكانٍ آخر على واجهة الدار-القصر، وبشكل فني مع وفرة في الزخرفة.

تقع دار جاسر، كما أشرت (أشعر، يا عُجيل، أحيانًا بتشوّش يجعلني أكرّر بعض ما قلته)، على شارع القدس-الخليل التاريخي، الذي بدأ أهالي بيت لحم البناء بجانبه، ضمن عملية توسّع خجولة في بدايات القرن العشرين. وهذه الدار زاخرة بالزخارف والرسوم واللمسات الفنية، وتجاوزت شهرتها مدينة بيت لحم، إلى المناطق الفلسطينية الأخرى، وإلى الخارج، منذ وقت مبكر، وهو ما لمسته من صور قديمة التقطها السائحون والرحالة والمستوطنون اليهود الأوائل للدار وبعضهم لبعض، أمام هذا المعلم.

والد سليمان هو الشيخ يوسف جاسر، كان أكبر إخوته، ويقال إنّه نبغ في «فنّ الكتابة والتحبير ونباهة الذهن وقوّة الذاكرة»، وكان يُطلق عليه

«الباسمجي» أي المسجّل، لأنه كان خلال العهد العثماني، مُلزمًا بتسجيل أسماء سكّان بيت لحم، أمام الدولة العثمانية.

بنى الإخوان جاسر القصر من فائض الأموال التي جمعوها طوال سنوات في البلدان المهجرية، حيث حقّقوا ثروة خيالية، ومكانة مرموقة، حتّى إنّ هناك حديثًا عن الاستقبال الذي حظي به سليمان جاسر من بابا الفاتيكان والبركة التي نالها منه، حين عرّج عليه وهو عائد من فرنسا، للاستقرار في بيت لحم.

وبناءً على توصية واقتراح من السفير العثماني في باريس، أصدر السلطان عبد الحميد فرمانًا ذكر فيه أنّ «سليمان جاسر بك استحقّ التفات وتقدير مولانا جلالة السلطان لخدماته الجليلة»، ومنح سليمان جاسر نيشانًا رفيعًا، وبراءة برتبة «مير ميران» توازي وظيفة متصرّف، الأهمّ من ذلك أنّ جاسر حصل على بدلة شرف مقصّبة عند الصدر، والكتفين، والكمّين، وحتى العنق، سروالها مطرَّز على شكل أشجار القصب على الجانبين.

وعندما عاد الإخوان جاسر إلى بيت لحم، كانت سمعة الكرم الحاتمي التي يمتازون بها تسبقهم، حيث عرفوا بأنّهم كانوا دائمًا باسطي اليد، وعندما قابلتْ المعمِّرة سلطانة عبد ربه في عام 2004، كانت لا تزال تلهج بكرم الإخوان جاسر، خصوصًا في ظلّ الحرب العالمية الأولى (1914-1918) التي كان فيها «الرغيف يساوي إنسانًا». سلطانة ذهبت إلى عالمكم فرحة يا عُجيل، وكأنها كانت تنتظر بصبر، حدثًا مفصليًّا هامًّا.

وعندما بدأ الإخوان جاسر بناء القصر وفقًا لمخطّط وضعه مهندس فرنسي، كانوا في كلّ يوم سبت، يُعِدّون المناسف المغطّاة باللحم والأرزّ، ويضعونها على الشارع، ليأكل منها أيّ شخص، وربمّا لهذا السبب جرى المثل المشهور والمتداوَل حتّى الآن في بيت لحم «يهُو الفتيت على دار جاسر» الذي حفظت فيه الذاكرة الشعبية للإخوان جاسر مكانتهم ككرماء ربّما تفوّقوا على حاتم الطائي.

وبنى الإخوان جاسر بجانب القصر سبيلاً ما زال موجودًا حتى الآن، ليخدم الفلاحين، والتجار، والجمّالة، وهم في طريقهم من مدينة الخليل

وجبلها وريفها إلى القدس، لبيع محاصيلهم المحمولة على الجمال، إذ كانوا يصلون إلى القصر تعبين، فأصبح السبيل نقطة التقاء توفّر الماء والراحة، لهم ولدوابّهم.

ويتكوّن السبيل من حوض حجري مثبّت في الخلف، يُعبَّأ بالماء، أمّا الواجهة فعبارة عن برواز حجري، عليه نقوش فنية، تحيط بالمشرب.

وإن كان الحديث عن كرم آل جاسر بمثابة «تاريخ شفوي»، تتوفّر لدينا بعض الشهادات المكتوبة عن ذلك، مثل ما كتبه واصف جوهرية (وهو واحد من ظرفاء قدسك يا عُجيل) وهو يصف موسم النبي موسى، ومشاركة وفد الخليل فيه: «يتحرّك موكب أهالي مدينة خليل الرحمن بعد ظهر نهار السبت بأعلامه وطبوله وكاساته، تحت قيادة رجال الدين ومفتي مدينة الخليل وأعيانها، وكانت العادة أن يتناول هؤلاء النّاس جميعهم طعام العشاء على مائدة المرحوم سليمان جاسر، المشهور آنذاك في الجود والكرم، وهو من خيار عائلات وأغنياء مدينة بيت لحم، وذلك في قصره الواقع بجوار قبّة راحيل».

وخلال الحرب العالمية الأولى، التي دخلت فيها فلسطين في ظروف قاسية جدًا، وأصبحت نسبة كبيرة من النّاس، إن لم يكن أغلبها، على حافة الجوع، بسبب الحرب والكوارث القدرية، مثل غزو الجراد، وانتشار الأوبئة القاتلة، كان سليمان جاسر وإخوانه يوزّعون الأرغفة على المحتاجين، كلّ يوم جمعة.

وكانت الأرغفة تُخبَز من القمح الذي يستورده الإخوان جاسر، من عميد عائلة أبو جابر في السلط، وعندما كانت تصل القوافل المحمَّلة بالمؤن والسمن، من السلط إلى بيت لحم، كانت تُفرَّغ حمولتها في الطبقة الأولى من القصر الجاسري، لتُعدّ للمحتاجين.

وربمّا بسبب الكرم الجاسري غير المسبوق، أو لأسبابٍ أخرى تتعلّق بالاقتصاد العالمي آنذاك، وتعود إلى أن معاملات آل جاسر التجارية كانت تتمّ بالفرنك الفرنسي، الذي خسر قيمته مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، ما اضطَرَّ فرنسا إلى بيع جزء كبير من احتياطها الذهبي للإنفاق على الحرب المهلِكة، أفلس الجاسريون، وباعوا القصر الجاسري، وأراضيَ أخرى لهم، من بينها «كرم جاسر» وهو مكان مخيّم الدهيشة الآن.

وفي ظروف معيَّنة، آلَ القصر إلى السلطات الانتدابية الحاكمة في فلسطين، وتحوّل في إحدى الفترات إلى سجن، وبعد عام 1948 تحوَّل إلى مدرسة حكومية، وفي ظلّ الاحتلال الإسرائيليّ كان الجيش الإسرائيليّ يخلي المدرسة، في كلّ عام، بمناسبة أعياد الميلاد الشرقية والغربية، ويحوّلها إلى معسكر لجيشه الذي ينتشر في المدينة بكثافة طوال فترة الأعياد.

وبعد اتفاق أوسلو، وتأسيس السلطة الفلسطينية، قرّر الخِتيار تغيير الاستخدام الحكومي للقصر. طالب مثقفون بتحويله إلى متحف للتراث، لكنّ الخِتيار منحه لشركة استثمّارية، للسلطة أسهمٌ فيها، حوّلته إلى فندق، في ظروف سياسيّة صعبة، حيث كانت سلطات الاحتلال التي وضعت يدها على مقام قبّة راحيل المجاور للقصر، منذ الاحتلال عام 1967، قد وسّعت من إجراءاتها ضدّ الفلسطينيين، وصادرت المزيد من الأراضي حول المقام، الذي تحوّل إلى ثكنة عسكرية، قبل أن تغلق شارع القدس-الخليل في تلك المنطقة التي تحوّلَت إلى خطّ تماس دائم الاشتعال بين الشبان الفلسطينيين وجنود الاحتلال، سقط في المواجهات التي بدأت فيه قبل انتفاضة الأقصى واستمرّت بعدها، عشرات الشهداء...

قبّة راحيل مقام إسلامي، يتبع الأوقاف الإسلامية، وهو عبارة عن بناء مملوكي، وضعت الأوقاف العمودَين المزخرفين اللذين كانا بالأساس على مدخل السرايا، على مدخله. وكانت قد وضعتهما أوّلاً عند مدخل مسجد عمر بن الخطاب قبالة كنيسة المهد، ثم عندما هدمت البناء القديم الجميل للمسجد لتوسعته وتحويل طبقته السفلية إلى محالّ تجارية، نُقل العمودان إلى مدخل قبّة راحيل، حيث أصبحا رمزًا للبناء الكلاسيكي المميَّز للقبّة، التي تحوّلت خلال الاحتلال إلى المثال الأبرز على نوع من الاستيطان اليهودي في الأرض المقدّسة، يفرض نفسه من خلال زجّ شخصيات العهد القديم في الصراع الدموي، وهذه المرّة، نساء الكتاب الأشهر والأكثر تأثيرًا في وجدان البشرية.

«ستّنا راحيل»، كما يسمّيها السكان المحليون، هي بالنسبة للإسرائيليين أم يوسف وبنيامين، وزوجة النبي يعقوب.

ولضمان وصول المصلين اليهود إلى قبّة راحيل أغلقت حكومة إسرائيل منطقة واسعة سكنية وحيوية واستولت على قسم كبير من مدينة بيت لحم، كما أغلقت الطريق التاريخية القدس-بيت لحم- الخليل.

ومن جانب آخر، أصبحت قبّة راحيل في أحد جوانب قضيّتها رمزًا لمناهضة الاحتلال لدى بعض القوى الإسرائيلية التي عارضت الاحتلال لأسبابها الخاصة، ومن بين رموزها البروفسور الراحل يشياعو ليبوفيتش الذي يُطلَق عليه في إسرائيل «نبي الغضب»، وهو من أطلق صرخة مدوّية ضدّ الاحتلال تساءل فيها «ماذا لديكم هناك؟»، ويقصد بهناك الأراضي المحتلة عام 1967م، ولم ينتظر، بالطبع، الإجابة، فأجاب بنفسه مستنكرًا «.. قبر راحيل العاهرة..!».

ومن حسن حظّ الخِتيار أنه لم يسمع هذا الكلام. فما كانت يا ترى ستكون ردّة فعله، وهو الذي أعلن أمام الملأ أن راحيل خالته؟ ذلك أمر يصعب التكهّن به.

جاسر وإخوانه، الذين خسروا قصرهم، خسروا أيضًا كرم جاسر، بطريقة غامضة، قبل أن يتبيّن في ما بعد، وفق معلومة تسرّبت، أنّ يهوديًّا ما اشتراه، فالملّاك اليهود يفصحون عن أملاكهم الجديدة دائمًا بوجل وخجل، وأحيانًا بخوف. الخوف يسكننا في هذه البلاد، كما تلاحظ يا عُجيل، منذ قرون.

الدهيشة هذه، التي ارتبط اسمها بمغامرين أتوا من خلف الحدود، واجتازوا البحار، وكُتّاب ومستشرقين، وفاتحين، وغزاة، وأفّاقين، ساروا بمحاذاتها على شارع القدس-الخليل، ومجاهدين عرب، ومنهم من أصبح من الضباط الأحرار في مصر والأردن، وصحافيين، حازوا شهرة عالمية مثل محمّد حسنين هيكل، وأبطال خُلدوا مثل الشهيد أحمد عبد العزيز، لم ينقصها شيء لتُكَوّن أسطورتها الخاصة، إلا شهرتها كمكان يذهب إليه المجانين، كما يردّد الفلسطينيون، ولم أكن أنا وغيري من الدهيشيّين، بحاجة لأن نتقارع حتى يقول أحدنا للآخر:

– أنت مكانك الدهيشة.

أو

– إن شاء اللّه يرسلونك إلى الدهيشة.

والسبب ببساطة، يا عُجيل، أنّنا كنّا فعلاً من الدهيشة.

دهيشة أخرى، لِمَ لا؟

كُنّا نحاول التفريق بين دهيشتنا ودهيشة أخرى بجوارنا، فدهيشتنا، التي بناها المشرّدون الأُميّون، الذين أتَوا من الساحل، والسهل الساحلي، والهضاب الوسطى، وجبال القدس والخليل، هي المخيّم، الذي تحوّل إلى رمز لقضية اللجوء، أو هكذا أحبَّ سكّانه أن يقدّموه، بينما الدهيشة المجاورة شيء آخر تمامًا، وهو ما كنّا نحاول شرحه لمن نَلقاهم من مواطنينا عندما تجمعنا مناسبات قطرية، كمباريات كرة القدم التي تُجرى في هذه المدينة أو تلك، أو عندما نلتقي في السجون، حيث قُدِّر لأجيال متتالية من شباب الدهيشة أن يجرّبوا السجون في العهدين الأردني والإسرائيلي. لكنّ ذلك كان في معظم الأحيان بدون جدوى، فالدهيشة هي الدهيشة، موطن المجانين.

دهيشتنا، أقصد مخيّمنا، يا عُجيل، تأسّست بعد عام 1948، مكان كرم جاسر، بعدما جال المشرّدون في نقاط لجوء عديدة، ومرّوا في قرى مختلفة، أمضوا فيها فترات معيّنة، جرّبوا خلالها، هم الآتون من بلاد معتدلة الطقس، اللجوء في «بلاد الآخرين»، في ظلّ غضب غير مسبوق للطبيعة، دخل في ما بعد تقويمهم، مثل الثلجة الكبيرة. ولم تستطع الخيام أو الكهوف أن تردّ عنهم البرد والجزع، ففقدوا الكثير من أبنائهم. والداي مثلاً فقدا خمسة من إخوتي، كان واحدهم يكبر وينمو قليلاً، ثمّ يموت، وعندما كُنت أستمع إلى قصص فقدانهم، التي كان يرويها بكثير من الحيادية العجيبة والداي اللذان

منذ زمن سلّما أمورهما وأمورنا إلى القدر، كُنت أعجب كيف أن القدر كان ينتظر إخوتي إلى أن يصبح عمر الواحد منهم عامين أو ثلاثة أو خمسة، حتّى يقصفه، ويهوي به إلى «مهاوي الردى» وهو التعبير الذي قرأته مبكرًا لأبي القاسم الشابي (شاعر ملهم من عصرنا يا عُجيل)، وظَلّ عالقًا في ذهني.

كان الموت متربّصًا على طرقات المخيّم، يغالب أُناسًا لا حول لهم ولا قوّة، واضطُرّ والدي، الذي كان معروفًا بتديّنه الفطري الشعبي الشديد، لأن يتنازل ويطلق على أحد أولاده الذي فقده لاحقًا، اسمًا من غير أسماء النبيّ العربي أو صحابته، فاشتقّ له اسمًا من مفردات الوضع الذي أصبح يعيشه وسمّاه «ثلجي» لأنه جاء في الثلج، متحدّيًا كلّ ما يحيط به، أو ربّما أراد أن يحني رأسه لعاصفة ما يحدث حوله، من أمورٍ ظلّ يعتقد أنّها مؤقتة، فقدّم رشوة صغيرة لها بأن سمّى ابنه نسبة إلى هذا العدو الذي لم يكن يخطر على بال: الثلج. ولطالما روى أبي كيف كان هذا الضيف الأبيض الثقيل، يتراكم على الخيام، فيُهبطها، وتَنزل على ساكنيها الذين يظلّون نائمين حتّى يحين الصباح، فينهضون ليزيلوا الركام، ويُصلُّون صلاة الفجر، وربما لو لم يكونوا مضطرّين للنهوض من أجل الصلاة، لتركوا الثلج حتّى ساعات أخرى يمضونها وعائلاتهم في النوم، والأبيض الثقيل يجثم فوقهم.

في الخيام، والأزقّة المتربة، وبين الأفاعي التي تفوع في الصيف، ثمّ في الغرف المتواضعة التي بنَتها وكالة الغوث (الأونروا)، ظلّ والدي يعتقد أنّ ما يحدث ما هو إلّا كابوس سينتهي آجلاً أو عاجلاً. وفي تصرّف لا يقدم عليه إلّا مغامر، أو مجنون أصابته لوثة الدهيشة، كما وصفه البعض، اشترى في بلده التي تركها 55 دونمًا من الأرض، وكان ذلك بعد أربع سنوات من النكبة. يا للأمل الذي سكن والدي الفقير ودفعه للقيام بخطوته تلك مع أنّ المبلغ الذي دفعه كان كفيلاً بأن يشتري له أرضًا واسعة في منطقة مهمّة في بيت لحم أو القدس أو عمّان، أو أيّ مكان يختاره.

يمكن أن أقول، يا عُجيل، إنّ المشرّدين واجهوا واقعهم بشجاعة. وعلى الأغلب لم يكن أمامهم خيارٌ آخر، فأسّسوا المدرسة، بوجود بعض المتعلمين مثل الشاعر خليل زقطان، ودَرّسوا أولادهم تحت الخيام، وأصبح زقطان، أحد

الأصوات الشعرية اللافتة التي برزت بعد النكبة، وصاحب ديوان «صوت الجياع»، أوّل مدير للمدرسة.

ولم يكن زقطان الشاعر الوحيد من المخيّم، الذي برز في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، فمثله برز الشاعر فتحي الكواملة، الذي أصدر ديوانين من الشعر، الأوّل «يا رسول السلام»، وهو مدح للرسول العربي، وسرد لسيرته الطاهرة، أما الديوان الثاني فمختلف تمامًا، حمل اسم «البركان»، وهو ديوان يدعو للثورة والتمرّد والعمل من أجل الخلاص من الأنظمة العربية غير الطاهرة، وقد صادرت السلطات الأردنية هذا الديوان فور صدوره.

وبرز شاعر ثالث لم يكن أقلّ مشاغبة وجنونًا من سابقه، اسمه عبد الفتاح الكواملة، سرعان ما أصبح طريدًا لمعظم الأنظمة العربية بعد أن هاجم سياساتها وتآمرها على قضية فلسطين. عاش الكواملة مجهولاً ومات محرومًا تعيسًا، بعد أن أقدم على إنهاء حياته بيده بطلقتين من الرصاص أطلقهما على نفسه عام 1987 في مدينة إربد الأردنية.

ونشطت الأحزاب القومية والأممية والدينية والوطنية والإقليمية وسط المشرّدين، وأصبح المخيّم نقطة تجمّع للتظاهرات المتّجهة نحو بيت لحم، وفي الهبّة التي شهدتها الأراضي الفلسطينية والأردنية ضدّ حلف بغداد، فقد أهالي المخيّم أحد الطلاب الذي كان يدرس في المدرسة الثانوية في بيت لحم، واسمه عبد اللّه تايه، الذي استُشهد في ساحة المهد، برصاصٍ عربيّ هذه المرّة، مع اثنين من زملائه، هما عبد الفهيم عقل وإبراهيم الخطيب، وكان ذلك يوم 1955/12/19.

لم أعرف عبد اللّه تايه، يا عُجيل، لكنّني عرفت شقيقته الحاجة هنيّة، التي عاشت في المخيّم، وأصبحت حياتها قصة درامية، جعلتنا نطلق عليها لقب الخنساء، فهي فقدت زوجها، ثمّ فقدت شقيقها عبد اللّه، وعاشت تربّي ابنين لها، حملا اسمها، إلى أن فقدت أحدهما، الأكبر، إبراهيم أحمد حسن عودة، في الانتفاضة الأولى، إذ أصابته رصاصة في رأسه وهو في منزله، فاستشهد عن 38 عامًا.

عجبتُ دائمًا من قدرة تحمّل هذه الخنساء. بعد استشهاد ابنها، أخبرتني أنّه يزورها دائمًا في الحلم، ويطلب بعض الطلبات، فتنفّذها بسعادة بالغة.

عبد اللّه تايه أصبح أحد رموز تلك المرحلة الفوّارة من تاريخ الأمة العربية. اسم ملهم لكثيرين في معارك خاسرة. لماذا دائمًا معاركنا خاسرة؟ سألني مرّة يوسف علّان وكأنّه يسأل نفسه.

فماجدة تحوّلت إلى رمز التضحية لدى أتباع الداهشيّة، وفي الذكرى الثامنة لانتحارها مثلاً، احتفل الداهشيّون وأحيَوا ذكراها، وتم ذلك كما تشير الأدبيات الداهشيّة «بحضور عدد من آل حدّاد وخبصا ودَمّوس وأبو سليمان وحجّار وعشّي وغيرهم من الداهشيين وأصدقائهم من بيروت وجونيه وضواحيها. وقد أخذوا يتوافدون تباعًا بسياراتهم من كلّ ناحية وهم يحملون باقات الأزهار والرياحين التي نثروها على ضريح الشهيدة الغالية».

قُرئت خلال الاحتفال «قطع داهشية روحية» ثمّ تلا الشاعر حليم دمّوس رسالة من داهش يناجي بها روح ماجدة: «ماجدة!.. أيّتها الراتعة في فراديس الخلد، إني أحيّي بطولتك الخالدة، أي ماجداه!..، إنّني أنحني أمام جدثك الطاهر الذي يضمّ بقاياك العزيزة، أحيّي استشهادك الذي سيخلّده التاريخ كوصمة عار أبدية امتزج بالمجرم الباغية في العالمين المادي والروحي».

ولا ينسى داهش تأكيد نبوّته لماجدة حتّى وهي في العالم الآخر: «أحيّي تصميمك الجبّار عندما عزمتِ على اغتيال (الوصوليّ) المعتاد ارتكاب الجرائم فمنعتُك يومئذٍ عن تلويث يديك البريئتين بدمه النجس، وأكّدت لك - إذ ذاك - أن هذا النتن الملوّث الأشوه سيموت موتًا أدبيًا وسيشهر تشهيرًا معيبًا أبديًّا، وأنّه أينما صار وكيفما توجّه ستشير إليه الأصابع كلصّ وضيع محتال، وكسارق رقيع دجال، وبلّغتك أيضًا أنّ الشفاه ستلعن البطن الذي حمله ووضعه، والثدي الذي أرضعه، والحليب الذي أشبعه من غذاء الختل والرياء».

وهناك الكثير ممّا أعلمه داهش لماجدة أراد أن يذكرها به: «وأعلمتك يا ماجدة أنّ الألسنة ستصبّ عليه لعناتها صبًّا رهيبًا. وستنعته بما تنعت به شرّ اللصوص المحترفين، والأثَمة المجرمين، وذلك بعد أن يرتكب جميع أنواع

الموبقات، ويخوض في لُجَج المستنقعات. وسيلعنه الشعب، بعد أن يعرفه أيّ ذئب كاسر فظيع، مختبئ بثوب حمل وديع. وها قد تحقق ما أنبأتك يا ماجدة!».

ودافع داهش عن ثنيه ماجدة عن اغتيال بشارة الخوري، وبدا كأنّه يريد، يا عُجيل، أن يؤكد نبوّته لدى أتباعه: «وهكذا يا ماجداه!.. كان من الأفضل ألّا تنجّسي يدك بدمه المصاب بطاعون الجرائم وإلا لخلد اسمه كشهيد اغتالته صاحبة عقيدة دينيّة تتأجّج بنيران إيمانها الوطيد».

وختم داهش كلمته: «أما أنتِ يا ماجدة – أيّتها البطلة المغوارة – فقد سفحتِ دمك على مذبح جريمة بشارة الخوري المطرود من الشعب الثائر لجرائمه الهائلة. ولكي تُسمعي صوتك للرأي العام العالمي أقدمت على بذل روحك ولم تحجمي عن هذه التضحية الهائلة ... فدوّت أنباء قربانك العجيب في مشارق الأرض ومغاربها، وعرفت الدنيا بقضّها وقضيضها أسباب مأساتك الخالدة ... هذه المأساة التي ستكلّف المجرم غاليًا، وغاليًا جدًّا».

وجدّدت ماري حدّاد الداهشيّة على قبر ابنتها قسمها بأنّها ستتابع رسالتها حتّى النهاية وأنّها ستلاحق بشارة الخوري، وأفراد أسرتها الذين كانوا سببًا في فجيعة انتحار ابنتها.

هنيّة، خنساء الدهيشة، لم تجد إلّا الصمت تلوذ به.

ماجدة ذبيحة، وسليمة ذبيحة. الاختلاف يبدو في هوية الذابح، نبيّ أم مجنون أم ساحر. كل نبيّ دبّ على هذه الأرض، اعتقده النّاس مجنونًا، أو ساحرًا..! أليس كذلك يا عُجيل؟

كيف أصبح سِروال أبي علمًا؟

عاش اللاجئون آملين متأمّلين، وعاش كثيرون منهم ليشهدوا أنَّهم، بدلاً من أن يذهبوا إلى بلداتهم، أتى اليهود إليهم في حزيران 1967.

لم يفعل والدي مثلما فعل آخرون من لاجئي المخيّم، ومثلما فعلت زوجته التي أصبح اقتناعها بجنون زوجها الذي يشتري أرضًا في البلاد الضائعة، ويُضَيّع ما يجب ألّا يُضَيّع، أمرًا غير قابل للنقاش. فعندما أصرّ على الصمود في بيت المخيّم المتداعي، أخذت أولادها، وهجّت إلى الشرق، وجالت نازحة في الأردن، عدة أشهر، قبل أن تقرّر العودة مضطرّةً، لتعيش في مخيّم الدهيشة، في بيتٍ واحدٍ مع زوجها، ولكن كلٌّ في غرفة، وفي ظلّ حياة مستقلة إلى حدٍّ كبير، وعداءٍ سافرٍ من قِبلها، وصمتٍ طويل من قِبَله واجه به هذه الزوجة التي أصبح يسمّيها «الهبلة»، والتي ظلّت تعايره بأنّه سبب شقائها وشقاء أولادها، برفضه ترك فلسطين، والخروج بحثًا عن عالم أفضل.

الحروب لا تُقسّم الأوطان وتلتهمها فحسب، بل أيضًا تلتهم حيوات المهزومين.

عن أجواء حزيران تلك كتبتُ مرّة، يا عُجيل، في دفتر مذكّرات بالٍ، عن سِروال أبي:

عاش والدي ومات فقيرًا، دفن خمسة من أبنائه قضوا في صراع البقاء الذي خاضوه في ظلّ اللجوء والجهل والفقر والمرض. وهو الذي لم يبقَ لديه

شيء ليخسره، مثل كلّ فقراء الدنيا، ظلّ يتمسّك بالكرامة والعزّة وبأوراقٍ صفراء متآكلة يسمّيها «كواشين»، لأرضٍ عاش يُغرب إليها بالقلب وانثيالات الحنين والمنتأى.

وكانت فلسفته، التي حرص على تعليمي إيّاها، أن أعيش الحياة طولاً وعرضًا، وألّا أخاف شيئًا.. وأن أقول للأعور «أعور في عينه»، باعتبار ذلك قمّة الشجاعة، ثم مات قبل أن يعرف أنّ الشجاعة الحقيقية هي أن تقول للحلو «حلو في عينه»...!

وعشت غير مصدّق أنّ والدي يمكن أن يكون شجاعًا، فهو رجل متعدّد الانهزامات، مهزوم أمام العمر الذي يجري دون أن تلوح في الأفق بارقة عودة للأرض والأملاك والعزّ الغابر، مهزوم أمام القرش الذي لم يعد يجري بين يديه كما كان «أيّام البلاد» التي ضاعت، مهزوم أمام زوجته العنيدة، وأوّل موقف انهزاميّ سجّلته عيناي الصغيرتان له كان في حزيران 67.

في ذلك الصيف، كان عمر الولد أقلّ من أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك ما زال يذكر أمّه التي جمعت الأولاد واستعدّت للرحيل مع الريح الشرقية إلى ضفّة الأردن الأخرى... يذكر الخوف واللهفة والجرح النازف.

ويذكر أيضًا الوالد المشغول بالبحث عن قطعة قماش بيضاء، قميص أبيض، أي خرقة بيضاء، ليرفعها في سمائه السوداء بعدما تبيّن للجميع أنّ الجيش الذي دخل المخيّم لم يكن هو الجيش الذي انتظروه.

ويعود الولد بذاكرته، التي تداخلت مع محكيّات الكبار، إلى اليوم ... من أوّله، حين تجمّع ناس المخيّم على رصيفي الشارع بين قدس الأقداس ومدينة إبراهيم الخليل. هتافات ... وأناشيد ورقص ... عرس حقيقي، تحلّق الجميع في دوائر متداخلة، الرجال يطلقون المواويل بأصواتهم الغليظة، في كلّ حلقة تشمّر إحدى النساء ثوبها – إنّه يوم مباح لنشوى المكبوت – تثبّت طرفه في خصرها، وتنزل تلهب الأرض بقدميها، تتعالى الهتافات، تجحظ العيون، والقلوب الناشفة تتخلّى، في لحظةٍ، عن يباسها، فالأمل الذي يرقصون له... خرجوا من أجله، تحقّق بردم الهوة بين الأمل وتحقيقه:

– الجيش العراقي... وصل... وصل... يا ناس...!

على جانبي ذلك الشارع، عاش النّاس فرحهم الأوّل، وفي الشارع، تقدّمت ثلة من الجيش الذي ينتظرون... هم... ومَن غيرهم؟ أبناء الرافدين الصناديد... رُشَّ الملح في فرح يتضاءل أمامه أيّ فرح... أفراحهم كانت سرابًا... وهذا هو الماء... الواحة في صحراء زمانهم... تخفّف الرجال من عبء الملابس الثقيلة، هذا وقت الدبكة والسحجة والدحية، وقت النساء بامتياز، لن تُحبس زغرودة في صدرٍ مكلوم.

وبرغم الوجوه الحمر... والعيون الملوّنة والأنفاس الغريبة، التي دبّت في الشارع، إلا أنّ قلبًا لم يتوجّس، إنّهم العرب... أولاد العراق، الذين انتظرناهم طويلاً... إلى أن خرجت من بين صفوف لابسي الكاكي، المجنّدة ذات الشعر الأشقر والقميص المشقوق بدون أكمام، والشورت الذي يكشف عن المحرّم، ورسمت لهم بيديها خازوقًا نفذ، مرّة واحدة، إلى الأعماق، وهي ترطن من قاموس البذاءة بكلمات كشفت عن هويّة المحتلّين الجدد!

انكفأ الجمع، البعض سابق دقّات قلبه المتسارعة ليلحق بالراحلين، والوالد سارع مثل كثيرين لرفع الراية البيضاء، فهو لن يُكرّر تجربة الرحيل مرّتين.

لملمت الأم صغارها، كدجاجة تحاول حماية فراخها تحت جناحَيها المكسورَين، وترفض بشدّة أن تعطي غطاء رأسها الأبيض للوالد ليرفعه علامة. هي تريد الرحيل، وهو يحاول أن يتجرّع غصّة الهزيمة ويبقى.

وبعد نوبة مناكفة، ولأنّ الوالد يعرف امرأته جيدًا حين تعاند في موضوع ما، لم يبقَ أمامه سوى أن خلع سِرواله (أبو الدكة والترباس)، رغم أنّه لم يكن ناصع البياض، ورفعه على خشبة طويلة ثبّتها على سطح غرفة وكالة الغوث. لم يدرك والدي في حينها أنّ سرواله سيكون سمة وشارة لزمنٍ عربي ما تزال تعيشه أجيال متعاقبة.

ربّما لم يختلف زمننا العربي عن زمنكم العربي يا عُجيل، سأترك لك تقدير الموقف.

ما الذي مات في مريم العِسلينيّة؟

لن أتحدّث أكثر من ذلك، يا عُجيل، عن والدي الذي اتّخذ جنونه شكلاً غريبًا، وهو الصمت. هكذا، ببساطة، أصبح صِمِّيتًا، لم يعد يعتقد أنّ هناك شيئًا يمكن الحديث عنه، لكنّ هذا لم يمنعه من المواظبة على سماع نشرات الأخبار من الراديو، وخصوصًا من إذاعة لندن، ومن أن يذهب بجنونه إلى منتهاه، قبل رحيله بعام أو عامين، عندما التحق في الأردن، بمجموعة إسلامية ترفع شعار الدعوة، ونشر الإسلام في باكستان. لماذا في باكستان؟ لا تسألني يا عُجيل، لأنّني لم أفهم ولم أعرف.

ولكن سأتحدّث، عن مجايلته: مريم العِسْلينيّة، التي أصبحت مثلاً في المخيّم، ورمزًا لهزيمة أخرى تجرّعها المشرّدون، فهي التي نزلت إلى شارع القدس-الخليل، الطريق التاريخي الذي مرّ به فاتحون وغزاة وأفّاقون ومغامرون طوال قرون، في ذلك اليوم الحزيراني، وتقدّمت الجموع، يستخّفها المرح والسعادة، أخذت ترقص أمام من بقي من أهل المخيّم في الشارع الرئيس، وتوقد الهتاف، وكانت أول من اكتشف هوية الجيش المتقدّم.

وعندما حدث هرج: «اليهود... إنَّهم اليهود»...!، انكفأ الجمع... مَن تعوّد الخيبات التقط أنفاسه، بينما أُغميَ على العِسلينيّة...!

وحين وعت على نفسها وسط أولادها وبضعة رجال، رنت بنظرة، غير النظرة، وتذكّرت رجلها الذي خرج إلى الحقل، يوم خرجوا عام 1948، ولم يعد.

انتظره قلبها، وراحت تسعى للرضيع بين أيديها، وأولاد يَحْبون، إلى أن وقفت وأوقفتهم بجانبها، تستند إليهم، ذخيرة العمر القاحل وسواعد المستقبل. شقيَت من أجلهم. كانت رجلاً وأمًّا. وكان ثمّة أمل... أمل الحرب التي ستقرّب الغائب، أمَلٌ يعيد البيت والأرض، ويجعل اللجوء كابوسًا ثقيلاً في ليلة أرق، وإلّا فما معنى اصطبارهم، أشواقهم المؤجَّلة، فرحهم المخنوق بغصّة طافية؟

العِسْلينيّة كانت نصف مجنونة، كما يصفها النّاس – لا بد أنّك عانيت من أفكار النّاس المسبقة عن المجانين يا عُجيل، ثمّ جُنَّت بالكامل، وأصبحت نزيلة دير المجانين، ولكنّ هذا لم يمنعها من عرض خدماتها، كما لم يمنع الناس من الاستعانة بها، أو استقدامها من أجل مناسبةٍ ما، فعندما تُوفّي الرئيس جمال عبد الناصر، الذي تحمّل المسؤولية عن الهزيمة، التي جنّنت العِسْلينيّة بالكامل، أصاب أهلَ المخيّم نوعٌ من الهستيريا، وسَيّر النشطاء مَسيرات تتقدّمها صوره وأكاليل الورود، تحيّةً له، أمّا الأمر الغريب الذي لم يتكرّر في تاريخ المخيّم المليء بالمآسي، فهو أنّ نساء المخيّم لبسن السواد، ونزلن إلى شارع القدس-الخليل، ونصبن حلقات اللطم الجماعية، التي استمرّت أيامًا، وكانت نجمة اللاطمات مريم العِسْلينيّة، التي جاءت من دير المجانين، لتقود النائحات.

رقصت مريم العِسْلينيّة، هذه المرّة نائحة، وتبعتها نائحات كثيرات، في المكان نفسه الذي رقصت فيه مُرَحّبة بالجيش الغازي، الذي افترضته الجيش العراقي المنقذ.

وبعد أيّام من اللطم عادت العِسْلينيّة، يا عُجيل، بقامتها القصيرة والوجه الأصفر الدائري، إلى دير المجانين، لكنّها لم تفوّت على نفسها حضور حادثة واحدة من أحداث المخيّم المهمة، إلى أن جاءت نهايتها المأساوية.

ماذا يعني أن يكون الإمبراطور ألمانيًّا؟

عُجيلي العزيز،

هكذا كانت حال جنون والـدي، وأصدقائه ومعارفه المجانين، وأقدارهم المجنونة، وكذلك كانت حالنا، نحن الذين كبرنا قبل الأوان، في هذا المكان المجنون، الذي يأتيه أناس من آخر الدنيا ليتفرّجوا علينا، ويصوّرونا، ويبتسمون لنا، ثمّ يَهزّون رؤوسهم ويذهبون، مطمئنّين إلى أنّنا ما زلنا نعيش في مخيّمنا-سجننا، وكأنّنا حيوانات منقرضة، تعيش خارج الزمان والمكان. ولكنّنا كنّا دائمًا، كما قلت، نجهد للتفريق بين مكاننا المجنون، والدهيشة الأخرى المجنونة، بدافع عدم شعورنا بجنوننا، الذي تغطّيه الآمال الكبيرة، وتجعله بالنسبة لنا جنونًا مؤقتًا، مثل كلّ شيء في حياتنا، أو عدم الاعتراف به أصلاً، لقد كنّا دائمًا على استعداد لمعاندة القدر ومحاربة دولٍ إقليمية ودولية، كي لا نشعر بأننا مجانين، أو على الأقلّ هناك أمَل ولو مخاتلاً، لترك مكاننا المجنون.

قبل أن يتأسّس مُخَيّمنا، ويأتي إليه المشرّدون، كالمجانين، بأولادهم ونسائهم، ودجاجهم الملوَّن، يا عزيزي عُجيل، تأسّس شيء آخر، على قطعة أرض كان يُطلق عليها كرم مولر، وهو قسّ ألماني لوثري، امتلكها في القرن التاسع عشر، عندما تكثّف وصول المبشّرين من مختلف الألوان لنشر مذاهبهم وسط مسيحيّي أرض المسيح. فقد رأى المبشرون أنّهم أقلّ مسيحيةً ممّا

يجب، فأصبحوا مصدر تجاذب للمبشّرين والدول الكبرى، الكبرى في زمانها، وقد تكون في الأغلب هي نفسها الدول الكبرى في كلّ الأزمان.

وبنى الألمان، في المكان، مبنى لإيواء أيتام الأرمن، الهاربين من المجازر التي ارتُكبت بحقّهم في إقليم أرمينيا التركي عام 1896، وسُمّيَت بالمجازر الحميدية، وأُطلق عليه الميتم الأرمني.

تُعَرّف الموسوعة الحرة على الانترنت المجازر الحميدية بأنها «سلسلة من المجازر التي نفّذها السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بحقّ المسيحيّين القاطنين شرق الأناضول من الأرمن والأشوريين بين عامي 1894-1896 وراح ضحيّتها ما بين 80،000-300،000 (تفاوت لافت في الأرقام) كما خلّفت المجازر ما يقرب من 50،000 يتيم».

وكان لبيت لحم نصيب من هؤلاء الأيتام. بُدئ ببناء الميتم الأرمني، في أوائل آذار 1898، وتولّت البناء جمعية القدس الألمانية، وافتتح الميتم يوم 30 تشرين الثاني 1898، الإمبراطور الألماني غليوم الثاني وزوجته أوغستا فكتوريا، خلال زيارتهما التاريخية لفلسطين (والشام) عام 1898. فقد كانت العلاقات بين غليوم الثاني والسلطان عبد الحميد وثيقة ورائعة، ويبدو أن الكيمياء بين الاثنين وصلت ذرى مرتفعة، إلى درجة أنّ القفز عنها أصبح مميتًا. وفي زيارته هذه رسّخ الإمبراطور الألماني الوجود الألماني في فلسطين، تشهد على ذلك المنشآت الباقية حتّى اليوم، ككنيسة الدباغة مكان المارستان الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي في القدس، وقصر أوغستا فكتوريا على جبل الزيتون، وكنيسة جبل صهيون، والمستشفى الألماني، وغيرها كثير في القدس، وكنيسة الميلاد، والميتم الأرمني في بيت لحم، وكثير من هذه المنشآت التي استولت عليها بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى، وأخرى صادرتها إسرائيل بعد حرب 1948.

كثيرون أرّخوا لزيارة غليوم، الذي وُصف بأنّه «جنرال وأميرال ورسّام وموسيقار وراصد فلكي ومتنبّئ فلكي»، لفلسطين وبلاد الشام، التي بدأت يوم الثلاثاء 1898/10/25م لدى وصول الإمبراطور ميناء حيفا، وانتهت عند مغادرته بيروت الساعة الخامسة من صباح يوم 1898/11/23. ومن هؤلاء

المؤرّخين الصحافي خليل خطّار سركيس، الذي وُصف بشيخ الصحافيين في عصره، وكان الصحافي العربي الوحيد الذي رافق الإمبراطور وكتب أدقّ التفاصيل، ونشرها في صحيفته «لسان الحال» البيروتية ثمّ في كتاب صدر في العام نفسه عن المطبعة الأدبية في بيروت، التي اجتاحها حريق قُدّرَت خسائره بمئة ألف فرنك، فألّف كتابًا عن ذلك، «عنوان الشهامة»، ضمّنه الرسائل التي أرسلها له الإمبراطور تضامنًا معه في ما ألمّ به.

ومثلما يحدث الآن في فلسطين والدول العربية، لدى زيارة مسؤول مهمّ، وربّما كان نفسه ما يحدث في زمنكم يا عُجيل، نظّمت السلطات المحليّة حملة تنظيفات واسعة، واشترت الكولونية الأميركية في القدس آلة تصوير، فأرّخت بذلك لبداية وجود دائرة للتصوير في مستوطنة الأميركان المقدسية هذه، تطوّرت مع الأيّام وأصبحت شهيرة بمجموعات الصور النادرة لفلسطين وبلدان عربية أخرى، ومنها صور زيارة الإمبراطور الألماني.

من حيفا انطلق الإمبراطور إلى يافا، وكان في استقباله كبار المسؤولين وعلى رأسهم حافظ السعيد رئيس البلدية الذي أنهى الخلافات في بيت لحم بين الطوائف المتناحرة بنجاح، وأخبرتني بهيجة صبري بأنه كان صديقًا لجدّها، ووعدتني بإمدادي بالمزيد من المعلومات عنه. ومن يافا إلى القدس ومنها إلى بيت لحم، ومن ثمّ إلى يافا مرّة أخرى من القدس.

ولكن أيًّا ممّن كتب عن زيارة الإمبراطور لم يذكر بعض التفاصيل، التي لم يكن ليخطر على بال صحافي أو مؤرّخ «رسمي» أن يسجّلها، ولكن من حسن حظنا أنّ مدوَّنات غير رسمية سجّلتها. من تلك المدوّنات مخطوطة نادرة هي عبارة عن يوميّات بدأ الدبلوماسي الفلسطيني قسطندي سمّور، القنصل الأوّل في السفارة الروسيّة في مدينة يافا، بتدوينها عام 1725م، مؤرّخًا فيها الأحداث واليوميات التي عاشتها مدينة يافا و«الديار الفلسطينية».

بعد وفاة قسطندي سمّور، أكمل أحد أبنائه ما بدأه والده واستمرّ، بشكل دقيق يدعو للإعجاب، بتسجيل الأحداث والتعليق عليها.

ثمّ قُدّر للاثنين أن يُرزقا بحفيد، ليكمل ما بدأه الجدّ والأب في المخطوطة التي لا تحمل عنوانًا، وأوراقها، مثل معظم المخطوطات، صفراء،

وتقع في 206 صفحات من القطع الكبير، مكتوبة بحبر أسود على ورق «تركي» قديم.

وتعكس هذه المخطوطة النادرة والهامة، التي فتحها أمامي جورج سمّور، وهو أحد أحفاد قسطندي سمّور، تفاصيل الأحداث السياسيّة والاقتصادية والاجتماعية في فلسطين خلال الأعوام (1725-1900م).

تولي المخطوطة أهمية كبيرة لزيارة الإمبراطور غليوم، وتشير إلى وصوله إلى يافا يوم 27 تشرين الأوّل (نوفمبر) عام 1898م الساعة 12:30 ظهرًا، وتتحدث عن البروتوكولات التي صاحبت استقباله وتنقّلاته.

ومن مفارقات زيارة غليوم أنّه، أثناء مرور موكبه في طريق باب الواد، الواصل بين يافا والقدس، والذي شهد معارك مجنونة عام 1948م بين العرب واليهود، رشق فلاح فلسطينيّ موكب الإمبراطور بحجر، فما كان من الحرس السلطاني إلا أن أطلق النار عليه وقتله. بالطبع، لم يخطر على بال الصحافي سركيس أو غيره ذكر أيّ شيء عن هذا المنغّص لزيارة الإمبراطور العظيم. أفراد سلالة المجانين، والمختلفين، يُسقَطون من التواريخ الرسمية، كما تعلم يا عُجيل.

هل كان هذا الفلاح أحد المتمرّدين الثائرين وغير الراضين عن تلك الزيارة، وقد رأى فيها تعزيزًا لوجود أجنبي في فلسطين كان يناهضه، فعبّر بطريقته عن رفضه لمنح السلطان العثماني صديقه الإمبراطور، أراضيَ، بعضها كان مملوكًا لعائلات فلسطينيّة، وانتزعها السلطان منهم، أو أماكن لها أكثر من طابع رمزي وتاريخي، مثل المارستان الصلاحي؟

هل عبّر ذلك الفلاح من برّ القدس عن ضميرٍ شعبي في تلك الفترة بخصوص زيارة الإمبراطور الألماني، فأقدم على عمل مجنون أطار عقل الحرّاس، فأردوه قتيلاً؟

هل علم ذلك الفلاح بأنّ الصحافي النمساوي ثيودور هيرتزل كان قد التقى الإمبراطور في قصر يلدز في الآستانة، وحدّثه عن أحلامه في وطن قومي لليهود في فلسطين، فطلب منه الإمبراطور أن يجهّز أفكاره ليعرضها عليه عندما يصل القدس؟ وهل علم بأن الإمبراطور بارك فكرة هيرتزل في القدس، شرط أن تكون فلسطين الصهيونية تحت سيادة صديقه السلطان؟

مخطوطة آل سمّور، يا عُجيل، لا تسأل ولا تجيب، ولكن يُسجَّل لها الفضل في ذكر هذا التفصيل حول زيارة الإمبراطور، الذي من سوء طالعه أنّ أخباره الغريبة (هل أسمّيها المجنونة؟) تتكرّر في المصادر غير الرسمية، وبعضها نُشر مطبوعًا، بعد تلك الزيارة بفترة طويلة جدًا.

مخطوطة سمّور تذكر بعض التفاصيل التي يمكن الاستعانة بها لسرد أخبار زيارة غليوم لفلسطين. وبحسب المخطوطة، كان السائحون يتنقّلون بين يافا والقدس على ظهور الحمير والبغال والجمال بأسعار ترتهن للعرض والطلب حسب عدد السائحين وتوفّر الدواب، أمّا تسعيرة التنقل على البغال من يافا إلى القدس، فقد كانت تكلّف ريالاً أبو عمود، أما إذا استخدم السائح الحصان فذلك يكلّفه ليرة فرنساوية أو ليرتين، وما زالت مثل هذه العملات مطروحة للتداول، ولكن بطريقة غير تقليديّة، فهي تُباع وتُشترى كنوعٍ من الآثار القديمة، التي يتزيّن بها جيل جديد. ولأنّ العملات كانت توضع على غطاء رأس العروس، وهي بشكل أو بآخر مهرها، فإنّ أغطية الرؤوس هذه بعد سنوات طويلة، وبعد موت صاحباتها، أصبحت لها أهمية أثرية تتجاوز السوق الفلسطينية، فعملات الدنيا كلُّها كانت حاضرة، بسبب موقع فلسطين كمقصد للسيّاح، والحجّاج، والرحّالة، والمغامرين، والجواسيس، والمستشرقين، ورجال الدين، والجغرافيين.

وحسب المخطوطة، أيضًا، فإن الدواب ظلّت الوسيلة الوحيدة للتنقّل حتّى عام 1890م، حين أُحضر عُمّال من الخارج، خبراء في صنع العجَل الخشبي، وأصبحت العربة التي تسمّيها المخطوطة «العربانة» والتي يجرّها الخيل هي وسيلة التنقل من يافا للقدس. ومن حسن حظّ غليوم أنّ ذلك تمّ قبل زيارته بثمانية أعوام، فدخل بعربته إلى القدس من باب الخليل، بعدما ارتكب مستقبِلوه في سور القدس عملاً مجنونًا، ما زالت آثاره باقية حتّى اليوم.

يُعدّ باب الخليل، أو باب يافا في تسمية أخرى، أو باب بيت لحم في تسمية ثالثة، أحد أبواب القدس القديمة الرئيسة، مدينتك التي حملتَ كنيتها يا عُجيل، وهو باب مُشرَّع على غرب المدينة، ولعلّ تعدّد تسمياته يشير إلى علاقته بالمدن الفلسطينية الأخرى التي كان سكّانها يدخلون منه

للقدس. وتميّز هذا الباب بوجود مقهى «القهوة المعلّقة» الذي كان يتجمّع فيه الفلاحون والمثقفون والسياسيّون الذين يؤمّون القدس، ومقهًى آخر أطلق عليه خليل السكاكيني اسم «قهوة الصعاليك» وكان مكانًا لتجمّع كتّاب القدس وأدبائها الذين أصبحوا أعلامًا في ما بعد، مِثل أديب العربية محمّد إسعاف النشاشيبي، والباحث في الحركات الاجتماعية في التاريخ الإسلامي بندلي جوزي الذي عاش في ما بعد في روسيا، وتُوفي فيها. وكان يميّز الباب برج الساعة الذي بُني، مثل أبراج أخرى، في مدن كنابلس ويافا وطرابلس، تخليدًا لذكرى مرور 25 عامًا على جلوس السلطان عبد الحميد على العرش. وعندما احتلّ البريطانيون القدس، أزالوا هذا البرج بحجة أنه يشوّه تراث المدينة.

وما زال هذا الباب، برغم التغييرات الكثيرة التي جرت وتجري حوله، الشاهد الأبرز على تلك الزيارة، التي أتت في ظل ظروف سياسيّة وتحالفات معيّنة خلال تلك الحقبة التي كانت فيها فلسطين تودع القرن التاسع عشر المضطرب لتستقبل قرنًا جديدًا سيكون أكثر اضطرابًا بعد في تاريخها.

وقبل وصول غليوم إلى القدس، واجه منظّمو الزيارة معضلة تدبير دخوله إلى القدس القديمة بعربته، دون أن يترجّل منها، وتوصّلوا إلى قرار مجنون، وهو هدم جزء من سور القدس عند باب الخليل، والتسبّب بما سمّي لاحقًا، ربّما من باب تقليل الضرر الذي أصاب السور، الثغرة. وما زالت هذه الثغرة (تسمية مخففة لفعل أحمق)، موجودة حتّى الآن، وقد أصبحت المدخل الرئيس الشرقي للمدينة، رغم أنها تشوّه طبيعة السور التاريخي للمدينة المقدّسة.

وتتوفر لنا معلومات طريفة ومهمّة، في مدوّنة غير رسمية هي مذكّرات واصف جوهرية، عن العربة التي أقلت غليوم، وعن العربات المتنوّعة الشكل والنوع والاستخدام، وكان يملك «قطاع المواصلات» ذاك يعقوب أبو شاكر، وهو أحد أثرياء القدس المشهورين في فترة الحكم العثماني.

يقول جوهرية إن يعقوب أبو شاكر هو مَن أحضر غليوم من يافا إلى القدس بواسطة إحدى العربات التي يملكها، ولا يذكر نوعها، فمنحه الإمبراطور

نيشانًا. أمّا الحكومة العثمانية التي تحمّل عنها أبو شاكر مهمّة تنقّل غليوم فمنحته لقب آغا.

ويُطلع جوهرية القارئ على طبيعة وسائل التنقّل بعربات الخيل، عبر سرد أسماء وأنواع عربات الخيل التي كانت تستخدم ومنها مثلاً: الأميركية: كانت تسير ليلاً ما بين القدس ويافا، والبوسطة: وكان يستعملها عربجية السريان ما بين القدس وبيت لحم، والكلش: سقفها عملي يُغلق ويُفتح حسب الطقس، والحنطور: عربة أنيقة ولها كبود يُفتح ويُغلق حسب مزاج الراكب، والتك: عربة خاصة لأعيان المدينة، ولندون: عربة ضخمة تجرّها ثلاثة خيول، كانت تُستخدم لنقل أصحاب المراكز العالية.

بإحدى عربات أبو شاكر وصل غليوم إلى بيت لحم، وكان في مقدّمة مستقبليه رئيس البلدية الحاتمي سليمان جاسر. أرجو أن لا تكون نسيته يا عُجيل. ربما ألقى خطبة في حضرة الإمبراطور مليئة بالنفاق الشرقي، وربما تأسّى أو أمَل خيرًا، أو فرح، أو حزن.

افتتح غليوم كنيسة الفادي اللوثرية، التي ما يزال المحليون يطلقون عليها كنيسة الألمان، وتمتاز بقبّتها التي تشبه الطربوش، وقد استوحاها مصمّمها من غطاء الرأس التقليدي لنساء بيت لحم المسمّى الشطوة، المزيّن بالعملات، كما افتتح أيضًا الميتم الأرمني، في أرض الدهيشة.

غليوم لم يكن من الأباطرة الذين يمكن أن يتركوا الكثير للآخرين، فمثلاً، هو من وضع رسم قبّة الجرس لكنيسة المخلص في الدباغة بالقدس، التي بلغ ارتفاعها 45 مترًا، ويبدو أنه ترك شيئًا لأوغستا، التي حدّدت الآيات التي نُقشت على الجرس.

هل خطر على بال الإمبراطور حينها، أنه سيتحوّل، في القدس، بعد ذلك بسنوات، إلى «خالٍ» للمسلمين؟ نعم يا عُجيل، خال مرة واحدة...!!

كيف أصبح غليوم خالاً للمسلمين؟

يصرّ أصحاب المدوَّنات غير الرسمية، على نحو يبدو مستغربًا، على ذِكر غليوم. خليل السكاكيني (1878-1953) مثلاً رصد في يومياته التي كتبها في أثناء الحرب العالمية الأولى، من موقعه كمواطن ومثقف يعيش في مدينة القدس آنذاك، كيف لجأ العثمانيون إلى إعلان الجهاد على دول الاتفاق الثلاثي، لتهييج الجماهير وتعبئتها، مستغلين العواطف الدينية لأسباب سياسيّة.

ويظهر، في اليوميات التي قُدّر لها أن تُنشر بعد نحو قرن على وقوع أحداثها، موقف ألمانيا المتحمّسة لإعلان الجهاد والمدعومة من العثمانيين، وسعي مسؤوليها إلى توسيع ما يسمّيه السكاكيني المسيحي المتمرّد على الطوائف، شُقة الخلاف بين مسلمي فلسطين ومسيحيّيها، عبر تحريض المسلمين على أبناء وطنهم من المسيحيين. وينقل السكاكيني رواية عن أحد هؤلاء الألمان، وهو طبيب يعيش في يافا، قوله إنه متى أُعلن الجهاد، فإنه سيقتل 50 من مسيحيّي يافا، وكان يدور على منازل مسلمي المدينة ليحرّضهم على المسيحيين، مُعلنًا راية الجهاد.

سأقرأ لك يا عُجيل، ما خطّه السكاكيني عمّا شاهده في القدس في مثل تلك الظروف: «كنت أرى كثيرين من الألمان مبثوثين بين النّاس يحادثون الشيوخ، يتركون الواحد ويمسكون الآخر، بقصد أن يستميلوهم إلى ألمانيا وينفّروهم من غيرها».

«وينشر العثمانيون الشائعات وسط النّاس، بأنّ ألمانيا اعتنقت الإسلام، وأنها ستقاسم تركيا كلّ البلاد التي ستفتحها، وربما الأهمّ والأعجب أن الإمبراطور غليوم سُمّي محمدًا، وأنه سيذهب إلى الحج، لأداء الفريضة في مكّة».

ويذكر السكاكيني مقطعًا من الأهازيج التي كان يردّدها الفلاحون حين يتوافدون إلى القدس لأداء الخدمة العسكرية «غليوم يا خالنا، بسيفك نأخذ ثارنا».

تخيّلت جدّي مُحيسن الذي لم أعرفه قطّ بينهم، وكيف انضمّ للهزّاجين باسم غليوم، ثمّ كيف اكتشف الخديعة بطريقة ما فأصبح فراريًا، كالهارب في فيلم «الأخوان لاما»، واختبأ في مشحرة لصنع الفحم، وانطفأت عيناه نتيجة ذلك، وعاش ليرى هزيمة بني عثمان وغليوم، حتى وصل طريدًا إلى مخيّم الدهيشة ليموت فيه. قد تكون تلك الحرب الكونية أثّرت فيه، مثل باقي الشعب الفلسطيني، أكثر بكثير من نكبة طرده من أرضه. وقد يبدو ذلك عجيبًا بالنسبة لأيّ باحث، ولكنّ الحرب الكونية الأولى أحدثت قطيعة مع تاريخ عَمّر أكثر من 500 عام، وانتهى فجأة، فأخذ ناس فلسطين يبحثون عن هوية جديدة. وبوقوع النكبة، كانت هويتهم قد تبلورت، لذا حدا المشردين الأمل دائمًا، بأن تشريدهم وقيام دولة قوية على أرضهم، ما هو إلّا كابوس سينتهي قريبًا، رغم أن هذه الـ«قريبًا» ما زالت بعيدة.

ربّما من الجيد أن مُحيسن (آسف يا عُجيل، لن أتمكن من الحديث عنه كثيرًا هنا)، لم يتأثر بتأجيج المشاعر التي يبثّها العثمانيون والألمان، مثل أنّ المسيحيين في حرب البلقان كانوا يغتصبون المسلمات، ويقطعون أثداءهن ويبقرون بطونهن، ويقذفون أولاد المسلمين في الهواء، ويتلقفونهم بالسيوف والحراب.

ويرصد السكاكيني تأثيرات مثل هذه الدعاية واستغلال فكرة الجهاد، على المجتمع المحلي الذي ينوء من ثقل الحرب والأوبئة وهجوم الجراد، حتّى يصل الأمر إلى ما اخترعه العثمانيون والألمان من مسألة العَلَم النبوي.

فما هو هذا العَلَم النبوي؟ عَلَم ادّعى العثمانيون والألمان أنّه عَلَم النبي محمّد، ونظّموا مواكب واحتفالات له في ربوع البلاد التي تسيطر عليها

الدولة العثمانية، للتأثير على مشاعر النّاس الدينية، وإلهاب حماستهم لحربٍ لم يكن لهم فيها أيّ مصلحة.

وفي 20 كانون الأوّل (ديسمبر) عام 1914، وصل العَلَم النبوي إلى القدس، ويذكر السكاكيني، يا عُجيل، في دفتر يومياته عن هذا اليوم أنّه «لم تشرق الشمس إلا وقد خرجت القدس بأسرها لاستقبال العَلَم النبوي». أما هو، فقد خرج يومها مع الباحث اللامع عادل جبر، وفخري الحسيني وشقيقه الحاج أمين الذي سيتزعم في ما بعد الحركة الوطنيّة الفلسطينية التي مُنيت بهزيمة كارثية عام 1948، ومع ذلك بقي قائدًا لها. ومثلما هزج الفلاحون لغليوم هزجوا للحاج أمين بعد ذلك بسنوات: «سيف الدين الحاج أمين».

يقول السكاكيني: «مشينا معًا على طريق رام اللّه حتّى أطللنا على قرية شعفاط، حيث كانت كوكبة من خيّالة القدس ولفتا وأبو غوش وبعض القرى المجاورة يلعبون على خيولهم، ولم نلبث حتّى أطل موكب العَلَم تتقدّمه ثلة من الفرسان وهم يهللون، فاشترك النّاس في التهليل والتكبير، ثمّ جاؤوا إلى خيمة مضروبة أمام دار راغب بك النشاشيبي، حيث كان كبار المسلمين ووجهاؤهم ينتظرون العَلم».

راغب بك النشاشيبي، مثلما كان رجل العثمانيين، أصبح رجل الإنجليز، ولاحقًا رجل الملك عبد اللّه الأوّل في الأردن.

ويضيف السكاكيني أن النّاس ما إن رأوا العَلَم حتى «اندفعوا يقبّلونه ويتبرّكون به وهم يزحمون بعضهم بعضًا ويضجّون بالتهليل والتكبير، وكان جمال بك حاملاً العَلَم وإلى جانبه بعض الضباط الألمان، ولست أدري ماذا كانت تأثّراتهم من ذلك المشهد، هل ضحكوا في سرّهم من انحطاط الشرقيين أم استشفّوا من وراء التكبير والتهليل قوّة هائلة يستطيعون أن يعتمدوا عليها ويستفيدوا منها؟».

وتتبّع السكاكيني مسيرة العَلَم إلى الحرم القدسي الشريف، «ثمّ سار الموكب يتقدمه العَلَم والنّاس ينضمّون إلى الموكب حتّى صاروا ألوفًا وكلهم يهلّلون ويكبّرون. وقبل أن يصلوا إلى الحرم كان اليهود قد وقفوا له على الطريق ليحيّوه، أما أنا فقد كنت أنظر وأسمع وأفكر».

حتّى يهود القدس، رحّبوا بعَلَم النبي، سخريةً، أو خوفًا...!

بماذا كان يُفكر السكاكيني؟ وماذا كان يدور في خلده وما تَمثّل في خاطره وما تراءى لناظريه؟ لخّص السكاكيني ذلك بعدة ملاحظات منها: «لم يكن العَلَم قديمًا بل جديدًا كأنه صنع من عهد قريب جدًا، فلم يشك أحد أنه لم يكن العَلَم النبوي، بل هو مُرسل من الآستانة إلى مكة».

سأقرأ لك يا عُجيل، ما كتبه السكاكيني، وهو العارف والعائش ظروف النّاس في تلك الأيام المريرة حيث انتشر الجوع: «كان يقال إن الشرق لا يعرف للوطنية معنى، ولكن العاطفة الدينية فيه شديدة التأثر، وكانت الحكومة تعتقد ذلك بدليل إعلانها للجهاد الديني، ولكن مَن يدرس أحوال الشرق اليوم، يرى أن الانحطاط الذي صار إليه الشرق من أجيال، قد أفسد حتّى هذه العاطفة الدينية، فلو استطاع المسلم أن يسرق هذا العَلَم ويبيعه لما تأخر، وإن كان هناك مَن كانت عاطفتهم الدينية صحيحة قوية، فإنّهم قليلون جدًا».

وعندما وصل العَلم، أو راية النبيّ كما سمّاها العامة، كانت برفقة شيخ قُدّم للناس باعتباره مفتي الشافعية في مكة المكرمة. وبعد خمسة أيّام من مكوثه في القدس، تُوفي مفتي الشافعية، ويُعلق السكاكيني على ذلك في يوميّته التي كتبها يوم 25 كانون الأوّل (ديسمبر) 1914م: «لعلّ الشيخوخة وتعب الطريق وبرد القدس في مثل هذه الأيام قضت عليه».

وبقي العَلم المنسوب للنبي، في القدس حتّى يوم السبت 9 كانون الثاني (يناير) 1915، وفي مذكراته عن هذا اليوم كتب السكاكيني: «سافر اليوم الجند ومعهم العَلَم النبوي إلى الجنوب».

ومُنيت الجيوش العثمانية، يا عزيزي عُجيل، بهزيمة ماحقة، ولم ينقذها استغلالها للدين من السقوط. وما زال فلّاحو بلاد الشام يذكرون، بأبشع الصور، تلك الحرب التي سمّوها «السفر برلك» والتي أعلنت فيها الإمبراطورية الجهاد، وما زالت بلادهم يضربها وباء استغلال الدين، وهم لا يكفّون عن تأليف الأهازيج.

أمّا غليوم الثاني، فقد نُحّي عن العرش ونُفي من بلاده، وذاق الأمرّين، وأصبحت ذكرياته الشامية مجرّد طيف خيال.

بعد اندحار تركيا عن فلسطين، وضع البريطانيون أيديهم على كثير من البنايات الألمانية، ومن بينها الميتم الأرمني في الدهيشة، الذي حوّلوه في عام 1918 إلى مستشفى حكومي، وفي عام 1922، حوّلوه إلى مستشفى للأمراض العقلية للرجال، أمّا النساء، فوضعوهنّ في المؤسّسة السويدية. وبقي المستشفى يستقبل المرضى من الرجال، من العرب واليهود، حتّى عام 1936، وانتفاض عرب فلسطين في ثورتهم التي استمرّت ثلاثة أعوام، إذ أصبح من الصعب إبقاء مجانين اليهود مع مجانين العرب في مكان واحد، لأن كلّ طرف تحزّب لقومه، فنقلت حكومة الانتداب مجانين اليهود إلى مبنى خاص بهم بالقدس، إلّا أنّ هناك مصادر تتحدّث عن وجود جنوني لليهود في المستشفى حتّى عام 1948، وهي السنة الفاصلة التي طالت فيها الاضطرابات كلّ شيء، إذ قسَمَت البلاد والعباد، بما فيها مجانينها وبُرصها ومجذوموها، ففي مستشفى البرص في حيّ الطالبية بالقدس الغربية، طُرد المجذومون العرب، عام 1948 إلى شرق المدينة. أنتم تطردون المجذومين، ونحن نطرد المجانين.

باشرت الحكومة الأردنية، بعدما ضمّت إليها الهضبة الفلسطينية الوسطى التي لم يحتلّها الإسرائيليون وعُرفت باسم الضفة الغربية، إشرافها على المستشفى ونقلت قسم النساء من المؤسّسة السويدية، التي سمّتها مستشفى الحسين بن طلال، على اسم العاهل الأردني آنذاك، إلى المستشفى، ليتجاور مجانين ومجنونات فلسطين، في مكانٍ واحد ضمّ أيضًا مجانين من الدول العربية الشقيقة.

على المؤسسة السويدية، التي نَسي النّاس اسمها، بلاطتان لنقشين، الأوّل: «جمعية القدس السويدية-1980» وأعلى النقش صليب، والثاني: «مستشفى الحسين بن طلال-1957» وأعلى النقش تاج ملكي. بعد الاحتلال، أصبح اسم مستشفى الحسين مستشفى بيت جالا الحكومي، ولكنّ النّاس تمسّكوا بالاسم الأوّل، ربّما لأسباب لا تخلو من الوطنية وتعبّر عن رفضٍ للاحتلال الجديد، وعندما تسلّمته السلطة الفلسطينية شاع اسم بيت جالا الحكومي، ثمّ ما لبث النّاس أن احتاروا بين: الحسين، وبيت جالا الحكومي، وما زالوا محتارين. ولا يخلو كلّ احتيار من تعبير عن المزاج السياسيّ للناس.

جدّدت وزارة الصحة الأردنية قسم النساء في مستشفى المجانين عام 1962، وأضافت عدة بنايات، وأنشأت المطبخ المركزي، وسكنًا للممرضات.

***

إذا كان/ت القارئ، أو القارئة تحمّل/ت، القراءة إلى هنا، وهو أمر تجب الإشادة به، فذلك يعني أنّه/ها، يمكنه/ها، الدخول في عالم المجانين، بما يستدعيه ذلك من تزوّد بصبرٍ، لا يتوفر دائمًا.

لعلّ المؤلف يحاول من جديد، مزوّدًا بشغف القُرّاء والقارئات المفترض (مؤلف لا ينقصه الغرور – علّق عمّار الجوري)، إمساك خيط روائي، لإنقاذ عمله الذي، في الواقع، لم يبدأ بعد، بل استفاض في سردية شهرزادية الطابع عن المجانين، مستفيدًا ممّا وجده في أوراق خاله العبد علوي البالية (دعواتكم ليوسف علّان، الذي أنقذ ما أمكنه إنقاذه منها)، ولكنّها، مع ذلك بقيت استفادة غير حاسمة، فاضطُرّ للاعتماد على مصادر عديدة لاجتراح هذه الشهرزادية.

ضحك عمّار الجوري كثيرًا على «اجتراح» هذه، متفكّهًا، و.. متشفيًا..!! ومقترحًا:

– عليك إراحة جدّنا عُجيل من جنون زمننا...!! حرام عليك يا مجنون..!!

وقال يوسف علّان:

– دعه الآن ينَمْ، سأنوّمه نيابة عنك، فقط أكمل روايتك بدون تشويش...!!

سِفر مَنْ لا أسفار لهم

سلّوم وسليمة وأبو عصري

نَموت في مخيّم اللاجئين، في ارتباط غريب مع «مستشفى الأمراض النفسية والعقلية والعصبية»، كما كانت تُطلق عليه الفئة العليا من المتعلمين، المُصرّين على هذه التسمية بشكل لا يخلو من تَفَذلك استعراضي، أو «مستشفى الأمراض العقلية» كما سمّته الفئة الأقلّ أرستقراطية تعليمًا، أو، ببساطة، دير المجانين، وهي التسمية الأشهر والأسهل والأكثر تداولاً من قبل كلّ الفئات حين تقرّر التخلي عن شغفها في المناقرة، وإظهار الذات.

نمرّ بدير المجانين، في طريقنا إلى بيت لحم، أو عندما نذهب للعب في جبل أنطون، وهو تسمية أخرى لجبل موليز، نسبة للقس الألماني الذي اشتراه، والذي صُحّف ليصبح جبل مرير، أو جبل ظاهر نسبة لشخص اسمه ظاهر نصار يقول أحفاده إنه بادر وعاش في الجبل، أو للظاهر بيبرس كما يقول آخرون. ويفصل هذا الجبل بيننا وبين دير المجانين، ويشكل من الشرق امتدادًا لمخيّمنا، وفضاءً للعبنا، وهذا الجبل هو ما استبقته الجمعية الألمانية، عندما بَنَت الميتم الأرمني، وعُرف بمزرعة أنطون نجيب خوري، الذي كان يستغلّ الأرض بزراعة الحبوب والخضروات، ويتصرّف بثمّار الزيتون والأشجار المثمرة، واقتنى مزرعة بقر، وقد يكون سبب هذا الامتياز الذي مُنح لأنطون، هو أنّ والده المكنّى بأبي فريد، اللبناني الأصل، كان أوّل مَن تولى مزرعة شنلر الألمانية بالقدس لمدة طويلة. وبقيت مزرعة أنطون الخوري

بعد وفاته سنة 1945 بإشراف أرملته حتّى سنة 1952، عندما أرادت التخلي عن المزرعة وإرجاعها إلى جمعية القدس الألمانية، مقابل تعويض مالي قدره أربعة آلاف دينار أردني، وكان ثمنها آنذاك، يقدَّر بعشرات أضعاف هذا الرقم، عارضت الجمعية طلب الأرملة بالتعويض، وبدأ النزاع معها، فتدخّلت الحكومة الأردنية وصادرت الأرض بحجّة أنها وقف إسلامي.

هذه المعلومات زوّدني بها مؤرّخ بيت لحم حنا جقمان، محبّ التاريخ، الذي أمضى عمره جامعًا له، مُتبرّمًا من الذين لا يقدّرون التاريخ ولا المؤرّخين.

بعد أن نصعد إلى جبل أنطون، نصل إلى حدود دير المجانين، وكنا نعلم أن فيه قسمين على الأقلّ، الأوّل للخطرين، الذين يُحبسون في غرفٍ في ظل رقابة مشدّدة، والآخر للمرضى الذين لم يصل جنونهم إلى مراحل خطرة، وكانوا مرشّحين للخروج، أو على الأصحّ للتخلص منهم، وهؤلاء كانوا يوضعون في غرفٍ تفضي إليها طريق تبدأ من شارع القدس-الخليل وتظلّلها الأشجار على الجانبين. لطالما سلكنا تلك الطريق طريقًا مختصرة إلى بيت لحم، عبر دير المجانين، وذلك أمرٌ لم يمرّ دائمًا بسلاسة، فإن كنّا مجموعة من الصغار، فإننا كنّا عُرضة لملاحقة التمرجية، الذين لم نشكّ يومًا في جنونهم والذين لم نكن نعدم، ونحن نعرفهم بالاسم، أيّ دليل للتأكّد من جنونهم.

أطلقت إدارة دير المجانين على هذا القِسم اسم «النقاهة». عرفنا أيضًا، باجتهادنا الخاص، بوجود فئة ثالثة من المجانين، كانت صعبة التصنيف، فجنونها مؤكد، ولكن يُسمح لأفرادها بالخروج خارج جدران الدير، وكانوا يتميّزون بتدخينهم الشره، ولا يكفّون عن طلب السجائر من المارّة.

أشهر هؤلاء شخصيّة اسمها أبو عصري، كان يجلس قبالة الدير، على رصيف الشارع الذي يُطلق عليه اسم شارع الجبل، والذي أصبح اسمه خلال الانتفاضة الأولى جبل أبو جهاد، نسبة لخليل الوزير، القائد الفلسطيني الذي اغتالته إسرائيل في تونس عام 1988، بفضل مجموعة انتفاضية أطلقت على نفسها اسم «غضب 88»، ثم عاد الآن ليصبح شارع الجبل، ولكن بالنسبة للناس، هو شارع دير المجانين، يبدأ متفرّعًا من شارع آخر اسمه شارع جمال عبد الناصر، ويستمرّ محاذيًا لمخيّم الدهيشة، وصولاً إلى قرية ارطاس وبرك سليمان.

كان يحلو لأبي عصري، الذي لم يكن يُغيّر ملابسه التي يرتديها صيفًا وشتاءً، بما فيها المعطف القديم المهترئ بفعل الزمن والقذارة، وجمر السجائر، فتح أحاديث معنا، عندما نمرّ أمامه ونلقي عليه، ونحن صغار، التحيّة ضاحكين، ومستعدّين للركض تحسّبًا لردة فعله عندما يدرك أننا نضحك استهزاءً به، ولكنّ أبا عصري، برغم جسمه الضخم، كان وديعًا، أو يحاول أن يبدو كذلك.

كثيرًا ما كان يسألنا عن الدروس التي نتلقّاها، ثمّ يأخذ باستعراض معلوماته أمامنا، ويلقي قصائد وأناشيد ويتلو آيات قرآنية يحفظها غيبًا، فنتعجّب، ما يدغدغ غروره بأنه كسب جولة، خصوصًا حين نفشل في الإجابة عن كثير من أسئلته التي كانت تبدو غريبة علينا، وإن كانت تشي بعمق اطلاعه على بعض القضايا الفقهية أو على تفاصيل الخلافات بين الجماعات الإسلامية المختلفة، فيسألنا مثلاً عن الفَرق بين الماء الطاهر والماء الطهور؟ وأيٌّ منهما الذي يجوز التوضّؤ به، أو عن الفروق بين الشافعية، التي علمنا منه لأوّل مرّة أنها مذهبنا في فلسطين، والحنبلية، ودستة من أسماء فرق إسلامية نسمع بها لأوّل مرّة، في تفاصيل كالزواج مثلاً. قال لنا مرّة:

– النّاس هنا مجانين، يتزوّجون على مذهب أبو حنيفة وهم شافعيون...!

وأضاف:

– عندما تعودون إلى منازلكم اسألوا أهاليكم...

لكنّ أهلنا لم يكونوا يعرفون كثيرًا في هذه الأمور.

مرة فاجأه صديقنا جورج، قائلاً:

– أبي لا يعرف عن الشافعية أو ابن حنبل أيّ شيء، فنحن نصارى، وماذا تعرف أنت عنّا؟

ولم يؤثر هذا في أبو عصري، الذي بدا متماسكًا، وقال بتحدٍّ:

– اسأل والدك لماذا اللاتين أصبحوا أكثر من الأرثوذكس في فلسطين؟ الأمور كلُّها سياسة في سياسة...!

وأضاف:

– كلنا في فلسطين كنّا نصارى، ثمّ أصبح نصفنا مسلمين، بينما تفتّت النصارى نتيجة التدخلات الأجنبية، والإرساليات، وأصبح لدينا عدد وافر من الفرق المختلفة، غريبة فلسطين هذه، تجد فيها عبّاد الربّ وعبّاد النار...!

لم يغيّر كرور السنوات شيئًا كثيرًا في أبي عصري، وبقي في مكانه المفضّل، يحاور أجيالاً وراء أجيال من أولاد اللاجئين، وقبل أن يختفي من مكانه ومن الدير، وينتقل إلى العالم الآخر، علمت عن طريق الصدفة معلومات إضافية عنه، فهو كان بطل المملكة الأردنية في الملاكمة، عندما كانت هذه المملكة تضمّ الضفتين، قبل الاحتلال الحزيراني، ووجد نفسه بعد الحرب في عمّان، نازحًا تائهًا، ثمّ أقدم على قتل شقيقته، على خلفية الشرف، بعدما ضبطها مع أحد أصدقائه، في وضع اعتبره محرجًا له وللعائلة، ولم يعرف ماذا يفعل في مواجهة الشرطة التي ستحقق، أو الأصدقاء والمعارف في المجتمع الرياضي، فانضمّ إلى المنظمات الفدائية، المتعاظمة النفوذ في أردن ما بعد الهزيمة، ونزل مع إحدى المجموعات الفدائية، التي كانت تسمّى الدوريات، إلى الأراضي المحتلة. هناك، وقع أفراد المجموعة في كمين لجنود الاحتلال، الذين أعدموا 15 من أعضاء المجموعة بدمٍ بارد، وبقي أبو عصري الذي أُصيب بجراح، شاهدًا على جريمة الحرب تلك، ثم نُقل إلى سجن سري، وقُدِّم بعد أشهر إلى محكمة احتلالية، ولكن يبدو أنّ تأثير سنوات العزل في السجن السريّ عليه كان كبيرًا، إذ أفقدته تلك السنوات عقله، ونُقل بعدها إلى سجنٍ آخر هو دير المجانين.

ولم أعرف لماذا وضعت سلطات الاحتلال أبا عصري في دير المجانين هذا، بدون حراسة، رغم أنها افتتحت قسمًا للأسرى الذين يصابون بالجنون في سجن الرملة، ولم تكن تتساهل مع أيّ أسير حتّى لو أُصيب بمرض عقلي، فترفض الإفراج عنه ليتلقّى العلاج في الخارج، ولكنها تزيد جنونه جنونًا، وتبقيه سجينًا لديها، في ظروف احتجاز قد تؤدّي بالمحتجز إلى الانتحار. هذا ما حدث مثلاً مع أحد الأسرى وهو ناصر الهيب، في سجن الرملة، الذي روى عنه زميله وليم نصّار: «كان في غرفة 3 سجين اسمه ناصر الهيب من الدوريات القادمة من سوريا، وكان قد اعتقل ومَن معه بعد معركة في مغارة

بالمغير قرب نابلس، ولم يكن يعرف كيف يكتب اسمه، لكنّه ظل يثابر على تعلم القراءة والكتابة حتّى تمكّن من كتابة أوّل رسالة إلى أهله، وبعد القراءة والكتابة علمته الحساب، وكان مسرورًا من نفسه لما حصّل من تقدّم، ولكنّه نُقل لاحقًا إلى سجن عسقلان قبل أن ينهي دروسه، وبعد مدة أصيب بانهيار عصبي، فنُقل إلى قسم الأمراض العقلية، وهناك انتحر بشنق نفسه».

وفي كتابه عن شهداء الحركة الأسيرة كتب عبد العليم دعنا عنه: «لا يُعرف تاريخ ميلاده على وجه الدقة، ولكن رفاق السلاح والسجن يقدّرون عمره حينما سقط شهيدًا سنة 1978، بأربعين عامًا، استُخدم العنف والضرب معه منذ اللحظات الأولى للاعتقال، خلال التحقيق معه ومع رفاقه، وتعرّض لأبشع أشكال التعذيب الجسدي والنفسي، إلى درجة أن معظم أعضاء المجموعة التي ينتمي لها الشهيد ظلوا يعانون من آثار التعذيب لفترة طويلة. لقد أدّى التعذيب المنفلت من عقاله إلى خلل عقلي أصاب الشهيد، كما أن آثار التعذيب رافقته حتّى وفاته، وخلال وجوده في السجن أُصيب بقرحة معوية، فنقل إلى مستشفى سجن الرملة للعلاج، وفي هذا المستشفى زعمت السلطات أنه أقدم على الانتحار بشنق نفسه ببطانية، رفض رفاق الشهيد وزملاؤه زعم السلطات هذا وأشاروا إلى أن الشهيد كان مؤمنًا وورعًا ومن غير المنطقي أن يقدم على الانتحار».

ونفي فعل الانتحار هنا عن الهيب، أمر مفهوم، ويتّسق مع الصورة النمطية التي يقدّمها الفلسطينيون عن الأسرى كأبطال، وكأنّ الأسرى ليسوا من البشر، وكأنّ ظروف السجن القاسية لا يمكن أن تؤدّي بهم إلى الانتحار.

وأنا أعلم عن حالة انتحار أخرى واحدة على الأقلّ، في معتقل المسكوبية بالقدس، ولكنّ صديقي عمّار الجوري، لم يستطع نشر الحقيقة في حينه، في الصحف المحليّة، التي اتهمت سلطات الاحتلال بقتله، رغم أن ترويج قصة الانتحار قد يكون أيضًا مهمًا في معركة الإعلام، التي طالما عَوّل عليها الفلسطينيون كثيرًا.

في شارع عين سارة في الخليل، أوقفت عبد العليم دعنا، وسألته عن حقيقة موت الهيب، وعن فعل الانتحار الذي يحرص الفلسطينيون على إبعاد

تهمته عن أيّ أسير قضى في سجون الاحتلال، فحدّثني عن موقف مؤلم تعرّض له وهو في السجن، جعله يفكر في الانتحار، وفي البحث عن أيّ أداة تساعده على ذلك، إلّا أنه، لحسن حظه، وحظنا، وحظ الأسرى الشهداء الذين وثّق لهم، لم يجدها.

تفاصيل حكاية أبو عصري هذه، لم تكن لتصل إلينا، لولا مفارقة، تتعلق بمجنون آخر أصبح صديقًا له، هو سلّوم، الذي كان أسيرًا يساريًا سابقًا، ويبدو أن الاثنين التقيا، يومًا، في أحد السجون، وكان ذلك عاملاً لتوثيق علاقتهما في دير المجانين.

سلّوم، أمضى سنوات في سجون الاحتلال، كمناضل يساريّ، ولم تُفرج عنه سلطات الاحتلال برغم مرضه العقلي، بل احتجزته حتّى انتهاء محكوميته.

ووجود أسير يعاني من المرض النفسي ليس بالأمر السهل تحمّله بالنسبة لباقي الأسرى، الذين عادة ما يبذلون كلّ جهد للاهتمام به، ولكنهم في النهاية لا يستطيعون عمل أيّ شيء أمام تدهور حالته، كما يحدث غالبًا، لعدم وجود طبيب نفسي في السجون، إلّا إذا حُوّل إلى قسم المرضى العقليين في سجن الرملة، وهو «امتياز» لم يكن سهل الحدوث، إذ عادة ما تبقي إدارة السجن أسيرًا أو أكثر من المرضى النفسيين وسط باقي الأسرى، لمزيد من تصعيب واقعهم الحياتي، ولأسباب نفسية، فهذا الأسير الذي تكون حالته تدهورت إلى هذا الحدّ بسبب التحقيق والتعذيب، يجسّد الحالة التي يمكن أن يصلها أيّ أسير.

وهناك جانب آخر، فإنّ بعض الأسرى، نتيجة التعذيب الشديد، يفكّرون بالانتحار، أو أحيانًا بالجنون، فيقدّمون أنفسهم كمجانين، كما حدث مع زميل لي في معتقل المسكوبية عام 1982، كان دائم الصراخ، ويحمل ورقة من دير المجانين تفيد بأنه مجنون. ومسألة الورقة هذه لم تكن غريبة عليّ، فالبعض حاول الحصول عليها، مستخدمًا معارف له في الدير، للتهرّب من مسؤولية ما، وكلمة الورقة تحوّلت إلى مصطلح فضفاض، ولكن شائع، فقد تكون مثلاً ورقة مراجعة للشخص في الدير، أو ما شابه. ولكن من الصعب تصديق أن إدارة المستشفى تعطي أحدًا ورقة-شهادة بأنّه مجنون.

لم تفلح تمثيلية زميلي على المحققين، وسبّبت لنا مزيدًا من القمع والضرب من قبل حرّاس الزنازين الكثر، فبعد جولات التحقيق، كانوا يعمدون إلى إخراجنا، وضربنا، حتّى يكفّ الضجيج في الزنازين والصراخ، ولكنّ صديقنا أراد تمثيل الأمر إلى النهاية، فلم يكفّ عن الصراخ، وإن كان أقلّنا تعرّضًا للضرب.

ولا أعرف لماذا استمرّ في جنونه، أليقنعنا، أم ليقنع نفسه؟ فهذا الجنون لم يمنعه من الاعتراف أمام المحققين، ومن دلّهم على مخزن للأسلحة كان قد خبّأه، غيرَ بعيد عن دير المجانين.

وفي انتفاضة الأقصى، عاش مطاردًا، ولم يكن مضطرًا بالطبع لتمثيل الجنون، حتّى تعرّض لعملية اغتيال بشعة، ذهب فيها مع عدد من أبنائه، عندما اعترضت قوات احتلالية خاصة مدرّبة جيدًا، سيارته، وخلال أقلّ من دقيقتين، صَفّتْه مع أبنائه بدمٍ بارد، ثمّ غادرت، وتلقت تقديرًا خاصًا في حينه من رئيس الوزراء ووزير الحرب، ورئيس الأركان، كما نشرت الصحف الإسرائيليّة.

وترْكُ المجانين بين الأسرى قد تكون له غايات أخرى، فمجانين السجن، مثلهم مثل عقلائه، منهم مَن يحافظ على المبادئ التي اعتُقل من أجلها، وآخرون يصبحون عملاء، أو يُجنَّدون حتّى قبل اعتقالهم، والمثل على ذلك ما حدث مع الأسير خضر هيلانة، الذي اغتاله سجين قيل عنه إنه مجنون في سجن نابلس المركزي، ولكنّ الأسرى اعتبروه عميلاً نفّذ الاغتيال بأوامر من الاستخبارات الإسرائيليّة.

كثيرون من الذين نعرفهم، عرفوا سلّوم في السجن، لذا فقد كانت لدينا خلفية عن سيرته، وهذه المعرفة هي التي قادتنا إلى معرفة تفاصيل، وإن لم تكن دقيقة، عن حياة أبي عصري. وبالإضافة إلى ذلك كنّا نعرف بعض أفراد من عائلة سلّوم، من بينهم شقيقته الصغرى سليمة، التي كانت ناشطة نسوية، في تنظيم يساري، وتعرّضت للسجن، وعندما خرجت أصبحت تُعدّ من الرموز النسوية اليسارية، وتُقدَّم للجمهور على هذا الأساس، أو الأصح أنها لم تكن بحاجة إلى أيّ تقديم، فقد كانت تحظى بجماهيرية من نوع خاص، تقود التظاهرات، وتكون دائمًا حاضرة في كلّ اعتصام أو احتجاج أو تظاهرة، بغضّ

النظر عن الذي دعا لها، وتستعدّ مسبّقًا بتحضير شعارات ومنظومات لهذه المناسبات، من الاحتجاجات المندّدة بتصرّفات الأجهزة الأمنية الفلسطينية التي أنشأها الخِتيار، والاعتقالات السياسيّة، إلى التظاهرات التي خرجت لاحقًا متضامنة مع الختيار نفسه، بعدما أصبح سجين مقرّه، مُحاصرًا من قوات الاحتلال.

ولطالما ظهرت سليمة، في الصفحات الأولى للصحف العالمية، وهي تتقدّم التظاهرات ترفع قبضتها في الهواء، وفمها مشرعٌ بصرخات تريد للعالم أن يسمعها.

ثم بدأ «جمهور» سليمة يلاحظ أنّ بطنها ينتفخ، ويكبر، وسرت الشائعات بسرعة كبيرة، حول المسؤول عن ذلك، وهي التي لم تتزوّج، ونذرت نفسها للقضية، كما أنّ أسلوب حياتها الكفاحي، لم يكن يطمئن أيًّا من رفاقها إلى بناء علاقة دائمة معها كالعلاقة الزوجية، فاكتفوا منها بعلاقات عابرة، لإشباع رغبات آنية. ولكن، مع انتفاخ البطن، بحث الرفاق عن شخصٍ يمكن أن يتحمّل المسؤولية، رغم أن واحدًا معيّنًا كان هو المعنيّ بالأمر، لعلاقته الوثيقة بسليمة، التي تركت بطنها ينتفخ، نتيجة وعد منه، بتحمّل تلك المسؤولية، أو ربّما لأنّها أرادت إجباره على ذلك.

ولم تحلّ المشكلة المقلقة بالتخلص من الحمل أو بالزواج، لأن سلوم، لكونه مجنونًا، لن يعالج الأمر بطريقة تقليدية، ولكن سلّوم سرق الحمار الذي كان يستخدِمه أحد أطباء الدير كوسيلة للتنقل، دون أن يعرف أحد مغزى ذلك، متهمًا بأنه مجنون، بل أكثر جنونًا من المجانين الذين يعالجهم، خصوصًا عندما يظهر راكبًا الحمار، بردائه الطبّي الأبيض، حاملاً عصا صغيرة ينكز بها الحمار، كلّ فترة وأخرى.

ركب سلّوم الحمار، ذات نهار، ويقال إن أبا عصري ركب خلفه، وغادر الدير، حتّى وصل المنزل، ونادى على سليمة فخرجت إليه. ولا نعرف إن جرى أيّ حديث بين الاثنين، كما لا نعرف أيّ شيء عن لحظات سليمة الأخيرة قبل أن يوجّه لها سلّوم طعنة جزّت رقبتها. لقد ذبحها المجنون، ثمّ بعدة طعنات قتلها، وجنينها، أمام المنزل في حارة العناترة.

لم يخفِ سلوم جريمته، وعلى عادة الرجال الذين ينفذون جرائم مشابهة، تفاخر بجريمته وسط المجانين، بينما استنكرت الأطر النسائية الجريمة، وطالبت بالتحقيق ومعاقبة المجرم، وصدرت كومة بيانات حُبّرت بكلام إنشائي تنعى سليمة شهيدة التخلف، وتطالب بإنزال أشدّ العقاب بالمجرمين، دون أن تحدّدهم.

ومثلما أثار حمل سليمة وجريمة قتلها الاهتمام والإشاعات والغضب والتحسّر، وانتقاد الرفاق للمتخلّفين، وانتقادهم بعضهم لبعض، انتهى أمر التحقيق الرسمي سريعًا، بعد استجواب سلّوم، واعترافه بالجريمة، وإصدار القرار بإيداعه من جديد في دير المجانين، الذي لم يغادره أصلاً.

ولم يكن أحد ليتخيّل أن للحكاية تتمّة أخرى، عندما وُجد سلّوم، بعد عدة أشهر، مقتولاً أمام دير المجانين، وعلامات عنف على وجهه، وبجانب الجثة بيان موقّع من «كتائب الشهيدة سليمة» يتبنّى «عملية تصفية العميل سلّوم، الذي أقدم على قتل الرفيقة سليمة، بتخطيط وتوجيه من أسياده المخابرات الإسرائيليّة» ويتعهّد بملاحقة باقي العملاء. لم يصدّق أحد ما جاء في البيان، ولم يأخذه أحد على محمل الجد، بل ساد تعاطف مع سلّوم، وراجت تقديرات بأن يكون أحد الرفاق ممن هم على علاقة بما حدث لسليمة، قد اعتبر أن سلّوم يعلم أكثر ممّا يجب، وخشي من أن يفتح فمه في يوم ما، فأراد إغلاقه للأبد، مطمئنًا إلى أنه ليس هناك مَن سيسعى للانتقام له، أو للتحقيق بهدف معرفة الحقيقة، فسلّوم لا بواكيَ له.

وبعد فترة بسيطة، لا تتجاوز الشهر، رحل أبو عصري، الذي ربّما خطط مع زميله ورفيقه لجريمة قتل سليمة، التي بقي كثيرون، كلّما ذكرت، ينظرون إليها بغموض، ويعتقدون بأن فيها الكثير من الأسرار التي لم تُكشف، ولن تُكشف، ولا يريدون أن يصدّقوا أن سلّوم فعلها وحده، أو أنّه، على أحسن تقدير، كان أداة في يد أحدهم، أو بعضهم، فالأحداث في بلادنا متسارعة، ومتتالية، والمجانين كثر، لا أحد يعرف كم منهم خارج الدير أو داخله.

العبد علوي

هناك فئة من مجانين دير المجانين، لنسمِّها الفئة الرابعة، كان يُسمح لها بالخروج من الدير والذهاب إلى منازل الأهل، وكثيرًا ما كان أفراد هذه الفئة يُـرَوْن في الشوارع، سائرين على غير هدى. ويكاد يميّز المنتمين لهذه الفئة، طلبهم الدائم السجائر من النّاس، حتّى إنني اعتقدت بوجود رابط شَرطي بين الجنون والتدخين، فلا يوجد مجنون بدون سيجارة في فمه، ينساها لتلسع شفتيه، حتى تصبح أسنانه صفراء منخورة بسبب كثافة التدخين، ووجهه غائرًا وممصوصًا، وهذا على الأرجح ليس بسبب التدخين، أو على الأقل ليس التدخين هو السبب الوحيد.

من فئة المجانين هذه، كان العبد علوي، وهو شاب له هيئة مثقف متأنّق من جيل الستينيات، طويل ونحيف، يرتدي عادة قميصًا أبيض، وبنطالاً أسود، ويضع على عينيه نظارة طبية، وهو يشبه نوعًا ما الفيلسوف الوجودي سارتر، وكان متأثّرًا به إلى حدٍّ كبير.

العبد علوي أحد أفراد عائلتي في المخيّم، والده هو خال أمي، وعلى عادة الأمور في مجتمع يولي أهمية للعائلة والعشيرة، ينادي الصغار الأكبر منهم إما عمي أو خالي، وتؤكد أمهاتنا أن هذا من دواعي الأدب، هكذا، كان نصيبي من العبد علوي، أو نصيبه منّي، أن أدعوه خالي، ولكنّه خال يختلف عن كلّ الأخوال، لأنني كنت أعرف، كما يعرف غيري، أنه مجنون، ولكن في الوقت نفسه، لم يكن بالنسبة لنا مجنونًا مثل كلّ المجانين.

كان والـد العبد علوي، يعمل في طاحونة الأونـروا، يطحن للناس القمح، أما بالنسبة للأطفال مثلنا، فإن مطحنة الخال علوي،كانت المكان الذي نعرّج عليه ونحن عائدون من المدرسة لنلهو ونحن نزن أنفسنا على القبّان الكبير.

لم يكن من النادر أن يتضايق الخال علوي منا، خصوصًا إذا جلب أحدنا معه دستة من الأطفال الآخرين، لكي يريهم الخال الذي يتحكم بقبّانٍ يمكن أن يعرف النّاس وزنهم بالوقوف عليه، وتلك سلطة، لطالما رأيناها كبيرة.

ولكن إجمالاً، كان الخال علوي هادئًا، مكسورًا، انطفأ البريق في عينيه منذ زمن، مثل جميع اللاجئين أمثاله الذين فقدوا أراضيهم، ووجدوا أنفسهم في مخيّمات اللجوء يعملون «عند النّاس» بعدما كانوا يعملون في أرضهم، ويأكلون من خيرها.

وبرغم ذلك الخفوت الـذي حلّ عليه، ظلّت نساء العائلة يرين فيه الرجولة الأبوية المفتقدة، وكنّ يخشينه، دون أن يحاول هو فرض شيء عليهنّ، ويبدو أنهنّ كنّ بحاجة إلى نوعٍ من رجولة معيّنة، ليشعرن بانكسارات أنثوية، أو بمزيد من انكسارات يراكمنها على انكساراتهن التي لا تنتهي حتّى أصبحن مطحونات تمامًا.

نساء العائلة، ورجالها، لطالما تطلعوا إلى الخال علوي، بصفته «الكبير»، وسرى ذلك علينا نحن الصغار، ولم يكن ذلك بـدون مبرّر، فهذا الخال هو الكفيل بضرب خال آخر اسمه بشير، من الأخوال الكثر، الذين لا أعرف نوعية صلة القرابة بهم. كان بشير هذا، سكّيرًا عربيدًا، كما كنّا نصفه ونحن صغار، يعمل في بارات بيت لحم ويعود في أحيانٍ كثيرة إلى منزله سكرانَ غاضبًا، يريد أن يتشاجر مع الحيطان، فيبدأ بعمليات ضرب وتكسير مصحوبة بصراخ مجانين، فترسل زوجته الخالة زينب أيّ ولد منا، ليسرع بإحضار الخال علوي، الذي كان يهبّ فورًا، ويصل بسرعة قياسية مهما كانت المهام التي تشغله، عارفًا مهمّته جيدًا، وهي ضرب الخال بشير، صفعات متكرّرة، كانت كفيلة وفقًا لاعتقاد الجميع، بجعل بشير هذا يصحو، ويتوقف عن الكلام البذيء الذي ينطقه بحق زوجته والجيران عندما يكون سكران.

جرّب كثيرون، كانوا يصلون إلى دار بشير قبل الخال العلوي، أن يعيدوا لبشير وعيه لكنهم كانوا يفشلون، برغم استخدامهم قوّة مفرطة، فقد كان بشير يزداد شراسة، في علاقة طردية مع العنف الذي يواجهه، إلى أن يصل الخال علوي الذي يطلب بهدوء إفساح الطريق أمامه، متنحنحًا، وهو يتلو أدعية وآيات قرآنية، ويمسك بشير المخيف، وكأن هذا كيس فارغ، فيصفعه بشدة، بينما بشير مستسلم له، فيصحو من سُكره، وعندها يطلب الخال علوي، بكثير من الوقار والاعتزاز، من زينب أخذ زوجها، وإغلاق الباب عليهما وأولادهما معربًا عن غضبه قائلاً: «يكفي فضائح». ولكن الفضائح لم تكن تنتهي، فبشير ظل يحتسي الخمر ويسكر، رغم أنه، مع تقدّمه في السنّ، أصبح يذهب إلى المسجد للصلاة، ولكنّ هذا شيء وذاك شيء آخر، وكثيرًا ما قال: «اللّه سيعاقبني على واحدة ويجازيني على الأخرى، ومَن يدري، فربما أكون بالنسبة إليه أفضل من شيوخ الكذب والفتنة؟».

ومن حيث لم يتوقع الخال علوي، أصبح له شهرة بقدرته على العلاج بالضرب، وبدأ يزوره ناس مثل المصاب في وجهه بلفحة هواء من تلك التي تسبّب شللاً في نصف الوجه، فيضربه، دون أن يدرك أنه يُعالج بالمساج أو التدليك، كما يفعلون اليوم للمصابين بهذا النوع من لفحات الهواء. ولم يقتصر الأمر على الأمور الطبية، وهي كثيرة، بل إنه عالج أيضًا ممسوسين بالجان وبعفاريت سُمع بها وأخرى لم يُسمع بها، ورغم ازدياد شهرته وزبائنه، كان يرفض تقاضي أيّ أجر على ما اعتبره هبة إلهية ينفع بها النّاس، مكتفيًا بالشهرة ودعاء النّاس له، وترسيخ مكانته بينهم.

ومثل الخال علوي، كان ابنه العبد هادئًا، شديد الهدوء، أخذ عنه طوله، ولكن بخلافه، لم تكن السجائر تفارق يده، وكانت تظهر على أصابعه المصفرّة بفعل التدخين، لسعات الجمر، كما هي الحال على شفتيه، بينما فقدت أسنانه بياضها، هذا إن كانت فعلاً بيضاء في يوم من الأيام.

ما ميّز العبد علوي عن باقي المجانين هو اعتزازه براديو صغير ترانزستور، له علّاقة يدخلها في رسغه. عندما يسير، كان يمكن رؤية الراديو

وهو يتلوّح في يده، وعندما يجلس على كرسي أو على الأرض مادًا جسمه، يضع الراديو على أذنه.

عانى العبد علوي من رجفة في رجليه، تظهر عندما يجلس ويضع رِجلاً على رِجل، فلا تكفّ رجله التي تمتطي الأخرى عن التحرّك، ولا شفته عن مصّ السجائر، وهذا الشكل من تحريك الرِجلين غير الإرادي، خبرته في ما بعد لدى أسير صمد في التحقيق في زنازين الاحتلال، فتعرّض لتعذيب قاسٍ، واغتصبه المحققون بوضع زجاجة فارغة في دبره انتقامًا، وعندما خرج لم يكن يتحكم أبدًا بحركة رجليه.

صحيح أن العبد كان هادئًا، لكن ذلك لا يعني أنه لم يكن، في أحيانٍ كثيرة، يرغب في الكلام، أو على الأصح، في النقاش مع شباب العائلة وصبایاها. كانت ثقافته الواسعة مدهشة، ولم يكن يخفي اعتناقه المذهب الوجودي وإعجابه بسارتر، وآخرين من أسماء لم يسمع بها محاوروه من قبل، ولا تعلق في أذهانهم. وعندما يواجه بأسئلة لا يتحرّج في وصفها بأنها سخيفة عن الوجودية، يتنطح للرد والشرح عن مواضيع مثل الوجودية الملحدة والمؤمنة، ولتقديم تفاصيل عن فلاسفة الوجودية، يذكر منهم مثلاً الشاعر الجاهلي طَرَفة بن العَبد، الذي كان شديد الإعجاب به، ولا أشك الآن في أنّ موت طرَفة المبكر الذي طالما روى العبد حكايته، قد أثّر فيه كثيرًا.

أسطورة العبد علوي التي سبقته إلى منازل العائلة، وتـردّدت في جنباتها بكثير من الأسى، هي أنه كان مجتهدًا ومبرَّزًا في التعليم، وأنّ ذكاءه الخارق المفترض أودى به إلى الجنون، بدلاً من الجامعات.

رصفاء العبد علوي، كانوا قد تفرّقوا قبل حزيران 1967 وبعده، وعلى خلافه فإنّ معظمهم كان متأثرًا بالماركسية والقومية، ولم يقدَّر لي أن ألتقي بأحدهم إلا بعد سنوات طويلة في العاصمة الأردنية عمّان، وعندما سألته عن العبد علوي، باغته السؤال ولكنّه أكد لي أسطورة التعليم، وكيف بدأت حالته تميل إلى الجنون، عندما أفضى لصديقه، محدّثي، أنه عندما يسمع صوت زقزقة العصافير، فإنه يثار جنسيًا «... ويأتي ظهره على الفور... فيشعر براحة من سيلان ماء الظهر».

صديق العبد القديم قال لي ذلك وهو يضحك، ولم يكن سابقًا ولا لاحقًا بحاجة إلى غير هذا الاعتراف من العبد ليدرك أنه مجنون فعلاً.

قلت لمحدّثي:

– إذا كان العبد مثل ما تقول، فإنه شاعر... وليس مجنونًا.

فأجابني مازحًا:

– كلّ شاعر هو مجنون في النهاية.

ضحكت وتذكرت الشاعرة بهيجة، التي كانت تقول بفخر إنها أسرع امرأة يأتي ظهرها، وكثيرًا ما تقطع حديثنا التلفوني لتقول: امممممم..، ثمّ تهمد قليلاً لنعود ونكمل حديثنا، بعد أن تخبرني أنها تبلّلت، ولم يكن بالإمكان أبدًا إحصاء عدد مرّات بلل بهيجة، خلال حديث تلفوني واحد.

لم أكن أعرف شيئًا عن رغبات العبد الجنسية أو العاطفية، ولكنني أذكر أنه كان يولي بنات العائلة اهتمامًا معيّنًا، لا يصل إلى مرحلة الغزل الصريح أو التحرّش بهن، على الأقلّ هذا ما أعرفه، وفي كلّ الأحوال فإنه نجح في عقد صداقات معهن، لإيمانه كمثقف بالصداقة بين الرجل والمرأة، وأيضًا لسبب آخر، هو استعداده للاستماع لهنّ دون أن يكون لديهنّ قلق من أنه يمكن أن يفشي أسرارهنّ، وإن فعل فالأمر وإن كان مزعجًا، فإنه لن يصل إلى حدّ القلق، فهو في النهاية مجنون، ويمكن أن يقول أمورًا كثيرة ليست بالضرورة صحيحة.

ولطالما استمعت لنقاشاته عن أمورٍ مثل صداقة الرجل والمرأة، والمساواة، ونقده للماركسية الشائعة كموضة، وتحيّزه للوجودية، وعدائه للسوفيات لأنّهم أوّل مَن اعترفوا بإسرائيل، برغم تشدّقهم بالأفكار التحررية، التي لم يصدّقها العبد أبدًا، وأحاديث لا تنتهي عن الحضارة والتقدّم والدين والمعاصرة.

كان العبد يُمضي أيامه، بين منزله ومنازل العائلة وشوارع الدهيشة وبيت لحم، ودير المجانين حيث يتلقى علاجات، قد لا تصل إلى الصدمات الكهربائية المخيفة التي كانت شائعة، أو الضرب العنيف من قبل التمرجية، وربما يعود السبب في ذلك إلى أنه في النهاية ابن الدهيشة، ابن المخيّم،

أي إنّ له ظهرًا وعزوة بعكس المجانين الآتين من مناطق أخرى بعيدة، وعادة ما يتركهم أهلهم في الدير يواجهون مصيرهم وحدهم، لا يسألون عنهم، ولا يرونهم إلا مرّتين، عندما يوقّعون صكّ تسليمهم، وعندما يتسلّمونهم جثثًا ليدفنوهم، حتى إنّهم في مرّات ليست قليلة يتخلفون عن تسلّم الجثث، فتدفن في أيّ قبر يتمّ تدبيره، وأحيانًا يتطوّع تمرجي أو فاعل خير بأخذ الجثة لدفنها في مقابر العائلة.

وصدف كثيرًا أن زرناه في الدير، عندما كان يغيب لفترة طويلة، نتمشى جهة الدير، ونقصد قسم «المجانين العاقلين» كما كنا نسمّيه وفقًا للتصنيف الذي اخترعناه، والذي يُطلق عليه قسم النقاهة، حيث يقبع المجانين غير الخطرين.

كنّا نجلس مع العبد تحت شجرة ظليلة، أو نتمشّى في الطريق الترابي المظلل بأشجار الصنوبر على جانبيه. أذكر سعادة العبد بوجودنا، ولا أذكر تعاسته عندما ننهي الزيارة، بعكس المجانين الآخرين الذين إذا سنحت لهم زيارة من أقرباء لهم يتمسّكون بهم ليخرجوهم من دير المجانين، باعتبارهم عاقلين وإن تركوهم بين المجانين فسيجنّنونهم بالتأكيد، فيصدح صراخ عالٍ سرعان ما يتحوّل إلى توسّل، إلى أن تحسم الأيدي في ملابس التمرجية البيضاء الموقف، وتجرّ المجانين الذارفين للدموع إلى غرفهم.

هل كان العبد يداري حزنه على مغادرتنا بكبرياء وعزة نفس لا يظهرها؟ خصوصًا أنه في كلّ زيارة عادة ما يكون معنا عدد من بنات العائلة الأكبر سنًا، اللواتي يحبّ مجالستهن واستعراض ثقافته أمامهن كما يحببنه بدورهن لما فيه من شيء يجذبنا جميعًا إليه؟

وبجانب قسم المجانين العاقلين، أذكر وجود قسم للمجنونات العاقلات. وفي مرّة، ذهبت لزيارة العبد، مع بنات من العائلة الأكبر سنًا، اللواتي كنّ يحتجن دائمًا لأمثالي من الصغار لدى ذهابهن في مشاوير، كأننا «محارم» وفقًا للتعبير الديني، أو مُحلّلين لمشاوير خروج النساء يومها، عندما وصلنا الدير، لم نجد العبد، ولا أعرف كيف سنحت الفرصة لأن نجالس اثنتين من المجنونات العاقلات، بدتا في كامل زينتهما، ودار الحديث حول موضوع

واحد هو الحبّ، وكأنه حديث بين بنات فقط إذ تجاهلن وجودي، وتحدثت كلّ مجنونة عن حبيبها، وعن طموح الارتباط بعد الخروج من دير المجانين، وتطرّق الحديث إلى معنى الحبّ وصفاته والتضحية والوفاء والشوق، والفرق بينه وبين الجنس، وأجمعت بنات العائلة والمجنونتان على أنّ الحبّ يجب أن يكون حبًّا لنفسه، حبًّا للحبّ، غير مدنّس بشهوات معيّنة، وكأن أحدًا من الكبار، كبار العائلة أو أيّ كبار لهم سطوة معيّنة، موجود بيننا، وتسعى كلٌّ من البنات العاقلات والمجنونات، أن لا يضبطهن متلبّسات بأيّ شبهة ربط بين الحبّ والجنس.

وكانت المفاجأة أنّ إحدى المجنونات العاقلات باحت بحبّها لمجنون عاقل ينزل في الدير، وتحدثت عن كيفية مغافلة التمرجية والتمرجيات، لتمرير رسائل الشوق والعشق بينهما، وساعد في ذلك زميلاتها وزملاء حبيبها، ومن بينهم العبد، الذي أشادت المجنونة بمناقبه وأخلاقه، واعتبرته الأستاذ والموجّه الروحي لقصّة الحبّ، التي بلغت تقدّمًا حتّى إن الاثنين اتفقا على أسماء الأولاد بعد أن يحصل النصيب، وأحدهم سيكون اسمه العبد.

نسيت وسأنسى أحداثًا هامة ومؤثّرة خبرتها في السجون، والشوارع، والشتات، ولكنني لن أنسى تلك المجنونة العاقلة، شغفها بالحياة، وأناقتها، وطريقة تدخينها، وحماستها للحبيب المجنون. تصوّرت أنها مريضة بالحبّ، وبدت لي في ما بعد كإحدى بطلات المنفلوطي أو محمّد عبد الحليم عبد اللّه، وربما كانت بعض الجمل الرنّانة التي سمعتها منها، مأخوذة من كتب المنفلوطي، أو مصطفى صادق الرافعي، أو إحسان عبد القدّوس، والأخير مع يوسف السباعي كانا من الكُتّاب المفضّلين لبنات العائلة، وبعضهن حفظن جملاً كتباها عن ظهر قلب، وكنت أعرف ذلك عندما تقرأ إحداهنّ رسالة وصلتها من حبيب لأخرى، متجاهلة وجودي كما يحدث دائمًا، فتوقف الأخرى الأولى عند جملة أو عبارة معيّنة وتقول ضاحكة «إحسان..» أي إنّه سرقها من الكاتب المعروف ليعبّر بها عن حبّه لبنت المخيّم تلك.

بعد تلك الزيارة، سرى كلام لا أعرف كم كان جديًا، حول إمكانية أن يتزوّج العبد علوي، بمجنونة عاقلة.

وربما وصل ذلك الكلام للعبد، لكنه لم يدفعه لتغيير موقفه، يبدو أنه عرف أنّ مساحة حياته الحالية والمقبلة، هي التنقّل بين المخيّم والدير، سماع الراديو، والنقاشات التي لا تنتهي، والتدخين الذي لن يتوقف، والعصافير التي لا تتوقف عن الزقزقة.

معرفتي بالعبد علوي تبدو الآن كأنها ومضة، انطفأت بسرعة، ففي يوم وصل الخبر المفاجئ الصاعق، الذي بدا أنه، برغم ذلك، كان متوقعًا:

– العبد علوي انتحر... في البِرك!

توجّهت مثل آخرين كثر إلى برك سليمان، التي أخرج ومَثّل الأخَوان لاما فيلمهما عندها، وهي ثلاث برك ضخمة تقع بالقرب من مخيمنا، وتُشَكّل جزءًا من النظام المائي الذي غذّى القدس بالماء لأكثر من ألفي عام عبر قنوات، والذي لا شك في أنّ من ابتكره كان يريد أن يحقق فكرة مجنونة خطرت بباله، وقد يكون الإمبراطور الروماني هادريان هو من فعلها، ذاك الإمبراطور الذي هدم القدس، وأعاد بناءها لمناسبة مرور 21 عامًا على اعتلائه سدة الحكم (135م)، وأطلق عليها اسم «إيليا كابتولينا»، وهو مزيج من اسم عائلته، واسم الإله الروماني جوبيتر، وهو اسم اختزله العرب بـ«إيلياء»، دون أن يفهموه، فياقوت الحموي، مثلاً، يفسّر الاسم، وكأنه «بيت إيل» قائلاً: «إيلياء اسم بيت المقدس. قيل معناه بيت اللّه».

المهمّ، عرفنا أنه عُثر على جثة العبد في البركة الوسطى. ترك نظارته والراديو، وعلبة الدخان، على حافة البركة، وهو الأمر المؤكد في القصة. أمّا تكملتها فهي أنه قرّر الانتحار فقفز في البركة الضخمة المليئة بالماء، والشجيرات، والتي لا تصلح للسباحة.

لم يكن العبد أوّل شخص ينتحر من مخيّمنا أو من محيطنا في هذه البرك، فقد كان شائعًا مثلاً انتحار طالب مجتهد ومبرّز لا يحصل على العلامات المتوقّعة في امتحان التوجيهي، فتحدث له صدمة، وربما لا يستطيع مواجهة أب متسلّط، يريد أن يرى ابنه من أحسن النّاس، بعدما جار عليه الزمن، وجعله لاجئًا مطرودًا من أرضه فلا يريد لابنه أن يكرّر حياة أبيه الشقيّة، في تلك الحالة، كان الابن يجد أن أقصر وأسرع الحلول هو أن ينهي حياته بيده، فينتحر في

برك سليمان التي طالما أخذت منتحرين وغرقى، ومن بينهم يهود. وفي كلّ عام، كنّا على موعد دائم مع الموت في برك الدم هذه، محطة نقل الماء إلى «بيت اللّه» المزيّف القدس، التي شُغف بها كتّاب ورحّالة فسكنوا بجانبها، وكانت محطة ضرورية للغزاة، وإلى منطقتها استدرج الثوّار جنود إبراهيم باشا، وذبحوهم، وإليها جلب البريطانيون مضخة تنقية غنموها من الألمان في الصحراء الكبرى. وبقي نظام تزويد الماء بالقدس يعمل، حتّى حرب 1948، وتقسيم القدس، التي أصبح شرقها للمهزومين وغربها لمن كسبوا الحرب.

من خلال تجربتنا مع المنتحرين والغرقى، كنّا نعلم أن جثّة الغريق أو المنتحر تستقرّ في القاع، ولا تظهر إلا بعد عدة أيّام عندما تنتفخ من الماء فتطفو على السطح، وعندها نعلم بأنّ فلانًا انتحر أو غرق، أما في حالة العبد، فإن نظارته ومذياعه دلّا على هويّته بسرعة، وقبل أن تظهر جثته.

وعندما أتذكّر الأمر الآن أتساءل: لماذا وضع العبد أبرز ملامحه على الحافة قبل أن يتخذ قراره؟ ولماذا لم يقفز في البركة هكذا بكامل ملامحه؟ هل أراد ترك رسالة ذات طابع رمزي تكون بمثابة وصيّته؟ هل أراد أن يقول لنا: «ها أنا أترك لكم بعضًا مني لتذكروني»، أم أراد أن يتمّ التعرّف إلى هويّته بسرعة، وعدم تركه في وحدته كثيرًا في قاع البركة المظلم؟

أعرف أنني لن أتمكن أبدًا من معرفة تفاصيل اللحظات الأخيرة في حياة العبد، وهو يقف على حافة البركة الرومانية الضخمة، تحت الأشجار العالية، وقد يكون ذلك بعدما حلّ الظلام، فوقف وحيدًا في مواجهة الماء، والحياة، وربما استشفّ بعض الخواطر من الرموز التاريخية والأثرية في المكان، وربما استعرض شريط حياته بسرعة، وربما فكر بوالده وبردة فعله، وبوالدته التي كنّا نصفها بأنها «على نيّاتها» وهو تعبير محلّي يعني أنها مسكينة، أو هبلة، أو مسالمة، أو مزيج من ذلك كله.

لا أذكر كم لزم من وقت لإخراج جثة العبد، التي نُقلت إلى منزله بحضور الشرطة، بينما تولت نساء العائلة النواح على الشاب الذي انقصف عمره. كانت نساء العائلة شديدات الوفاء لتقاليد العزاء الموغلة في القدم، ولا تقتصر هذه التقاليد على النواح والبكاء وترديد مناقب الفقيد، بل تقضي

أيضًا بتنظيم حلقات اللطم الجماعية، وترديد أغاني الموت الشجيّة، وهنّ متحلّقات وقوفًا، وفي الوسط واحدة منهنّ تحمل غطاء رأسها بيدها، تقودهنّ، وتضبط إيقاع المنظومات الحزينة، ولو رأى زائر من بعيد هذه الحلقات لظنّ أنه أمام مناسبة مفرحة.

أمّا أنا، فإن صوتهن وهنّ ينُحْن على العبد ويصفنه بزريف (ظريف) الطول، الذي انقصف طوله وعمره وكل شيء فيه، ما زال يسكنني، ويحزنني إلى درجة لا يمكن وصفها.

بعد انتحار العبد لم يعد يذكره أحد، كأنّ مصيره هذا كان محسومًا سلفًا، وكأنّ موته أمر متوقع، ولا أعرف سبب ذلك، ربّما لأن العائلة فقدت العديد من رجالها ماتوا شبابًا، إما غرقًا في المحيط الأطلسي، أو بجرثومة في الصحراء العربية، أو مرضًا، أو انتحارًا كما هي حال إلياس الذي حرق نفسه بسبب العشق.

هل العشق يقتل؟ سيجيب البعض بنعم، وأنا سأقول: ربّما. فأنا جلست في حضن أمي وسط النائحات على إلياس بعد انتحاره، دون أن أعرف التفاصيل التي أودت بهذا الدون جوان إلى الموت، وظننت في ما بعد أنه ربّما أراد أن يمارس ضغطًا معيّنًا على محبوبته، فأشعل النار بنفسه على أمل أن ينتبه أحد إليه فيطفئها، أو كان ينوي هو إطفاءها لكنّ الأمر خرج عن السيطرة.

وعرفت حالات قد تصل إلى عدد أصابع اليدين، لشباب وصبايا قرّروا الانتحار بسبب الحبّ، وتمّ إنقاذهم في آخر لحظة، وفتيان انتحروا فعلاً، وزاملت صديقًا مسيحيًا في مستشفى أغوستا فكتوريا، قصر الإمبراطورة الألمانية على جبل الزيتون في القدس، أنقذوه بعدما تناول حبوبًا كثيرة للضغط على حبيبته المسلمة لتتزوّجه، وعرفت حالات بعدد أصابع اليد الواحدة لأناس ذهبوا في المسار إلى نهايته، وفقدوا حيواتهم من أجل الحبّ. ففي باحة أحد المستشفيات، وجدتني ذات مرة واقفًا مع والد صديقي المنتحر من أجل حبيبته، وكان كلانا يعرف أن الراقد في الداخل أوصلناه المستشفى ميتًا، ولكننا، من دون أن ننبس بأيّ كلمة، كان يحدو كلاً منا الأمل

بأن نراه يخرج مشرقًا مبتسمًا، ولكنّه خرج في اليوم التالي، بعد استكمال إجراءات روتينية قاتلة، محمولاً على أكتافنا إلى مثواه الأخير.

ولكن هل الجنون يقتل؟

في دير المجانين، وقعت جرائم قتل، قَتلَ مجانينُ مجانينَ آخرين، وعرفت حكاية مجنون قتل مجنونًا آخر، كان طبيبًا فجُنّ، وأصبح زميلاً لمن كان يعالجهم، ويبدو أنّ القاتل كان يحمل حقدًا دفينًا للطبيب العاقل سابقًا والمجنون لاحقًا، فانتهز وقتًا ملائمًا، واستلّ سكينًا، وأفرغ حقده في طعنات متتالية.

ولكن، في حالة العبد، كانت المفاجأة لي عندما قرأت لمتخصّص في علم النفس، أو هكذا عرّفه الناشر، أنّ المجنون لا ينتحر، فالانتحار يحتاج إلى قرارٍ، والمجنون عاجز عن اتخاذ قرار كهذا، وإنما العاقل هو مَن ينتحر.

إذًا لم يكن العبد مجنونًا. وكنت أعلم أنه مجنون من نوع خاص، أو كان يختبئ خلف جنونه من حياة لم يفهمه فيها أحد، لذا امتلك إرادة القرار قبل أن يضع نظارته وسجائره ومذياعه على حافة البركة الرومانية، ويقفز. الأرجح أنه لم يكن مجنونًا مثل باقي نزلاء دير المجانين، كانت تدغدغه زقزقة العصافير فقط.

بل كان شاعرًا، وأيضًا مجنونًا مثل بهيجة، تحلّق به زقزقة العصافير إلى سماواتٍ عُلى.

بهيجة صبري

لم نكن قد بدأنا حديثنا بعد، أعني بعد كلمات الترحيب التلفونية، حتّى قالت لي بهيجة:

– امممممممم...!

ثمّ همدت، وبعد هنيهة أو هنيهتين، قالت لي ضاحكة:

– أنا أسرع امرأة على وجه الأرض، يأتي ظهرها...!

في هذه المكالمة، حدّدنا موعدًا كنّا نؤجّله دائمًا، لنلتقي، بعدما تعارفنا من خلال المكالمات الهاتفية، التي كانت تستمر فترات طويلة، نتحدّث فيها عن الشعر وتقرأ قصائدها الغزلية الجديدة، وعن شؤون كثيرة سياسيّة واجتماعية ومشاكلنا العائلية، تتخللها بدون سبب مقنع لي الاممممممممم، التي تشكل فخرًا لبهيجة، كأسرع واحدة في التبلّل، ولم أعِ لماذا يمكن أن يشكّل لها هذا مدعاة للفخر، خصوصًا وأنا أعرف أن الرجال، على الأقلّ، يرغب كلّ منهم، في أن يكون آخر من يتبلّل أو يبلّل، حتّى يقتنص أطول فترة ممكنة من المتعة.

كانت بهيجة شاعرة في الستين من عمرها، قمعتها الأوضاع السياسيّة التي تعصف ببلادنا، فلم تجد لنفسها مكانة في الساحة الأدبية بصفتها شاعرة «الغزل الحسّي» كما تصف نفسها، فتلك الساحة لم تكن تتّسع إلا لمن رفعوا شعار «بالدم نكتب لفلسطين». ولكن، بعد اتفاق أوسلو، تغيّرت أشياء

كثيرة، وأصبح شعراء الدم أصدقاء للطرف الآخر، وهي التسمية الخجولة من سلطة أوسلو، لما كان يسمّى الكيان الصهيوني، أو في أفضل الحالات العدوّ الإسرائيليّ، فظهرت بهيجة بقوة بشِعرها الغزلي الحسّي، وقصائدها التي تتغزّل فيها بالجسد الرجولي، وبسرعة صدرت لها دواوين كثيرة، وتحَوّل منزلها في حيفا، إلى مكانٍ لندوة أدبية أسبوعية، يحضرها عدد كبير من الشعراء والأدباء، وفي باقي أيّام الأسبوع، لم يكن يخلو منزلها من هؤلاء، حيث كانت بهيجة تقدّم غزلها المكشوف، وتتحدث عن رغباتها، وتقرأ القصائد التي كتبتها في بعضهم، وتستمع منهم لقصائدهم فيها، فتردّ عليهم أحيانًا شعرًا، ليردّوا بدورهم، وهكذا استطاعت أن تحيي موات أحاسيس الكثيرين منهم.

وكانت تصرّفات بهيجة أصغر بكثيرٍ من عمرها الزمني، وإذا كان هناك مقياس للتصرّفات حسب العمر، فهي ليست أكثر من فتاة مراهقة، مندفعة، مجنونة، تائهة، زادها العمر معرفة في ارتشاف النشوة، حتّى آخر مدى، وفي الوقت ذاته كانت تلعب، تُسلّي نفسها، بعد صدمات اجتماعية حادّة تعرّضت لها، مثل جنون أحد أبنائها، وخصوصًا أن تقاليد عائلتها الأرستقراطية، حالت دون وضعه في مكان يتعامل مع هذه الحالات، أو في دير المجانين، فكان عليها أن تكون أمّه وطبيبته، رغم أنها يمكن أن تكون أي شيء إلا طبيبة أو أمًّا، فلم تكن بهيجة إلّا مزيجًا من لعب، وأمراض نفسية، وهروب دائم من القدر الذي طالما قالت لي إنه بدأ لعبته معها بكفٍّ حامية على صدغها، وكانت تقصد حالة ابنها، وابنة أخرى لها، لم تكن سعيدة كثيرًا باختياراتها، ولطالما حدّثتني عنها، وعن صداقتها لشخص مثليّ الجنس «لا ينفع البنات» حسب تعبير بهيجة.

عندما اتصلت بي بهيجة هاتفيًا، أوّل مرّة، قالت لي أحبّك، مثلما تفعل مع الجميع، وبدأت تتحدّث معي، وكأننا نحبّ بعضنا منذ عشرات السنين، بعد أن نقفل الهاتف، أُفاجأ بها مرّة أخرى، تحدّثني بصوت هادئ، وتقول لي إنها تختلس وقتًا من جلسة عائلية مملة، وتبدو سعيدة بذلك، وكأنها تعيش قصة حبّ سرية، ثمّ تأتي الاممممممم، وتتكرّر هذه الاتصالات مرّات عديدة في النهار والليل.

لم تعجبني اللعبة كثيرًا، وبدأت أشفق على بهيجة، التي لا تكفّ عن قراءة كلّ بيت شعر جديد تكتبه، وتشكو تصرّفات هذا الشاعر أو ذاك، من أشياء لم أكن أفهمها، فهي تبدأ حديثنا عن أيّ منهم، وكأنني أعرف الحكاية منذ البداية، ثمّ ترمي بهمومها التافهة إليّ، وتقبل منّي تطييب خاطرها، وكأنّني أعتذر باسم جنس الرجال، لهذه المرأة، التي بدأت أعرف حين أتحدّث معها، أنني أتحدّث مع قلب طفلة، دهمتها الأعوام فجأة، وأصبحت امرأة، تحمل عبء عائلة راكمت ثروة ومكانة، ولكنها تضرّرت من الاحتلال، وخسرت أراضي كثيرة، أقيمت عليها مساكن ليهود أتوا من مختلف أنحاء العالم، لإحياء حلم قديم. هذه المرأة التي خسرت نفسها في سجن عائلي لم تختره، لم يكن لديها القدرة على اتخاذ موقف من القدر الذي صفعها، فابنها الذي عطل حياتها، هو جزء من ذلك الجسد، الذي كأنها اكتشفته على حين غرّة، وربما كرهته في فترة معيّنة، قد تكون طويلة، ولكنها عندما عادت لتكتشفه، لم تسمح أبدًا لأي رجل بأن يقذف داخلها، كما قالت لي بعفوية، فأيّ ممارسة بالنسبة لها، خارجية، ويجب أن يتبعها حمام فوري.

مع شفقتي على بهيجة، احتقرت نفسي، كنت أبحث عن المغامرة، ولكن لم يكن لديّ شك في أنه يجب عليّ وعلى غيري من المعنيين بأمرها، ومن زوّارها الكثر الذين يتمتّعون بضيافتها، ومعظمهم أصبحوا من محدثي نعمة أوسلو، من كبار رجال السلطة الفلسطينية الجديدة، الذين يحجّون إلى حيفا، أن نعمل بطريقة ما، لم أهتدِ إليها، لعرضها على طبيب نفسي، ولكنني لم أجرؤ أن أقول لها ذلك أبدًا بصريح العبارة، خصوصًا أن تضخمًا للذات بدأ ينتابها، وإن لم يؤثر كثيرًا على تواضعها، فقد أصبحت تضع نفسها في قائمة شعراء كبار مثل محمود درويش، الذي كانت تأتي إلى رام اللّه لتراه، ويبدو أنها لم تنجح في ضمّه إلى طابور معجبيها وزوّارها، لذا فإنها كانت توجّه له نقدًا حادًا، خلال أحاديثنا الطويلة، وأتولّى من جانبي تبرير مواقف الشاعر الكبير (الذي لم تربطني به أيّ صلة)، وكأنني مُلزم بذلك، وهو ما أصبح جزءًا من اللعبة بيني وبين بهيجة، خلال أحاديث هاتفية لا تنتهي، إلّا لتبدأ من جديد.

ويمكنني الآن أن أبتسم أو أضحك، وربما وجب عليّ الاعتذار، من كل مَن اعتذرتُ باسمهم لبهيجة، أو اختلقت لهم الأعذار، من دون علمهم، ومن دون طلب منهم.

ليس فقط أن اللعبة لم تعد تعجبني بل إنني كرهتها فأنا لم أعد أعرف إن كنت أنا المعشوق، أم قاضي الغرام، ولم أعد مرتاحًا للدور الذي وضعت نفسي فيه، كمحلل لشخصية بهيجة، وربما منقذها المنتظر، ومن ماذا؟ لم أعد أعرف...، واستشعرت خطر الاستمرار في علاقة هاتفية مع شاعرة مجنونة، أنا بعمر أولادها، لها بيت مستقر، وزوج يُعدّ شخصيّة عامة، ففاتحتها بالأمر، ولكنها لم تأخذ الموضوع على محمل الجد، واتفقنا على أن نلتقي في منزلها، وهو اللقاء الذي طالما أجّلته ولم أرغب فيه، بسبب وخزات الضمير، التي لم تكن بهيجة الطفلة تفهم معناها.

قبل الموعد المحدّد، سافرت إلى حيفا. ركبت حافلة من محطة الحافلات المركزية في القدس الغربية، وكنت العربي الوحيد، وسط ركاب الحافلة اليهود، وغرقت في كتاب بين يديّ، حتّى لا ألفت الانتباه، والتزمت الصمت. إلّا أن ذلك لم ينجح، وفتح معي يهودي من أصل جزائري، يسافر مع فتاة شقراء أصغر منه بكثير، حديثًا عن العرب واليهود والسلام والحرب، وكيف أن النّاس المساكين أمثالنا، من الجانبين، يدفعون الثمن، بينما حكّام العرب واليهود يعيشون في نعيم وثراء، وكأنه يتبنّى نظرية معيّنة، أو هو أسلوب يعتمده كثير من اليهود الإسرائيليين لترطيب الأجواء في مواقف يتعيّن على الواحد منهم فيها مقابلة أحد من الطرف الآخر، طرفنا.

عرفت منه أنه هجر زوجته الأولى، وتزوّج الروسيّة التي ترافقه، والتي قاطعت حديثنا مرارًا، لتسأله عن بعض المواقع والأمكنة التي نمرّ بها.

عندما وصلت حيفا، التي عشقتها وفتنت وهمت بها، منذ أوّل مرّة دخلتها، واعتبرت أن علاقة حبّ عميقة وسرّية تربطنا، نَمت مع مرور الأعوام، تهتُ في شوارعها عن قصد. ومع حلول الظلام، اتصلت بأصدقاء لي أحمديين يعيشون في عرين الطائفة الأحمدية على جبل الكرمل، الذي يحتضن حيفا وبحرها، وكنت قد رتّبت لقائي معهم مسبقًا قبل السفر. صعدت معهم

بسيارتهم إلى الجبل، الذي دجّن فيه الإنسان الفلسطيني لأوّل مرّة النار، ويشهد الآن على تنوّع لا يمكن العثور عليه في أيّ مكان آخر، على هذه الأرض التي مزّقتها الاحتلالات، إذ يحتضن معابد وكنائس ومقارّ طوائف وأديان، غير تلك المعروفة والمعترف بها، كالأحمدية، والبهائية، والماسونية.

استيقظت مبكرًا، وفي الحقيقة لم أنم كثيرًا، فقد أمضيت فترة طويلة من الليل في النقاش مع الأحمديين، الذين حسموا أمر دنياهم وآخرتهم، بعدما عثروا على مسيحهم الموعود، والمهدي المنتظر، ثمّ فترة أخرى وأنا أنظر من النافذة إلى بحر حيفا وليلها، وأتصوّر أنني لو كنت في بلدٍ عاديّ، لا أضطر فيه إلى التنقّل بتصاريح، كما هو وضعي الآن، لاخترت العيش في حيفا، رغم أن قِبلة أهلي، في القرية التي هُجروا، كانت يافا، يقصدونها لـ«يتمدّنوا» منها، أي يشدون لها الرحال لتلبية احتياجاتهم، فلو كانوا بقوا في قريتهم وولدتُ أنا هناك، لتمرّدت على اختيارهم، ونزلت حيفا، للدراسة، والعيش، والكتابة، ولو زعلوا وزعلت يافا.

نزلت سيرًا على قدميّ، في شارع الجبل، حيث تسكن بهيجة. كان هذا الشارع عرضة لرضى إسرائيل ونقمتها، فغيّرت اسمه إلى شارع الأمم تقديرًا للأمم المتحدة، التي أصدرت قرار تقسيم فلسطين، وجعل حيفا ضمن الدولة العبرية. وعندما اتخذت الأمم المتحدة عام 1974 قرارًا اعتبرت فيه الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، جُنّت إسرائيل، وغيّرت اسم الشارع، ليصبح شارع الصهيونية. وبعد انتهاء الحرب الباردة، وسقوط المعسكر الشرقي، غيّرت الأمم المتحدة رأيها، وألغت القرار، لكنّ إسرائيل لم تغيّر موقفها الرسمي من الشارع، الذي ظل معروفًا لدى من بقي من عرب حيفا بشارع الجبل.

عندما وصلت منزل بهيجة طرقت الباب، ففتحته ثم قالت متفاجئة:

– انتظرت أن تأتي من جهة البحر، فأتيت من جهة الجبل.

أخبرتني أنها وقفت تطل عبر النافذة المشرعة جهة البحر، تنتظرني، وأخبرتها بأنني بتّ ليلتي على جبل الكرمل، وغفوت بعدما تعبت عيناي وهما تنظران إلى بحر حيفا، ولا تشبعان.

بدأ اللقاء ترحيبيًا تقليديًا، ضغطت على يدي بفرح طفولي، ثمّ استأذنت لتبديل ملابسها، كانت الغرف المفضية إلى غرفة المعيشة التي جلسنا فيها مغلقة، وشعرت كأنها تحبس الآخرين من سكان البيت، فيها، لسرقة لحظات حميمة. ذهبت إلى المطبخ الملحق بغرفة المعيشة، وتوارت خلف عمود وأخذت بتبديل ثيابها، وهي تنظر إليّ، من خلف العمود، ثمّ تتوارى، وتكرّر ذلك وهي تضحك، ثمّ جاءت وهي ترتدي قميصًا وتنّورة قصيرة، ورمت نفسها على المقعد بجانبي، وخلال جلوسها، سحبت جزءًا من التنّورة إلى الأعلى، قبل أن يحط جسمها على الكرسي، ثمّ أمسكت يدي اليمنى ونقلتها إلى فخذيها.

وفجأة، وكأنها تذكرت شيئًا، أرتني معصمها المحمر، وقالت لي بحزن، إن إياد، وهو صديقي الشاعر الشاب، أمسكها من معصمها، وضغط أكثر من اللازم وهو يحاول تقبيلها، وهي تمانع، ولم يأخذ على محمل الجدّ كلامها بأنها مصابة بمرض القلب، وتأخذ أدوية لتمييع الدم، ولا يجوز الضغط على أيّ جزء من جسمها. وفجأة أيضًا، أخذت يدي، وأدخلتها إلى مكانها المحبّب، ثمّ همست: امممممممممم، وقالت لي إنّ عليّ أن أكون فرحًا، لأنني صاحب اليد الوحيدة، من بين عشاقها الأدباء وغير الأدباء، الذي مَكّنته من الوصول إلى أماكن لم تسمح لغيري بتحسّسها.

قلت لها إنني أعتقد أن ما يحدث بيننا هو غير صحيح أبدًا، فألقت عليّ موعظة حول الصحيح وغير الصحيح، ومواقف الأقدار وتدابيرها، وضعف الإنسان، وخيباته، وشكت لي افتتان الرجال العرب واليهود في حيفا، بالروسيات المهاجرات من الاتحاد السوفياتي السابق، اللواتي أصبحن حديث المدينة، وسألتني مَن هو الأجمل الجسد الأبيض، كجسدها، أم أجساد الروسيات، فاحترت في الإجابة، لأن للروسيات أيضًا أجسادًا بيضاء على حدّ علمي.

غيّرت الحديث بنفسها، وهو ما أسعدها وأسعدني أيضًا. ثم نهضت لتعود بعد قليل، ومعها مغلف بلاستيكي، فتحته وفردت ورقة أخذت تقرأ منها عن حافظ السعيد، الذي ورد اسمه مرارًا في محادثاتنا الهاتفية وأخبرتني أنه كان صديقًا لجدّها، وكان يحلو لبهيجة كثيرًا الحديث عن رجالات عائلتها الباشوات القدماء، وأصدقائهم.

«حافظ السعيد (1841-1915) تقاذفته صروف الدهر من حلّه لخلافات الطوائف في بيت لحم، إلى تعيينه في وكالة قائمقامية يافا بعد ثورة عرابي باشا في مصر، لحزمه وشدّته، ثمّ أصبح رئيسًا لبلدية يافا، ومنحه الإمبراطور غليوم وسام النسر الأحمر، ومنحته الدولة العثمانية الرتبة الثانية المتمايزة، وأصبح عام 1908 نائبًا في مجلس المبعوثان، حيث طالب في البرلمان بجعل اللغة العربية لغة رسمية، وأصبح له نشاط إصلاحي عروبي، وأصبح معتمدًا لحزب اللامركزية الإدارية في يافا، وهو الحزب الذي طالب بحكم يحفظ للعرب حقوقهم، فأمر جمال باشا السفاح باعتقاله، وصدر عليه الحكم بالإعدام، ولكنّه تُوفي في السجن عام 1915، بعد إعدام القافلة الأولى من رفاقه أحرار العرب، ودُفن سرًا في مكان مجهول».

أشارت بهيجة إلى مفارقات حياة حافظ السعيد، من إخلاصه للدولة العثمانية، إلى دوره في حلّ خلافات الطوائف في بيت لحم، واستقبال الإمبراطور الألماني، ثمّ تبنّيه للقومية العربية ونهايته المأساوية.

قلت لها:

– إنها لوثة بيت لحم... لوثة الدهيشة مَن تصيبه ينتظره مصير دراماتيكي...!

ضحكت:

– يبدو أنني أُصبت بهذه اللوثة بعدما عرفتك...!

ضحكت أنا:

– أنت مجنونة قبل أن أعرفك...!

قالت:

– لديّ مفاجأة لك...!

نهضت وعادت وهي تحمل دفترًا قديمًا اصفرّت أوراقه، وأخذت تقرأ من مذكّرات نجيب شاهين من ترشيحا، عن حيفا عندما وصلها الإمبراطور غليوم: «في ثلاثة وعشرين تشرين أول سنة (1898) يوم الاحد العصر توجهنا الى مدينة حيفا نحن (نجيب حنا شاهين) وتوفيق جبران النحاس من أهالي حيفا وجريس ابن الياس اندراوس. دخلنا على حيفا الساعه ستة بالليل فضفنا

الخواجة عيسى البستي وثاني يوم الاثنين صباحا خرجنا ندور ونتفرج من مكان الى مكان حتى حارت الكولني اي البروسيانية فوجدناها مزينه بالبنادير الالمانيه ونحن واقفين عند دار الخواجة كلر واذ بعرابانة الملك مارقه قدامنا. وقفت فوجدنا عليها اربعة روس خيل حمر منهم اثنين حصنه واثنين اناثي وطول الواحد والواحد منهم اربع امتوره وعلوه بمديده الرجل الطويل ليلحق ضهره وعليها عربانة سودة من لمع وعليها مية ذهب ودواليبها من جوز، وبعده روحنا على البلد فأخبرنا احد العسكر الذين يدقوا على الموزكه العثمانيه انه هاذه الليله الموزكة تدق بدار سليم افندي الخوري. عند الغروب طلعنا لدار سليم افندي الخوري وصارت الموزكة تدق فسالنا احد العسكر الشهاني لماذا تدق الموزكة هنا قال انه موجود هنا والي بيروت ووالي الشام ووالي حلب وباشة جبل لبنان نعوم باشا والبندر الاعظم فتفرجنا. وبعده رجعنا لدار عيسى البستي ونمنا تلك الليله فقمنا صباح الثلاثه ومرينا بسوق حيفا وصرنا ننضر عالم لم شفناها في كل عصرنا وكان من الجمله قيمة خمسون بوليص لابسين اواعي فلاحين ومتخفيين ودايرين يفتشوا على الاشقيا الاجانب وما وجدوا احد ولاكن كلما وجدوا انسان فاتح سيرة الامبراطور بكلام غير طيب يضعوه بالسجن وبعده خبرونا اهالي حيفا انه موجود قيمة مايتين عربانه من القدس ويافا فذهبنا لاجل نتفرج عليهما فتفرجنا عليهما وتفرجنا على طبور الملك الخاص اي طبور ملكنا العثماني وتفرجنا على خمس ماية عسكري رماحه راكبين الخيل الزرق واحاملين الرايات العثمانيه وبعده عند العصر اتينا على البسط وجدناه مزين بالدباج وغصون الشجر. وبينما قاعدين واذا بابور عثماني لفا هو ومعه اربعة بوابير وفي الساعة عشره ونصف نهار الثلاثه لفا بابور وله ثلاثة دواخين ابيض وفي نصفه قبة جرس وذالك الجرس بديع الصوت فضرب ذالك القابور واحد وعشرين مدفع فقلنا انه «هانص ليس» هو الأبابور الامبراطور وصارت الامم تقول «هانص ليس» هو بابور الملك وبينما نحن بذالك الحديس واذا الموزكة ضربت على البسط فضربت البيرزانات فهجمت الخيل ونحن واقفين واذا عرابانه الملك مرت من قدامنا غايره على ما تجيب ومعها قيمة عشرون عربانه وتلك العربنات غايرة على ما تجيب حتى

خرجت من حيفا طالعا الى جبل الكرمل لدار الست وكان وصول الامبراطور لدار الست عند الغروب .رجعنا على السوق تعشينا ورجعنا حالا الى البسط فاخبرونا الحاضرين ان الملك الان اتي ونزل الى القابور وكان وصوله للقابور عند العشي ثما صارت الموزكات تدق عند العشي فقالوا لنا الجميع انه الان قاعد الملك يتعشى ثما كنت ترا حيفا كلها منوره بالقناديل والسواريخ وخصوصا دار سليم الخوري كنت تراها انها مضويه وخصوصا دور الالمانيه اي البروسيانيه وخصوصا دار فواد افندي سعد قد استاجر دار بعشرين ليره حتى زينها وكنا نسمع الموزكات ثلاثة تدق واحده في قابور الامبراطور والثاني في قابور عثماني والثالثه في البر يدقوا عليها العسكر الخاص. فيا لها من ليلة عظيمة كنت ترا السواريخ من البوابير ومن اهالي حيفا شبه المطر الذي ينزل على الارض، فيا له من محفل ملوكي كنا نرا الاضويه ملونه احمر واخضر وازرق واصفر ثما بقينا نتفرج تلك الليلة حتى للساعه خمسه اي ليلة الاربعا رجعنا نمنا بدار الخواجه عيسى البستي وعند فجر النهار ذهبنا حالا الى تحت الخضر وكان معنا فهد ابن عمنا بطرس وتوفيق نحاس وجريس اندراوس ولطف مجدلاني حينأزٍ قعدنا هناك ننتظر، الساعه واحده من الشمس خرج جلالة الامبراطور من القابور البسط لدار قنصل الخواجه كلر وعند خروجه من القابور للبسط كنا نرا ظرب المدافع مثل الرعد القاصف ولا احد ينظر البحر من كثرت دخان البارود وعند وصوله لدار كلر وصحبة الامبراطور صارت مزيكة الالمانيه تدق ومزيكة العثمانية ثما استقام قيمة ربع ساعه عند الخواجه كلر وبعده توجه لدير الراهبات الالمانيه عند حضوره لعنده صارت الاجراس تدق فعندما زار الراهبات وخرج ركب في العربانه فصارت الموزكه تدق على الصفين وقبل ما وصل الينا اني شاهدت يحيى بك قدامه الذي ـــــ باشه في عكا وصحبته عشرون خيال جند رما ثما مر من قدامنا عشر كارات حاملين خيام الملك وعفشه ما عدا الذي من بعد منه ثما مرت من قدامنا عرابانه راكبين فيها الولايات فنظرنا واذا غبار مله ذلك السهل رويدا رويدا واذا بعرابانه الامبراطور قد اتت من قدامنا والامبراطور قاعد على اليمين والامبراطورة من جهت الشمال فصارت الامبراطوره تضحك على لباسين (اللابسين) العقالات وصارت

تومي لزوجها علينا ويضحكوا وحوله ادهم باشا مرسل من لدن مولانا العثماني حارسا على الامبراطور ومعه شاكر باشا من جهت الشمال واذا بعسكر الخاص قد اتى غيرا صفين وحاملين بايدهم الشلفات وراكبين على الخيل الزرق وبعده قد اتت عشر عربنات مركبين اعيان دولة المانيه وايضا ـــــ ساعه ونصف والعربنات تمر من قدامنا ثم رجعنا على حيفا وروحنا، فيا قلة سعد الذي ما حضر ـــــ وهاكنو صار وهاكنو نضرنا نرجو من وجد غلط يصحه (يصححه) واللّه يرينا الافراح مدا الزمان والاتراح». تخلّلت القراءة ضحكاتنا وتعليقاتنا على لغة نجيب شاهين، قلت لها:

– ربما لن يفهم كثيرون لغة نجيب شاهين، عمومًا سآخذ بنصيحتك وأنشرها كما هي، على الأقل إنها تعطي فكرة عن لغة ذلك العصر وأسلوبه.

قالت ضاحكة:

– على فكرة، هل تعرف أن ناسنا كانوا ينادون غليوم (أبو غليون)...!

بعد نحو ساعتين، قلت لها، إنني أريد النزول إلى البحر، ودّعتني واتفقنا على أن نتحادث هاتفيًا، كالمعتاد.

على شاطئ البحر، رأيت الروسيات اللواتي حدّثتني عنهن بهيجة. بدَوْن متحرّرات جدًا، بألبسة البحر، بالنسبة لنظيراتهن اليهوديات، وكثيرات منهنَّ، تجمّعن في حلقات بدت عائلية، وكثيرات منهنَّ أيضًا، اضطجعن على الرمال، وكل منهنَّ تحمل كتابًا، وتقرأ، غير آبهة لنهم عيون بعض الشباب اليهود، الذين بدأوا بإثارة جلبة لجذب انتباه جنّيات البحر الروسيات.

نظرتُ حولي، وشعرت بالغربة وأنا أخلع ملابسي، وأنزل إلى البحر، حتّى تقدم إليّ سابح آخر، رأيته يسبح بجانب بعض الفتيات، عرّفني إلى نفسه: جاد أبو عفرة. كان جاد قد أصدر في مدينته جنين صحيفة باسم «البلد» أغلقتها السلطة الفلسطينية في أيلول 1996، بعد شهر من صدورها، وأصبحت، لفترة، إحدى قضايا انتهاك حرية الرأي في ظل السلطة الفلسطينية.

قال لي إنه يأتي من جنين إلى حيفا، كلما سنحت له الفرصة، ليسبح ويتمتع، وبدا فرحًا بطريقة غير عاديّة، ومتصالحًا مع نفسه إلى حد كبير، بعيدًا عن الظلم الذي تعرّض له في مدينته.

روى لي بينما كان يرنو إلى أفق البحر المتوسّط كيف اصطدم مع السلطة، الأمر الذي أدّى إلى إغلاق جريدته، واعتقاله، فترك الصحافة وقرّر أن لا يعود إليها ثانية.

ولم يعجب السلطة أنه كتب في صحيفته، أن مذاق السجائر التي تستوردها إسرائيل من الولايات المتحدة أفضل من مذاق السجائر التي تستوردها السلطة الوطنيّة، وتساؤله لماذا لا يُمَوّل أصحاب اقتراح بناء بيت للرئيس في جنين هذا المشروع بأنفسهم؟ وكذلك انتقاده بلدية جنين على قرارها بناء طرق جديدة بدل تصليح القديم منها، وانتقاده الاتحاد العام للنقابات.

واتهم المدّعي العام، أبا عفرة، بالجنون، ومع ذلك أغلق صحيفته واعتقله، رغم أن المجانين يجب إرسالهم إلى دير المجانين في الدهيشة، ثم جدّد المدّعي اعتقاله، لأنه كتب على باب غرفة السجن، المليء بكتابات السجناء، اسم صحيفته، واتهمه بإتلاف الممتلكات العامة.

سألني جاد عن أخباري، وعن سبب وجودي في حيفا، فقلت له إنني أشعر بغضب وقرف من نفسي لأنني أشك في أنني أستغلّ امرأة مريضة ومجنونة. ولكنه طمأنني بطريقة فلسفية، جعلني فيها أنا الضحية.

تحدّثنا كثيرًا، ونحن في البحر، نلعب بالماء، وسألت جاد عن الأجواء المخيّمة على الشاطئ، وعن حرية التحرّك بالنسبة لأمثالنا من العرب، ثمّ تركني وأسرع نحو حورية بحر روسية مبتعدًا عن الشاطئ.

كان ذلك لقائي الأوّل والأخير مع جاد، الذي عاد إلى الصحافة، مع انتفاضة الأقصى التي لم نكن ندري يوم التقيته أنها على الأبواب، والتي كتبت نهاية حكايته بطريقة مأساوية، أمّا بهيجة فرأيتها مرّة أخرى.. وأخيرة.

مجانين وعبيد

هناك فئة خامسة من مجانين الدير، تضم مجانينَ يعملون خارج الدير، مقابل أجور بخسة، وأحيانًا بخسة لدرجة لا تعود تصلح أن تُسمّى أجورًا، إذ تكون عبارة عن بضع سجائر، من نوع «عُمَر» المخصّص للسجناء، وهو نوع رديء من السجائر كانت تنتجه شركة سجائر القدس بدون فلتر، وبسعر بخس، لا يضاهيه في الدونية في عالم السجائر سوى نوع إسرائيليّ كنّا نسمّيه «الخنتريش»، وهو بدون فلتر أيضًا.. وبجزء من الأموال القليلة التي كانت إدارة السجون الإسرائيليّة تسمح لأهالي الأسرى بوضعها شهريًا في حسابهم (تُسمى الكنتينا)، كان الأسرى يشترون سجائر عُمر، وكل سيجارة منه تساوي سيجارتين من الخنتريش في عمليات «التبادل التجاري» بين الأسرى، وكان يصطلح على تسمية الخنتريش سجائر السجناء، أما العُمَر، فكانت تسمّى سجائر المجانين، لأنه تقريبًا، لا أحد من خارج السجن كان يقربها، سوى المجانين.

وكانت إدارة الدير تبرّر عمل المجانين مقابل سجائر عُمَر، بأنه جزء من العلاج. وإن كان العمل فعلاً جزءًا من علاج المجانين، فإنه بالتأكيد ليس ذاك العمل الذي كان يمارسه المجانين العُمّال مثل العبيد، والذي اتخذ طابعًا استغلاليًا واضحًا، في أكثر من مكان، مثل عمل مجموعة كبيرة منهم في مصنع البلاستيك في مدينة بيت ساحور، الذي كان أكبر مصنع من نوعه في فلسطين والأردن، وكان عمّاله من غير المجانين يخوضون دوريًا نضالات

نقابية لتحسين ظروف عملهم، وشروط السلامة، ويطالبون دائمًا بتحسين الظروف الصحية، خصوصًا أن العمل في المواد البلاستيكية يؤثر على صحّتهم، ويظهر ذلك واضحًا على المخضرمين منهم، بالإضافة إلى أنه لم يكن نادرًا أن يفقد عامل إصبعًا أو أكثر أو يدًا أو أيّ جزء من أطرافه أو جسمه، جراء العمل المنهك على الماكينات. وفعلاً، قيل مرّة إن العمل في مثل هذا المصنع لن يقدر عليه فعلاً إلّا المجانين، الذين لا يملكون القدرة على الدفاع عن أنفسهم والمطالبة بحقوقهم، والذين لا يجدون مَن يقف بجانبهم أو ينصرهم حين يتعرّضون لحادث عمل من أيّ نوع.

تساؤلات كثيرة كانت تُطرح حول عمل المجانين في هذا المصنع، عن المقابل المادي، ولمن يذهب، وعن حقوق هؤلاء، وقبل كلّ شيء السؤال عن أخلاقية عمل هؤلاء في هذا المصنع، لساعات طويلة، وضمن الشروط الصعبة وغير الإنسانية.

لم يكن هناك بين المجانين مَن كان قادرًا على رفع الصوت ضدّ تحويلهم إلى عُمّال مأجورين، فتعرّض المجانين في هذا المصنع، مثل العُمّال الآخرين، للإصابات، وبعضهم بُترت أصابع من أيديهم، وآخرون أُصيبوا بمشاكل صحية في الرئتين، بالإضافة إلى تحوّلهم إلى ما يشبه الشخصيات الكاريكاتورية، المستهدفة بالنكات والمزاح، من زملائهم العُمّال غير المجانين، وكان عليهم تحمّل مقالب هؤلاء الزملاء التي في أحيانٍ كثيرة تكون ثقيلة الظل، وأكثر من هذا، كان عليهم تحمّل العبء الأكبر من العمل.

ولم يكن عمل المجانين يقتصر على هذا المصنع، ومشاغل أخرى أصغر، كمصانع خشب الزيتون، ولكن أيضًا، كانوا عُرضة لاستغلال من نوعٍ أخر، فأيّ تمرجي أو طبيب يعمل في الدير، ويحتاج إلى عُمّال لمصلحةٍ شخصيّة، كالعمل في بناء منزل جديد، أو تنظيف حديقة، أو حفر جورة امتصاصية للمياه العادمة، أو أيّ شيء أخر، كان بإمكانه جلب عدد من المجانين من الدير لينفّذوا هذا العمل، مقابل منحهم سجائر، أو وجبة طعام رخيصة.

بعض التمرجية والأطباء أكملوا بناء منازلهم من خلال استعباد المجانين، الذين لم يعانوا فقط من عملهم بدون أجر، ولكن أيضًا من الإهانات،

فقد كانوا عرضة لإشكالات يحدثها المراهقون والأولاد الذين يتجمّعون حول العُمّال المجانين، ويبدأون بالسخرية منهم، وإيذائهم بطرق شتّى، وفي إحدى المرات، اخترع أحد التمرجية طريقة مبتكرة للسخرية من المجانين ومراقبتهم وحثّهم على العمل، فحمل ثُقّافة (مقلاع، شعبة) وجلس قبالتهم وهم يعملون، يرمي عليهم الحجارة، التي تصيب ظهورهم ومؤخراتهم، ولا يكف عن الضحك.

ولا يقدم على عمل مثل هذا إلّا مجنون. ترسّخ الاعتقاد لدينا بفكرة أن من يعمل في الدير من تمرجية وأطبّاء وموظفين، يتأثّر بالمجانين إلى درجة لا تُصدق، وبعد فترة ينعكس ذلك لا على تصرفاتهم فقط ولكن أيضًا على شكلهم ولباسهم، وفي مرّات كثيرة لا يمكن تمييزهم عن المجانين الذين يُفترض أنّهم يعالجونهم.

وانتشرت بيننا طرفة. كنّا نزعم أن الذي يعمل في الدير لا تُقبل شهادته في المحاكم إذا أمضى في عمله خمس سنوات، لأنّ القضاء يأخذ بالاعتبار تأثره بالمجانين، وكُنّا نقول عن شخص ما، نرى سرعة تغيّره، إنه أبدى تفوّقًا ونجاحًا، فحصّل السنوات الخمس بسنتين أو ثلاث ليصبح مثل المجانين.

كلّ ما كان يتعرّض له المجانين من استعباد، كان يتم في غياب أيّ موقف من عالم العقلاء. ثمّ حدث مرّة أن نشرت صحيفة «الحقيقة» اليسارية التي كانت تصدر في القدس، وحظرت إسرائيل توزيعها في الضفة وغزة، تحقيقًا عن وضع هؤلاء، في بداية ثمانينيات القرن العشرين، فرفع العرّاب، مدير المستشفى، قضية عليها، في المحكمة المركزية بالقدس، ولم يكن يخفى على أحد أن حركاته تجعل كلّ مَن لا يعرف هويّته يعتقد أنه مجنون.

ترافع في القضية ممثلاً عن الصحيفة، المحامي الياس خوري، الذي أصابه نحس مجانين الدهيشة، وكأنه قدر لا طائل من التخفيف منه أو ردّه، وانتهت القضية في المحاكم بتدخل شخصيات وطنية، ولكنها لم تنتهِ على أرض الواقع، واستمرّ استعباد المجانين.

أمّا على الجانب الآخر، في صحيفة «الحقيقة»، فالغرور لم يكن ينقص رئيس تحريرها، وهو أيضًا الشخصية الدكتاتورية الأولى في الحزب

اليساري شبه السرّي الذي كان يصدرها. ويمكن تصوّر ماذا ينتج مزيج الغرور والدكتاتورية واحتكار الحقيقة... لا شيء سوى الجنون.

أحد كُتّاب «الحقيقة»، الذي كان مُنظّرًا يساريًا مخلصًا ومتشدّدًا، دفع ثمن الجنون، جنون محسوبية الأمين العام والصحافي العام والأديب العام والمتغزّل العام، فتغيّر فجأة، وأصبح هائمًا على وجهه، وقيل إنه أُصيب بانفصام في الشخصية، ولأنني عرفته قبل جنونه وبعده، أستطيع القول إنّ ما حدث له صعب التصديق، وخصوصًا أنه حدث بنحو مفاجئ، ولكنّ القهر، حتّى بصيغته اليسارية، يؤدّي إلى الجنون.

أمّا بالنسبة للمحامي الياس خوري، الذي نشأ في عائلة قومية من تلك الأقلية العربية التي صمدت في أرضها عام 1948، وناهضت السياسات الإسرائيليّة المتعاقبة، فقد دفع ثمن جنون من نوعٍ آخر هو جنون الجغرافيا. لقد جرّب خوري الأوضاع المجنونة في الأرض المقدّسة، وحماقة التدابير، وعماء الأقدار، فوالده المحسوب على التيّار القومي العربيّ، قضى صباح الجمعة 1975/7/5، عندما فجّرت حركة فتح ثلّاجة في القدس الغربية، واعتبر الأمر، بعد استيعاب الصدمة، أن قدره هو ما قاده إلى المكان والوقت غير المناسبين.

عُرفت العملية في الأدبيات الفلسطينية باسم «عملية الثلاجة» وبأن قائدها هو «أبو السكر» الذي أمضى 27 عامًا في السجون الإسرائيليّة، وبأنها أدّت إلى قتل 12 إسرائيليًا، ولا أحد يذكر أنّ عربيًا قُتل أيضًا هو والد خوري.

القدر المجنون، تكرّر مرّة أخرى مع الياس خوري، بشكل مؤلم وصادم، في شهر آذار 2004، خلال انتفاضة الأقصى، عندما كان ابنه جورج (21 عامًا) طالب الاقتصاد في الجامعة العبرية، يمارس هواية الركض في حيّ التلة الفرنسية على طريق القدس-رام الله، في موقع قريب من خطوط الهدنة قبل الاحتلال عام 1967، شهد معركة بين جيش الاحتلال وجنود من الجيش الأردني رفضوا الانسحاب وقاوموا حتّى النهاية وما زال مصيرهم مجهولاً وفي عداد المفقودين، فأطلقت عليه مجموعة من حركة فتح، مرّت بسيّارة مسرعة، النار، ظنًا منها أنه إسرائيليّ، فأصيب بأربع رصاصات أودت بحياته.

وفور وقوع العملية، أصدرت كتائب شهداء الأقصى الفتحاوية بيانًا، أعلنت فيها مسؤوليتها عن العملية بكثيرٍ من الفخر، ولكنها اضطُرّت في اليوم الثاني، بعدما عُرفت هوية الشخص، إلى تقديم اعتذار له، والتعازي لعائلة خوري، واعتبار جورج «شهيدًا مثل مئات الفلسطينيين الذين قتلتهم قوات الاحتلال الإسرائيليّ».

ولكن هذا لم يعنِ شيئًا لإلياس خوري، الذي وصف ما رأى بالجنون المنفلت من عقاله، وهو الذي دفع مرّتين ثمن الارتجال وعدم التخطيط الفلسطينيَّين، وسوء الحظ، وأقدار فلسطين العمياء.

ولم يرُق إلياس خوري إعلان الختيار أن جورج شهيدٌ، ولا بطاقة التعزية التي أرسلها له مع أحد رُسله. علق إلياس خوري: «لا شيء يبعث على الارتياح. لن يعود جورج إلى الحياة. انقلبت حياتنا رأسًا على عقب بين عشيّة وضحاها، ولن تعود كما كانت مرّة أخرى».

كان الأمر محزنًا جدًا لإلياس خوري وآخرين مثل صديقه عزمي بشارة، شاركوا في تشييع ابنه في مقبرة مسيحيّة على جبل صهيون. هل هناك تفسير لما حدث له سوى نظرية الجنون؟ جنون صغير، وهذه المرّة كان جنونًا طاغيًا، في بلادٍ أصبح الموت فيها عاديًّا... أهناك جنون أكثر من جنون الموت الذي لا معنى له؟

في بلادنا، عندما يُقتل جورج، يصبح شهيدًا من وجهة نظر قاتليه، ولو كان القتيل واحدًا آخر، لعُدّ ذلك نصرًا واختراقًا. يا للصدف العمياء التي تحدّد مفردات موتنا.

وعبّر الياس خوري عن غضبه، بعد سنوات، بتمويل ترجمة رواية عاموس عوز «قصة عن الحب والظلام» إلى العربية، التي أثار صدورها بلبلة لدى القرّاء العرب استرعت انتباه وكالات الأنباء العالمية. قدّم خوري للرواية، متحدثًا بمرارة عن ابنه، مكرّسًا الترجمة العربيّة للرواية: «لتخليد ذكرى ولدنا المرحوم جورج خوري». كثيرون لم يفهموا العلاقة بين الابن ورواية عاموس عوز المثيرة للجدل. انتقل الياس خوري من التحزّب للقومية العربية، إلى رغبة في تعريف العرب إلى رواية «القومية اليهودية»، لعله ينجو من صُدَف الأراضي المقدّسة العمياء.

يوسف علّان

من الذين عرفتهم من الفئتين الرابعة والخامسة، يوسف علّان، الذي لم يكن ابنًا لدير المجانين فقط، بل كان أيضًا ابنًا لمخيّمنا، يكبرني بعشر سنوات.

جاء مع أمه وعدد من إخوته، كان هو أكبرهم، إلى المخيّم في فترة متأخرة، بعد الاحتلال الثاني، وأصبحت والدته رفيقة أمي، في جلستها على مصطبة الدار، المجاورة للشارع الرئيس الذي يخترق المخيّم طلوعًا.

على هذه المصطبة، وهي عبارة عن درجتين أو ثلاث، تداولت نساء الحارة مع أمي، حكايات لا تنتهي عن البلاد والعباد والأزواج الخائبين، والأولاد الذين لا يسمعون الكلام والذين توالفوا مع السجون، منذ فترة مبكرة، يدخلون ويخرجون منها، منهم مَن يمضي فترة طويلة، وربما يموت في السجن، ومنهم مَن دخل السجن لأوّل مرّة ولم يبرأ من عدواه، فأخذ يكرّر التجربة مرارًا.

علمتُ أن يوسف كان طالبًا في التوجيهي عندما احتل الجيش الإسرائيليّ الضفة الغربية، وقُبض عليه في الشارع، قرب قبّة راحيل، وتعرّض لضربٍ مبرّح، جعله مجنونًا.

كانت أمه تردّد دائمًا:

– ركزوا ضربهم على رأسه، أرادوه مجنونًا، وكان لهم ذلك، يا حسرتي عليه.

لم يشتهر يوسف بجنونه فقط، بل أيضًا بأدبه الجم، الذي يظهره برغم حالته الرثة، وتجلى ذلك بعدة أشكال من السلوك، مثل تمنّعه عن طلب

السجائر، فهو لم يكن يطلبها من أيّ أحد، خشية من الكسوف، وعندما يطلبها من أحد يعرفه، يسبق ذلك دائمًا عبارة:

– لو سمحت...!

كان دخول يوسف وخروجه من الدير حُرًا إلى حد بعيد، فهو غير مؤذٍ ومسالم، واستنفد العلاج الذي يمكن أن يقدَّم له، ولكنّه بقي مجنونًا، مكانه محفوظ في الدير، ويستطيع أيضًا الذهاب إلى البيت متى شاء، وكثيرًا ما شاهدته، خصوصًا في ليالي الصيف، مارًا من أمام بيتنا، طلوعًا إلى بيت أمه، وعندما يصل سور بيتنا المنخفض، يتوقف ويطلب السجائر، بأدبه الجمّ، بينما يرفض أيّ دعوة لشرب الشاي أو القهوة.

عمل يوسف، الشاب الدائم الابتسام، الدائم التدخين، الذي يسير مائل الرأس، رثّ الثياب، في مصنع البلاستيك، قبل إغلاقه بسبب خلافات العائلة المالكة، وأيضًا كان يستعيره موظفو وتمرجية وأطبّاء الدير، ليعمل لديهم، ويرضونه بأيّ شيء، كبضع سجائر، في مقابل عمله، لكن ذلك لم يؤثّر على ما سمّاها استقلاليته، كما أسرّ لي لاحقًا، بعدما توثقت علاقتنا، وأصبحنا صديقين، وهو ما أشعل لديّ شرارة الشغف لأكتب هذا العمل بعدما أطلعني على أوراق العبد علوي، التي كانت عبارة عن مسوّدات لكتابة شيء عن الدير ومجانينه.

وظهر يوسف معي مرّات كثيرة، وما زلت ألتقيه. أحببت أن أجعل من شخصيته محورًا لروايتي، وشجّعني عمّار الجوري على ذلك، ولكن نزقه الثوري حال دون ذلك، وعندما أفشيت له برغبتي، ارتجّ واهتجّ، متخليًا عن تهذيبه، وقال: «أنا لست إلّا فردًا من وطن المجانين، الأنا ليست من مصطلحاتنا، نحن الواحد في الكل، والكل في الواحد».

ولم يترك لحظة نلتقيها، إلّا أمطرني بما يحفظه من حكايات العرب عن المجانين، ومِلَحهم، وطرائفهم، قال لي: «الجنون أسلوب حياة، ليس كل المجانين مجانين، وليس كلّ العقلاء عقلاء».

باللّه عليك يا يوسف...!

الأسطة

في عام 1984م، رابط أمام مخيّمنا مجنون، كان يهوديًا هذا المرّة، هو الحاخام ليفنغر، أحد رُوّاد الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية. اعتصم في خيمة مطالبًا سلطات الاحتلال باتخاذ إجراءات رادعة لمنع أولاد المخيّم من رشق سيارات المستوطنين التي تسير على شارع القدس-الخليل بالحجارة. وشارك ليفنغر، الذي سبق له أن قتل فلسطينيين في الخليل، في اقتحام المخيّم شاهرًا مسدّسه، مع جنود الاحتلال أو بدونهم، وشكل وجوده الدائم أمام المخيّم محطة للمستوطنين المارين على الشارع، يتوقفون عندها ليشدّوا أزره، ويحيّوه، بإطلاق النار باتجاه المخيّم. كان يتناول النبيذ ويسكبه بينما ترتفع القهقات عاليًا، لتصل إلى ربّ بني إسرائيل في سماواته العليا.

وحين فُرض حظر تجوال طويل على المخيّم، طويل جدًا، استمرّ أشهرًا، كنا نتسلل من الحصار المفروض علينا، باتجاه دير المجانين. وإذا ما نجح أحدنا في قطع جبل أنطون سالمًا من دون القبض عليه، ووصل الدير، يكون حينها في أمان، فلكل منّا واحد أو أكثر يعرفه من التمرجية أو المجانين، يتكفلون بإيوائه في الغابة حول الدير، أو المطبخ، أو أيّ مكان، حتى يتمّ التأكد من سلامة الطريق المؤدية إلى بيت لحم.

وحدثت مفارقات عديدة خلال برطعة ليفنغر أمام المخيّم، منها أنه أصبح صديقًا لمجنون مشهور في المخيّم اسمه الأسطة، وهو مجنون من نوعٍ

خاص، جنونه نابع من إدمانه للخمر، وحبّه للكلام، ولم نكن نعرف عنه الكثير سوى أنه جاء من غزة، وفي وقت لاحق عرفت من خلال تحقيق خاص أنه من بقايا مجموعات كانت تجوب فلسطين، تشرّدت مع النكبة عام 1948، ثمّ مع النكسة عام 1967.

كان الأسطة أحد معالم مخيّم الدهيشة، معروف بكنيته التي تناسبت مع قصر قامته وشعره الكث الأبيض، وعينيه الحمراوين دومًا، لذا لم يسأل أحدٌ عن اسمه الحقيقي، حين أتى إلى المخيّم ذات يوم، ليعيش في نهاره وليله ، وقد عمل فيه الشراب عمله.

تذكره أجيال مخيّمية متتالية، وقد تعتعه الشراب، يقف في مدخل المخيّم، يجهر بحبّه لبلاده وحقده على سلاطين العرب، ويتذكر، في وقفته، رفقته في سجون الستينيات الأردنية مع البعثيين، والقوميين، والشيوعيين، ويأخذ في سرد وترديد تفصيلات ذلك من أحداث وأسماء تحكي جزءًا من تاريخ الفلسطينيين الوطني، ويُعرّج خلال ذلك على كثير من الممنوعات، ففي النهاية ليس على السكران حرج...!

وأثناء ما كان ليفنغر مُبرطعًا أمام المخيّم، سرت شائعات عن اختفاء الأسطة، وصودف بعد مرور خمسة أيّام من التفتيش، أن رُفع الحظر لعدة ساعات، ليتمكن النّاس من شراء حاجياتهم الضرورية، ففوجئ الجميع بصور الأسطة وليفنغر تتصدّر الصفحات الأولى من الصحف العبرية التي وجدها أحد الأولاد بالقرب من خيمة ليفنغر، وحين قرأ المترجمون ما يفيد بأن الأسطة سيبيع بيته للحاخام، غضب الجميع على ابن مخيّمهم، وذهبوا إلى بيته، ليقول لهم: عملتم هيصة وزيطة وأفسدتم مخطّطي، وروى لهم كيف أسكر الحاخام، لمدة خمسة أيّام، وجعله طَوعَ يديه، ملمّحًا إلى نواياه ضدّ ليفنغر.

ونشرت صحيفة عبرية ما اعتبرته سبقًا صحافيًا على صدر صفحتها الأولى، صورة مكبّرة لليفنغر يعانق الأسطة، والاثنان يضحكان، والتفاصيل، أن أحد سكان مخيّم الدهيشة وافق على بيع منزله للحاخام القاتل الغريب الأطوار.

لم يأخذ أهالي المخيّم الأمرَ على محمل الجد، لأنّهم وإن كانوا يعرفون تطرّف ليفنغر المنفلت والمجنون، فإنّهم أيضًا يدركون أن المسألة بالنسبة للأسطة لن تكون أكثر من مزحة، جاءت في وقت سكر.

وكانت مفاجأة الأسطة قبل الأخيرة، وما أكثر مفاجآته، هي خبر موته، وكأنّ الجميع لم يتوقعوا أن يموت أحد الذين يلوّنون لوحة الحياة ويكسرون رتابة اليومي فيها...!

نهار موته، ذهب الأسطة إلى مقر الحكم العسكري الإسرائيليّ، ليستصدر تصريحًا لابنته لتلحق بزوجها وبيتها في غزة، وحين فشل، لم يقصّر في حق جنود الاحتلال، وفرّج عليهم خلق اللّه، ثم عاد إلى البيت ليعبّ المزيد من الشراب، الذي لم يفارقه أبدًا، حتّى فقع ومات.

أما مفاجأة الأسطة الأخيرة، فكانت أنه جعلنا نعيش ونرى مَن يعطي لنفسه الحق في تصنيف النّاس ومحاسبة القلوب، فخرج من دنيانا الفانية إلى الرفيق الأعلى دون أن يُصلّى عليه في مسجد المخيّم الذي عاش ومات فيه، لأن بعض الشيوخ حاسبوه في الدنيا التي سيحاسب كلّ مَن دبّ عليها الحسيب جلّ وعلا.

مريم العِسْلينيّة حضرت في تلك الأوقات. خرجت من دير المجانين، وتغيّر شكلها قليلاً، ففيما احتفظت بثوبها التقليدي، فإنها غيّرت قليلاً في لباس الرأس، الذي تحوّل إلى ما يشبه العصبة يكشف عن شعر رأسها الأبيض، وكانت مهمّتها التي وضعتها لنفسها هي التصدّي لليفنغر عندما يقتحم المخيّم ملاحقًا الأطفال الذين يرشقونه بالحجارة ويهربون، فتهرع إليه غير آبهة بمسدّسه المشرع، وتُخلّص الأطفال منه.

قرين الختيار

في عامي 1993 و1994، عشيّة تأسيس السلطة الفلسطينية، نشطت في الضفة الغربية حركة غير عاديّة، استمدّت ديناميتها من أجواء مفاوضات السلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير، التي نتج عنها اتفاق أوسلو، ولم يكن أحد يعرف كيف سيتم تطبيق الاتفاق على الأرض، ولكن وُجدت تصوّرات وآمال لدى كثيرين، من بينهم حمدان أبو جمرا، وهو رجل أعمال فلسطينيّ، مشهور بزواجه بفنانات مصريات، إحداهن كانت نجمة فرقة غنائية اشتهرت بتقديم أغانٍ قديمة أصابها الأفول، بإيقاعات حديثة. بين الفترة والأخرى، كان أبو جمرا يكتب مقالات سياسيّة، وشاع أنه يعمل لمصلحة استخبارات دولة عربية كبيرة، وربما كان هو وراء تلك الإشاعة، لأنه أراد أن يُقدّم نفسه كرجل لتلك الاستخبارات، ظانًّا أن ذلك يُكسبه مَهابة ما، أو قوّة معيّنة. ثمّ فكر بتأسيس صحيفة، طامحًا أن تصبح الصحيفة الأولى المعبّرة عن الواقع الفلسطيني الجديد، بعد أوسلو، وقاده حظه العاثر إلى مشاركة الصحافي رجائي الفوّال، في الصحيفة الأسبوعية المتعثّرة التي يصدرها الأخير، والتي كانت تعتمد على المعونات التي تُقدّمها هذه الجهة أو تلك، حسب الظروف السياسيّة، وتغيير الولاءات وتعدّدها، ومن هذه الجهات الختيار، البارع في توزيع منحه على المؤسسات الصحافية التي تأسست في الأراضي المحتلة.

اشتهر رجائي الفوّال، بأنه أكثر الصحافيين الفلسطينيين مراوغة، ولكنّه لم يكن يخلو أبدًا من ظرف وطرافة، وقُدرة على نسج العلاقات، واستخدامها في الوقت المناسب، وعُرف بقدرته على تأليف عدد الصحيفة الأسبوعي، من الأخبار إلى الأعمدة التي يوقّعها باسمه وأسماء أبنائه وزوجته، وبأسماء أخرى حين يحتاج الأمر إلى ذلك، ولم يكن يخلو أي عدد من سَبق صحافيّ أو انفراد أو ما شابه، وفق ما يجترحه الفوّال. والغريب أنه في أحيانٍ كثيرة، كانت جهات إعلامية عربية تبدي اهتمامًا بما اختلقه الفوّال، إذا كان يناسب توجّهًا مُعيّنًا لدى دُولها، فتبرزه وكأنه حقيقة. أما بالنسبة للفوّال، فكان ذلك يعني أن الطُعم الذي وضعه في صنّارته وجَدَ مَن يبتلعه، فيسحب الصنّارة، ويبدأ، على طريقته، بنسج خيوط مع تلك الجهة، وغالبًا ما كان الأمر ينجح معه، فيتلقى «المعلوم» من المال، ما مكّن صحيفته من الاستمرار بالصدور، والصرف على شؤونه الشخصية. ولم يكن الفوّال يكتفي بدور الصحافيّ، ووُصف في أحيانٍ كثيرة بأنه من «الشخصيات الوطنيّة»، ولطالما تفاخر أمام جلسائه، بأنه أدّى دورًا في مدّ الجسور بين الختيار، الذي كان قد وقف مع صدّام حسين، خلال حرب الخليج الثانية، والدول العربية، بعد انتهاء الحرب، التي قضت بطرد صدّام من الكويت، ومحاصرته، وكذلك محاصرة الختيار ماليًّا وسياسيًّا.

ولم يكن الفوّال يخجل من تقلّبات أحواله، من استقبال مسؤولين كبار له، في دول زارها، وعودته إلى مكتبه في القدس ليحدّث جلساءه مفتخرًا، عن أدوارٍ سياسيّة يضطلع بها حقيقة أو وهمًا، وبين تصاغره لأيّ واحد لديه الاستعداد لأن يدفع مالاً مقابل نشر خبرٍ ما، غالبًا ما يكون مُختلقًا، في صحيفته.

وقد شهدت مرة على صفقة عُقدت بين الفوّال وزعيم حزب تأسّس بعد أوسلو، بدعم من الختيار. يومها، طلب مني الزعيم اليساري العائد لتوّه من الخارج أن أظل جالسًا في مكتبه، عندما دخل الفوّال، وبدأ الزعيم يوبّخه لأنه لم ينشر أخبار الحزب، رغم أنه يدفع له عن كلّ خبر ينشره، فنفى الفوّال ذلك، وأخذ بفرد أعداد من صحيفته على الطاولة، مشيرًا إلى عناوين معينّة ليثبت أنه نشر ما وصله من الزعيم، وفي النهاية لم يخرج من المكتب إلا بعدما تسلّم مغلفًا مغلقًا، من الزعيم، يحوي مبلغًا ماليًا، إثر اتفاق الاثنين شفهيًا على صفقة

الدفع مقابل النشر، التي يستفيد منها الاثنان، فالزعيم يريد أن يُظهر للختيار أن حزبه قد نشط، عبر تقديم قصاصات من الصحيفة تحوي نشاطاته، أما الفوّال، فيقبض من الزعيم وأيضًا من الختيار. والعجيب أن الزعيم الذي أصبح وزيرًا أكثر من مرّة، تحوّل إلى مجال يفوق الطموح الوزاري أهمية، فأسّس منظمة غير حكومية مدعومة بالأموال الأوروبية والأميركية، تنشط ضدّ الفساد والمحسوبية، وتقدّم جوائز سنوية لكل مَن يكشف فسادًا، وهو ما جعل الفوّال في إحدى الجلسات، في لحظات تجلٍّ، يضحك قائلاً:

– سأتقدّم إلى جائزة الزعيم، وأنا على ثقة بأنني سأكسبها، لأنني سأفضح فساده، وتقديمه الرشى لي لأنشر أخباره...!

كان الزعيم يحثّ الخطى مع أوسلو، في سياق مُعيّن، أمّا الفوّال، فكان يكرّر لعبته، وهذه المرّة مع حمدان أبو جمرا. ووفقًا للشراكة الجديدة بين الاثنين، تمّ شراء مطبعة، والاتفاق على تطوير الصحيفة، ورُشح عمّار الجوري، مع آخرين، لكتابة تحقيقات وتقارير، مع تأكيدات، من الفوّال، بأن سقف الحريّة سيكون مرتفعًا، ومع آمال بأن الصحيفة تريد أن تُقدّم شيئًا جديدًا ومختلفًا في الصحافة الفلسطينية، حتى إن الفوّال لم يتورّع عن القول إن الصحيفة الجديدة ستكون فتحًا في فلسطين والعالم العربي، مشيرًا إلى أن تأسيس السلطة الفلسطينية، وعودة الختيار ورفاقه، ستجعل من الأراضي الفلسطينية، كما كانت سابقًا ولكن بشكل أكثر زخمًا، مثار اهتمام الصحافة العالمية والإقليمية، وأن مَن يبدأ مبكرًا بتقديم صحافة مهنية، سيصنع مجدًا.

وما كان يهمّ الجوري، كما روى لي لاحقًا، وزملاءه الذين جرى الاتصال بهم للعمل في صحيفة الفوّال بصيغتها الجديد، هو خشيتهم من عدم تقاضيهم مستحقاتهم عما يكتبونه من مقالات، لمعرفتهم بصديقنا الصحافي الظريف المراوغ، ولكنهم تلقوا تأكيدات بأنه سيُدفع لهم، وعندما لم يصدّقوا قال لهم الفوّال مطمئنًا:

– أبو جمرا سيدفع...!

أعد الجوري عدة تقارير وتحقيقات، وُصفت بالجريئة، بينها ما تناول بلطجة أبناء أحد الوزراء على جارهم الأكاديمي المسالم، ومهاجمة منزله

وهدم أجزاء منه، ووقوف حركة فتح والبلدية وجهات أخرى مع الجار، ورفعهم لتقارير عن تلك البلطجة التي يتعرّض لها، إلى الختيار. وعندما ذهب الجوري لمقابلة الوزير في بيته، أحضر هذا الأخير ملفًا وأراه التقارير المرفوعة ضدّه، والتي حوّلها الختيار إليه مع جملة: «لاتخاذ اللازم». حينها، أدرك الجوري الطريقة التي يعمل بها أوّل رئيس للسلطة الفلسطينية الجديدة، وقائد الثورة الفلسطينية المعاصرة، الذي لم يفكر أبدًا بحسم أيّ خلاف، وإنما كان يلجأ إلى إمساك المزيد من الأوراق على أتباعه وحشرها في ملفاتهم.

أُغلق ملف الأكاديمي، ولم تنصفه المحاكم الفلسطينية، فترك البلاد، ولحق بأشقائه الذين سبقوه في الهجرة، بعدما ظل يقاوم ضغوطهم والإغراءات الكثيرة، حتّى وجد نفسه وحيدًا ذليلاً أمام بلطجة أبناء الوزير الذي كان يحمل الشهادة الابتدائية، وعلى دربه سار أبناؤه، فلم يكملوا تعليمهم، واختاروا طريق البلطجة، مستعينين بجنود حرس الحدود الإسرائيليّ، كما كتب الجوري في صحيفة الفوّال.

لم تثر التقارير من نوع بلطجة أبناء الوزير اهتمامًا كبيرًا، ولم يأخذ مَن كتب الجوري وزملاؤه عنهم من محدثي السلطة الجدد، ما كتبوه على محمل الجد، فبدأ الجوري وزملاؤه يشككون في إمكانية صناعة صحافة جديدة وجريئة ومهنية في ظلّ الواقع الجديد، وقال الفوّال:

– يا إخوان، صحافة كلّ بلد تشبه ناسه، تشبه برلمانه وسلطته وأحزابه وقادته ومثقفيه وصحافيّيه، هذه بضاعتكم رُدّت لكم، أنا جيوبي انتفخت، ويا حسرة على أموال أبو جمرا.

ثمّ بصوت مختلف:

– نريد قضايا ساخنة، تحرّكوا، قبل أن يصحو أبو جمرا، ويوقف الدعم...!

تحرّك الجوري، وجاءت المفاجأة من دير المجانين، ففي يوم مشمس، مرّ بجانب الدير، وعلى بعد نحو 200 متر، وجد يوسف علّان يعمل في أحد المنازل، عملاً شاقًا، ويحضر جبلة باطون من الاسمنت للبناء. ناوله سيجارة، والتقط له عدّة صور، بينما يوسف يلهث من التعب ويضحك ببلاهة (حسب رواية الجوري)، وفهم الجوري منه أن أحد الأطباء جلبه ليعمل في بيته.

أعدّ الجوري تقريرًا عمّا يجري داخل الدير، من عنف يُمارَس على المرضى، وقلة الغذاء الذي يتلقونه وسوء نوعيته، وإجبار المرضى على العمل، وليس أيّ عمل ولكن العمل الشاق، ودليله على ذلك يوسف علّان.

قابل العرّاب المخضرم آنذاك، ولكنّه لم يكن يعرف أن تأثره بالمجانين وصل مراحل لا يمكن شفاؤه منها، كان النّاس يردّدون دائمًا أخبارًا عن جنونه، وأعصابه المنفلتة من عقالها، وكان على الجوري اختبار ذلك.

رفض العرّاب الرد على أسئلة الجوري، وهو يلاحقه ويصرخ بطريقة هستيرية (كما روى الجوري ويوسف علّان)، والجوري يركض أمامه، في الساحة التي توقفت فيها ذات يوم عربة إمبراطور الألمان وزوجته. وهدّده بأنه لن يستطيع أن ينشر شيئًا، ضاربًا بسيف الاحتلال، فإدارة المستشفى كانت آنذاك تتبع للإدارة الإسرائيليّة الاحتلالية في الضفة الغربية.

كان يحلو للجوري رواية القصة مرارًا وهو يضحك: «لو لم أتفهّم حالته، وتحدّيته، لاعتدى عليّ بالضرب. وقد قدّرت كيف يمكن لواحد مثله، وهو بهذه الحالة، أن يتعامل مع مرضى».

نشر الجوري التحقيق بعنوان تقليدي «الداخل مفقود والخارج مولود»، وكانت أكثر من مفاجأة، فقد قُرئ التقرير على نطاق واسع نسبيًا، ويعود السبب إلى أنه من التقارير الصحافية النادرة التي كُتبت عن دير المجانين وما يجري فيه، وكأنه يشبه قلعة مغلقة. واهتمّ بعض المجانين من محبّي القراءة بما نشر، وأوصل الجوري كمّية من النسخ إليهم، بعدما طلب يوسف علّان، الذي ظهرت صورته في التقرير، ذلك، فوفّر له الأعداد التي وزّعها وكأنها مناشير سرّية على زملائه.

ولكن المفاجأة التي أحدثت ضجيجًا أكثر، هي أن العرّاب كلّف محاميًا إسرائيليًا برفع دعوى على الصحيفة مطالبًا بتعويض كبير، مُؤلّف من ستّة أرقام، وعندما تسلّم الفوّال الإشعار من المحامي، اتصل بالجوري ضاحكًا:

– العرّاب صاحبك، يريدنا أن نبيع قرانا في فلسطين لليهود، لكي ندفع له الأموال، ألا يكفيه أنه أصبح ثريًا من استعباده للمجانين؟

كان العرّاب مستقويًا بالإدارة الإسرائيليّة، التي كانت تستعد آنذاك لتسليم قطاع الصحّة للسلطة الفلسطينية الجديدة. اتفق الجوري مع الفوّال

على أن يُحضر ما يلزم من وثائق وشهادات تؤكد ما جاء في التقرير، ومن بينها مسألة إجبار المجانين على العمل الشاق، وكان يوسف علّان جاهزًا لأخذ موقف، ومستعدًا للشهادة في المحكمة إن لزم الأمر، وتجنيد زملاء له لنفس الأمر، إذا قبلت المحكمة شهادات مجانين.

كان يوسف يدرك أن العمل الذي يحتاج إليه وزملاءه من أجل العلاج، لا يعني استعبادهم في عمل شاق مقابل بضع سجائر، وإنما تحرّكهم من أجل قضية يؤمنون بها.

ومن سوء حظ يوسف ورفاقه، أن المحامي الإسرائيليّ، الذي وجد موقف الفوّال صلبًا، واقتنع بجنون العرّاب، قرّر التخلي عن القضية، قبل أن تصل إلى المحاكم.

وبعدما تسلمت السلطة الفلسطينية ملفّ القطاع الصحي، كنت مقتنعًا بأنه أحد أهمّ الملفات التي تجب معالجتها والاهتمام بها، كملف القطاع التعليمي، وأنه يمكن فعلاً تحقيق تقدّم في ذلك، بعد سنوات طويلة من تحكم الاحتلال بالقطاعين، أدّت إلى النقص المروّع في الخدمات الطبية في المشافي، وفي الأبنية المدرسية، وقلة الكادر التدريسي وكفاءته.

ولكنّ تصرّفات رجال السلطة في الملف الصحّي لم تكن مشجعة، وظهرت وقتذاك قضية المستشفى الوحيد المختصّ بأمراض العظام في الأراضي المحتلة، الذي توقف عن العمل، بقرار من الجمعية الأجنبية التي تدعمه. وضعت السلطة يدها على مبنى المستشفى، ورفضت عرضًا من أطبّاء أردنيين بتحويله إلى مستشفى متخصّص في القلب، والسبب اشتراط رجال السلطة النافذين أن تكون لهم نسبة في هذا المشروع الاستثماريّ، وهو ما رفضه الأطباء أصحاب فكرة المشروع، وأثّرت القضية سلبيًا بقوّة على صورة السلطة لدى الرأي العام، وكانت سياسة الختيار هي تسجيل نسبة من أسهم أيّ شركة تؤسَّس باسم السلطة (تتوفر بهذا الخصوص شهادات جمعتها من رجال أعمال، وأنا أكتب هذا العمل).

في تلك الأثناء، شارك الدكتور قرين الختيار، ورئيس الجمعية الصحية، في احتفال نظمته الجمعية التي يرأسها احتفاءً بعودته إلى أرض الوطن،

وحدّثه بعض الحضور عن مشاكل القطاع الصحي، وفجأة ارتفع صوت يوسف علّان، الذي لا يعرف أحد كيف حضر، ومتى؟ واقترب من القرين الذي كان يستعد للمغادرة محاطًا بكثير من المرافقين والأصدقاء والطامعين بأدوار في الزمن الجديد، وصرخ:

– دير المجانين يا دكتور، يحتاج إلى نفضة، لا تعرف ما جرى لنا في سنوات الاحتلال الطويلة؟ أملنا فيكم، بدنا علاج، بدنا تطوير، بدنا إدارة جديدة.

لم يكفّ القرين الذي يشبه الختيار كثيرًا عن الابتسام، وهزّ رأسه باستمرار، وهو يستمع إلى يوسف، الذي ظنّ أنه يشجّعه على الحديث، ولكننا فوجئنا عندما عرفنا من ردّة فعله وكلماته المقتضبة، بعدما أنهى يوسف كلامه، بأن يوسف كان في وادٍ، وهو في وادٍ آخر. يوسف مهموم بقضيته وزملاءه، وهو يردّد شعارات ذات طابع وطني عام، تخرج كلماتها من فمه متقطعة، بلا معنى، ما جعلني شخصيًا أحزر أنه، للحظات على الأقلّ، قد أصيب بلوثة جنون الدهيشة، بينما لاحظ يوسف ببراءة غريبة:

– أنا لم أسأله عن كيفية تحرير فلسطين...!!

ضغط عمّار الجوري، الذي كان يقف بجانبي، على يدي، مبتسمًا، بينما كانت بقايا أغانٍ وطنية تصدح في القاعة التي أخذ الحضور يغادرونها.

اعتدت السلطة، خلال السنوات التي أصبح فيها دير المجانين تحت سيطرتها، على الحيّز الفيزيائي للمجانين، ببناء منشآت عسكرية ومدنية عليه. فبعدما كانت مساحة الدير تصل إلى نحو 160 دونمًا، أصبحت بعد القضم المنظم، نحو 60 دونمًا فقط، ومن المستبعَد أن يتوقف الأمر عند هذا الحدّ.

قُضمت أرض المجانين بكلّ قسوة، وبدون أن يرفع أحد الصوت عاليًا أو منخفضًا، من أجل تشييد أبنية للسلطة ولأجهزتها الأمنية والمدنية.

ويبدو أن الوضع الجديد حوّل بعض المجانين إلى شعراء، حين وصلتني على جهاز الفاكس قصيدة بعنوان «في المشمش»، موقّعة من واحدٍ مجنون، توقّعت أن يكون مُنير شحاتة.

مُنير شحاتة

مُنير شحاتة هو ابن مخيمّي ويكبرني بعامين أو ثلاثة، زاملته في مدرسة ذكور الدهيشة، وهو من عائلة موصومة بالجنون، تتكوّن من أبناء وبنات كثر، وربّ عائلة يمتاز بضخامة جثته، في مقابل ضعف بنية امرأته. وهي من العائلات ذات النسب الواضح للأصول المصرية، واحدة من تلك البقايا الشاهدة على مغامرة إبراهيم باشا الشامية. وهو ما كان يدركه شحاتة، الذي زعم أن جدّه هو مَن قاد حملة تأديب الثوّار في الخليل، بعد هزيمة الباشا في برك سليمان، وانشغل في سنواته الأخيرة بإقامة نصب تذكاري لإبراهيم باشا، فعمد مرات كثيرة لوضع حجارة على شارع القدس-الخليل، معطلاً حركة السير قبالة المخيمّ، بحجة أنه يُمهّد للنصب العتيد.

كلهم مجانين. هكذا كنّا نصنّفهم. وإن كان جنونهم من نوعٍ يختلف عن جنون الذين كُنّا نعرفهم من نزلاء دير المجانين، فمثلاً كثيرًا ما كنّا نشاهد الأب، الذي لا تفارق السيجارة فمه، ينتظم في العمل مع مجموعةٍ من عُمّال المخيّم، ويكسب رزقه بطريقة أو بأخرى، ولكنّه يختلف عن باقي الرجال، وإن كنّا لا نستطيع تحديد كنه هذا الاختلاف، دون أن يكون لدينا شك في أنه الجنون. وفي حالات معيّنة، كنّا نسمع أنه نُقل إلى الدير وعاد إلى منزله بعدما «أخذ الإبرة»، أو تعرّض للصعق بالكهرباء.

أَما زوجته، فكانت تختلف عن نساء المخيّم من مجايلاتها، فهي دائمة الانزواء، تفوح منها الروائح من قلة الاستحمام، ويسيل لعابها على فمها، ولا

تكاد تغيّر ثوبها الفلاحي، وخرقة رأسها البيضاء تحوّلت إلى ما يشبه السواد منذ زمن.

أبناء شحاتة وبناته، يتركون ويتركن المدارس في سنٍّ مبكرة، إلى الشوارع، بعض بناته بعد أن يدخلن في دور النموّ، يُسلن لعاب المراهقين، ويُظهِرن اكتشافهنّ لنضجهنّ الجنسي بسعادة، ويخضن علاقات جسدية، مع الفتيان المكبوتين، وإن كانت هذه العلاقات لا تذهب دائمًا إلى ذراها، وتترك آثارًا يصعب وصفها على الفتيان المكبوتين.

جنون بنات شحاتة يختلط مع شعورهن بالتغيّرات الثورية على أجسادهن، ونتيجة هذه الخلطة، تظهر ابتساماتهن الماكرة، وهنّ مارات، كاشفات عن منابت أثدائهن، وشعورهن متسخة منكوشة، ولعاب الواحدة منهنَّ يسيل على أسفل فمها، وبهذا الشكل كوّنّ شكلاً إغرائيًا مُعيّنًا لأجيال متعاقبة من مراهقي المخيّم، قبل أن يختفين واحدة إثر الأخرى، بعد أن يتزوّجن بعيدًا، برجال قبائل بدوية، يحلو لهم تعدّد الزوجات، اللواتي يمكن أن يقبلن بحيواتهم الصحراوية القاسية في الخيام، ويبدو أن بنات شحاتة، الفاقدات القدرة على اتخاذ القرارات، لجنونهنّ الذي يتفاقم مع مرور الوقت، كنّ يسعدن بانضمام الواحدة منهنَّ إلى مجموعة نساء لسيدٍ واحد.

ولا شك لديّ في أن بنات شحاتة وقعن ضحية استغلال جنسي، دون أن يشعر أحد من الأهالي بالذنب تجاههن، وكأنهن خُلقن للجنون، ولهذا الشكل من العلاقات الجنسية المبتورة، وفي يومٍ كُشفت علاقة استغلال لإحدى بنات شحاتة من فهمي السمّاك، وهو رجلٌ أكبر منها بكثير، وناشط في مقاومة الاحتلال، لاكتها الألسن، وسرعان ما ذهبت في غياهب النسيان، وأصبح السّماك لاحقًا قائدًا في أحد الأجهزة الأمنية في السلطة الفلسطينية.

أولاد شحاتة لا نعرف مصيرهم، كثيرون منهم يغادرون المخيّم، ويعودون في زيارات خاطفة، ثمّ يغادرون ولا نعود نرى أيًّا منهم، يمكن استثناء شخصيّة مُنير من هذا الغياب إلى مجهول لا نعرفه، فمنير أكمل دراسته، وأظهر ذكاءً معينًا، يمكن رصده عندما يبدي ملاحظات لمّاحة، خلال نقاش، بينما تبرق عيناه، بوميض يزعج أو حتّى يخيف محدّثه للوهلة الأولى وقبل

أن يتعوّد على طريقة مُنير في الحديث التي هي مزيج من الجدية والسخرية واستعراض المعلومات.

حاز مُنير شهادة متوسطة، بعد إنهائه التوجيهي، وأصبح موظفًا في شركة تأمين كبيرة، واعتُبر ذلك معجزة في عائلة شحاتة. ارتبط اسمه بعلاقات جنسية معيّنة، وصلت حدود الفضائح مع نساء متزوّجات، وظهرت عليه ميول أدبية، وزارني أكثر من مرّة، حاملاً قصائده، متسائلاً، وهو يلقي بعض أبياتها عليّ بصوت جهوري ساخر، عن كيفية نشر ديوان شعر، وتمكّن فعلاً من طباعة بعض الخواطر والمنظومات، في كتيّبات، بشكل متواضع جدًا، وبعناوين طويلة وغريبة. كان يأتيني إلى غرفتي مبكرًا، يوقظني من النوم، ويطلب مني التوسّط له لدى عمّار الجوري، ليكتب عن كتيباته الغريبة أخبارًا صحافية. قلت له مرّة:

– سأكتب عنك مقالة نقدية، عن أنك مجنون يكتب الشعر. سيكون ذلك جديدًا، وسيفتح أمامك أبواب الشهرة...!

فأجابني:

– الشعراء أصلاً مجانين، لكن أرجوك لا تصفني بالمجنون، ولا تعتبر هذا تنكرًا لأصلي...!

وسألني عديدون أُعجبوا بموهبة مُنير إن كنت اعتبره شاعرًا أو أديبًا، فكنت أجيب على طريقة مُنير، وبأسلوبه، بأن حياته معجزة شعرية، لو يُقدَّر له أن ينظمها.

وأُضيف، مُسمّيًا، أسماء مجانين كثر ورد ذكرهم في بطون الكتب، ينساب الشعر من شفاههم، في الدين والسياسة والجنس والتصوّف وأحوال الدنيا. لم يكن حكماء العرب إلّا مجانين.

بدا لي أن مُنير سيواصل حياته بين الجدّ والهزل، والتعليم، وتقديم نفسه كشاعر، ولكن فجأة، وبدون أيّ إرهاصات منبئة، ظهر مُنير في الشارع، مهلهل الثياب، وقد اتسعت ضحكته، وسال لعابه، والسيجارة لا تفارق فمه، كالمجانين الذين نعرفهم تمامًا.

النقلة التي حدثت لمنير، مثيرة فعلاً. إنها انقلاب. شخصيّة تحولت إلى شخصيّة أخرى، والمثير أيضًا، أن كثيرين لم يفاجأوا بهذا الانقلاب، وكانوا يتوقعونه، ومنهم مَن قال:

– عرفنا أن جنون مُنير مسألة وقت، كلّما يكبر أولاد شحاتة يزداد جنونهم.
وقيل أيضًا:

– أصلاً كان مُنير مجنونًا، ألا تذكرون حركاته ونبرات صوته، وتورّطه الفاضح مع متزوجات، لو كان عاقلاً لحاول، على الأقلّ، إخفاء الأمر، المجنون لا يُقدّر العواقب وكذلك هو مُنير.

عندما أصبح منير مجنونًا رسميًا، في عُرفنا على الأقلّ، تميّز عن باقي المجانين الذين عرفتهم، بطريقة تحصيله لمصروفه، فكان عندما يلتقي أيّ شخص، يُخرج ورقة من جيبه، ويخط عليها بقلم يضعه دائمًا خلف أذنه، منظومات في مدح الشخص، ويوقّع عليها، ثمّ يناوله الورقة ذاكرًا رقم المبلغ الذي يريده.

كانت هذه طريقة تسوّل مبتكرة، تثير الضحك والمزاح، ولا تترك للشخص الممدوح سبيلاً للتملص من دفع الخاوة الإجبارية لمنير، وهو يضحك. لكنّ هذا لم يمنع أن يدخل الشخص المعنيّ في مساومات، ليس القصد منها تقليل المبلغ، بل إحداث المزيد من الضحك والمزاح، له ولرفاقه وللناس الذين يتجمّعون فرحين بالعرض الذي يقدّمه منير، والذي يطلب آمرًا، من المتجمّعين، مستغلاً فرحهم، سجائر، يضعها في فمه، وعلى أذنيه، وفي شعره.

وتطوّر الأمر مع منير، وأخذ كثيرون عندما يرونه ينادونه، ليكتب لهم منظومات المدح، ويتسلّمونها مُوقّعة منه، قبل أن ينقدوه «ما يخرج من نفس» الواحد منهم. وفي أيّام الضيق، كنت أرى منير يلف على مكاتب الأطباء والمحامين والمقاولين، ليكتب منظوماته فيهم، ويقبض ثمنها، وغالبًا ما كان يفشل، وإذا وجد صدودًا حادًا من أحدهم يقبل أيّ شيء يمكن أن يقدّمه مُعكر المزاج هذا الذي يرفض قصيدة مدح من شاعرٍ ولو كان مجنونًا، كما كان مُنير يقدّم نفسه بسخرية يظلّلها الجدّ ولا تخلو من التصميم.

لم يتحوّل منير إلى شخصيّة ظريفة ذات طابع كاريزماتي، لكنّه كان مقبولاً إلى حدّ كبير. إلّا أن حالة جنونه أخذت تتدهور بتسارع، وأصبح لا يكتفي بالسير على الأرصفة، بل كثيرًا ما كان يحلو له السير في وسط الشارع، إلى أن اختفى فجأة للأبد، سقط من سطح بناية في طور البناء، ومات. هذه

كانت النسخة الأولى التي انتشرت حول حكاية موته المفاجئ، ولم يكن بقي لمنير أيّ أحد من عائلته يمكن أن يسأل أو يستفسر أو يدقق. وبعد فترة، سرت شائعات أخرى عن طريقة موته، منهم مَن تذكّر قصّة فهمي السمّاك مع إحدى شقيقاته، وتناقلوا حديثًا مفترضًا بين الاثنين، عندما هرع منير إلى السمّاك وهو ينزل من سيارته الجيب الفخمة يحيط به مرافقوه، عارضًا عليه، بطريقته، كتابة قصيدة مدح، ولكنّ السمّاك صدّه بقوة، وتدخل مرافقوه وألقوا منيرًا أرضًا، فشُجّ رأسه، وعندما رأى دمه أصابته نوبة يقظة وأخذ يبرطم بكلام فُهم منه أنه يهدّد السمّاك بالانتقام جرّاء ما فعله بشقيقته، حينها جُنّ جنون السمّاك، فصعد إلى سيارته ودهس مُنيرًا، وأسكته إلى الأبد.

وهذه نسخة لاقت استحسانًا وقبولاً، لا لأن أحدًا تيقّن من حدوثها، ولكن بسبب الغضب المتعاظم على رجال أوسلو، مع انتشار فسادهم، إلى ذرى كبرى، فكلّ حكاية عن أيّ واحد منهم، كانت تجد مَن يصدّقها، وتنتشر بسرعة.

أين الحقيقة؟ إنها ترقد تحت التراب، حيث ووري جثمان منير في الثرى، في جنازة لم يشارك فيها إلّا عدد من المشيّعين لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين.

سألت مرّة منيرًا، إن كان هو صاحب أهزوجة «في المشمش»، مخمّنًا أنه أرسلها لي من فاكس لأحد أصحاب المكاتب الذين كتب فيهم قصائده، ولكنّه لم يجب، وهزّ رأسه بلا مبالاة، وكأنه لا يعرف عمّا أتحدّث.

ولم يبق من حكاية منير، إلا أسطورة التعليم والجنون، أو بعبارة أوضح، العلاقة بين الذكاء الحاد والتعليم والثقافة والإصابة بالجنون، ولكنّ النموذج الأكثر حدّة المطبوع لديّ، هو المتعلق ببرهوم الإبراهيمي.

كان برهوم الإبراهيمي، والدًا لزميل لي في المدرسة، منذ الصف الأوّل، وكم يكون محرجًا لطالب لاجئ فقير صغير، أن يكون والده مجنونًا.

برهوم الإبراهيمي، ضخم الجثة، مهلهل الثياب، يسير حافيًا معظم الوقت، يدخّن بشراهة، لا يتحدّث مع أحد، ولا أحد يتحدّث معه، لا يتوقف عن الحركة، وكثيرًا ما نراه أمام منزله يتمشى ذهابًا وإيابًا، السيجارة في فمه، عاقدًا يديه أسفل ظهره.

قصّته كانت معروفة لنا من كثرة ما ردّدتها أمهاتنا، كان برهوم الإبراهيمي موظفًا، في وقت كان فيه الحصول على وظيفة حكومية أمرًا مبهجًا، ورشّحته لهذه الوظيفة موهبته وتعليمه الذي لم يتجاوز الصف الرابع الابتدائي، وهو أعلى صف في مدرسة القرية التي لجأ منها عام 1948. فمعظم القرى الفلسطينية لم يكن فيها مدارس، والقرية المحظوظة بوجود «مدرسة أميرية»، أي حكومية فيها، كان التعليم يقف فيها عند مرحلة الرابع الابتدائي، إلا أن المثل كان يُضرب في قوّة التعليم في هذه المدارس، التي يحلو لأمهاتنا أن يصفن شهادة الرابع الابتدائي فيها ذلك الزمان، بأنها تعادل شهادة الجامعة في زماننا الأغبر هذا.

إذًا، كان جنون برهوم الإبراهيمي، الذي حدث فجأة كما تقول الأمهات، حالة نموذجية بالنسبة لهنّ، بسبب ربط الجنون بالذكاء والتعليم، حتّى إنّ بعضهن كُنّ ينصحن البعض الآخر بأن ينهرن أبناءهن عن التعليم المكثف، الذي قد يذهب بالعقل إلى الأبد. لطالما أحزنتني حالة برهوم الإبراهيمي، لا بسببه، بل بسبب ابنه، زميلي. كم كنت متعاطفًا، شفوقًا مع هذا الابن، ومع والدته التي عرفت طريق العمل في منازل الآخرين مبكرًا لإنقاذ العائلة.

ومثلما يحدث في معظم حكايات المجانين، الذين لا يُعمّرون طويلاً، وتنقصف أعمارهم مبكرًا، غاب برهوم الإبراهيمي إلى الأبد، ونحن ما زلنا صغارًا، وغابت الحياة في جسد زميلي، ابنه، حتّى الآن، وأدركت مبكرًا، كيف أنه في مجتمعاتنا قد يكون من الصعب كثيرًا أن يكون والدك مجنونًا أو صِمِّيتًا، اسألوني أنا.

عصام سعد

التعليم، الثقافة، المفهومية، والجنون، ثيمات متناقضة، متوافقة، تربطها علاقات شرطية غامضة، سمعتها مبكرًا، من أمي وأمهات الحارة والعائلة، إذ كثيرًا ما يدور الحديث حول شخص أوصله تعليمه إلى شطط وجنون، وقُدّر لي أن أخبر نموذجًا عن قرب، لواحد من أبناء صَفّي، في التوجيهي، زاملني قبلها بعامين في الأوّل والثاني الثانويين.

بالإضافة إلى كونه طالبًا مبرّزًا، وإلى حصوله على المرتبة الأولى في الصف، تميّز عصام بأنه الأبرز بيننا فقرًا، وبأنه الطالب الوديع المجتهد الذي لا يفكر إلّا بتحصيله العلمي، لأنه طريقه الوحيدة لإنقاذ نفسه وعائلته من الفقر المدقع، لم تكن لديه أيّ اهتمامات خارج صفحات الكتب المدرسية، كالسياسة، أو التدخين، والتهام النشرات السياسيّة والكتب النظرية.

افترقت عن عصام، الذي كنت أكنّ له احترامًا وحبًا، عام 1982، بعد إنهائنا للتوجيهي، وعندما التقيته بعد سنوات، كانت الفاجعة، فبدلاً أن يكون عصام قد أنهى تعليمه في إحدى الجامعات، أو دخل معمعان الحياة العملية، وصعد درجات الارتقاء الوظيفي، رأيت، عندما قابلته صدفة، نموذجًا مصغّرًا من المجانين الذين طالما عرفتهم: اللسان الثقيل، والزيّ القديم غير المرتب، والأكثر عجبًا السيجارة، وأيضًا طلبه مني على استحياء أن أنقده بعض الأموال.

ماذا جرى لعصام؟ سألت بعض الأصدقاء المشتركين، لكنني لم أعثر على إجابة، وكأن ما وصل إليه عصام كان طبيعيًا بالنسبة لمن سألتهم من زملائي، الذين كانوا دائمًا يُطَقّسون عليه، ويصفونه مجازًا بالمجنون، والمعقد، متسائلين وكأنّهم يتوقّعون ما سيحدث له:

– اللّه يستر ممّا ستفعله به شطارته وعزلته...!

أحد معارف عصام قال لي إنه لا يعرف الكثير عما حدث معه، إلّا أنه أخبرني بأن عصامًا الذي دخل معهدًا متوسّطًا، بعدما باءت محاولاته الالتحاق بالجامعة بالفشل، تعرّض لصدمة، في أثناء تقديمه لامتحان الشامل، الذي يشمل كلّ المواد الذي يدرسها الطالب خلال عامين، وبدون اجتياز هذا النوع من الامتحان المرهق، لا يحصل على شهادة.

لماذا صُدم الطالب المجتهد بامتحان كهذا؟ لم أهتدِ إلى إجابة، إلّا أن ذلك ما أطار عقل عصام، وفقًا للرواية الوحيدة القريبة إلى الحقيقة.

عندما ألتقي عصامًا، يعرض عليّ مهاراته وخدماته، مثل أنه يستطيع أن يعمل في «السناسل» الحجرية، أو جَدّ الزيتون، أو الكتابة للصحافة، وفي نهاية كلّ حديث، يقول لي هازًا رأسه:

– هل أجد معك أجرة إيصالي إلى المنزل؟

في السنوات الأخيرة، طرأ تطوّر على حالة عصام، صحيح أنه لم يتغيّر، لكنّني أصبحت أصادفه، لا في الطرقات النهارية، والأزقة الليلية، بل أيضًا في معارض الكتب، ولكنّ الحديث بيننا يكاد يكون هو نفسه، مع دخول بعض المفردات مثل الحشيش، حيث أصبح صديقي المثالي السابق، يتعاطى الحشيش، ولا يتورّع عن طلب النقود من أجل تعديل مزاجه.

وتدهور وضع عصام، بشكل لم أتوقّعه، وصادفته مرّة، في مركز شرطة بيت لحم، السرايا سابقًا، بعدما تسلمته السلطة الفلسطينية. رأيت صديقي السابق محتجزًا مع مجموعة من الحشاشين، وحاولت أن أشرح للمكسيكي، وهو المسؤول في قسم المخدّرات، شيئًا عن حالة عصام، لعلي أستطيع التخفيف عنه في محنته. دخلت على المكسيكي، العائد ضمن قوات الثورة الفلسطينية من الخارج، حاملاً لقبه الغريب، فأخذ يشرح لي أسلوبه في

التعامل مع الحشاشين، عن طريق إجهادهم في العمل داخل المعتقل، وقال لي إن أمثالي من المثقفين، لا يعرفون المجتمع الذي يعيشون فيه، وإن كانوا يدَّعون غير ذلك، وأخذ يسرد لي حكايات عن فتيات فلسطينيات يعملن في إسرائيل، ويمارسن الدعارة، وقال لي إن هذا الأمر عاديّ، وإنه في مخيّم تل الزعتر في لبنان، الذي تحوّل إلى أسطورة للوجود الفلسطيني هناك، بعد تدميره في الحرب الأهلية اللبنانيّة، كان هناك أكثر من 50 عاهرة فلسطينيّة يعملن بترخيص.

واستمرّ المكسيكي الغريب الأطوار، الذي لم يترك لي مجالاً للكلام، في شتم «الشعب الذي باع نفسه للاحتلال»، وخرجت بعدما نسيت لماذا دخلت أصلاً على هذا المجنون، الذي جُنّ فعلاً في ما بعد، بعدما تُوفي سجين سياسيّ كان محتجزًا في عهدته، واتهم ذووه السلطة بتعذيبه حتّى الموت، والسلطة هنا تعني المكسيكي هذا، الذي ضحّى به الختيار، إثر تظاهرات عارمة اندلعت تطالب بإقالته ومحاسبته، وزُجّ به في السجن في ظروفٍ معقدة، بعد اتهامه باغتصاب غلام، وفي فترة سجنه تُوفيت زوجته، ولم يحتمل سجنه وتهمته ورحيل امرأته المتأثرة بما لحق بزوجها، فجُنّ، وانتهى به الأمر مع مجانين دير المجانين، الذين يُمضون فترة فيه، ثمّ يُسمح لهم بالخروج، والعودة لتلقّي العلاج.

قال لي عصام مرّة:

– انظر ما حدث للمكسيكي، ربّنا لا يرمي النّاس بالحجارة عبثًا...!

ولم أجد أيّ رابط بين صديقي عصام والجنون سوى حالة شقيقه الأكبر منّا علائي. كان علائي يختلف عن عصام كثيرًا، فهو رغم أنه محسوب على المجانين، ولكن على مجانين المثقفين، وكذلك عُرف بأناقته الشديدة وولعه بالملابس الغالية، وكل شيء غال، برغم فقره المدقع.

على عكس عصام، كان علائي كثير الحركة، ومتعدّد الصداقات، حتّى تخاله كلّ يوم يصادق شخصًا جديدًا، ولكنّ صديقه الصدوق كان الدكتور باسم إبراهيم، الذي ينتمي لإحدى العائلات الثرية العريقة، التي راكمت ثروة على مدى أجيال، والتي كانت جزءًا من الأرستقراطية الدينية في مدينة القدس،

التي تأسّست ونمت في عهود إسلامية متتابعة، وتقاسمت الوظائف الدينية، والسياسيّة، والوجاهة الاجتماعية، وتوارثتها، وتعايشت مع كلّ الولاة والحكّام.

ورغم غنى الدكتور باسم، لم يكن يملّ من شحذ النقود، وكان يمضي معظم وقت فراغه، مع طلبته في كافتيريا جامعة بيت لحم، يحدّثهم ويضاحكهم، ويشرب ويأكل على حسابهم، منتشيًا بدور الأكاديمي-المثقف، الصعلوك المفلس.

ويحلو لباسم أن يُقدّم نفسه في صورة المثقف الأرستقراطي المنسلخ عن طبقته، والذي اختار حياة البروليتاريا، مثل فردريك أنجلز – والشبه في الملامح الخارجية بين الاثنين كبير. ولم يكن ينقص باسم الكثير ليدلل على اختياراته الحياتية، فاسم عائلته معروف جدًا، وهي تملك عدة مشاريع سياحية وتجارية، كما أنه عاد من عمله وحياته التي كان يصفها بالرغيدة في السويد، لأنه لم يطق حياة التنبلة حتّى لو كانت بصحبة زوجته الشقراء الجميلة، التي تركها هناك غير آسف. ولكن كثيرين من الطلبة ومن معارف باسم خمّنوا أن لا شقراء سويدية، ولا سمراء عربية، يمكن أن تتحمّل ما سمَّوه تقتير باسم وبخله الفاضح، وسلوكه العجيب في تسوّل الأموال من أيّ أحد، وطريقته المفضّلة في ذلك كانت سؤاله للشخص الذي سيطلب منه المال:

– كم معك؟

ثمّ يقول:

– لنقسم ما معك نصفين، تمامًا كما في الاشتراكية!

وبرغم فارق السنّ بين علائي وباسم، كانا صديقين حميمين، وكثيرًا ما يجتمعان لمحاصرة صديق وتشليحه أموالاً لشراء نبيذ أو بيرة أو عرق، أو كلّ ذلك، والذهاب إلى بيت أحد الأصدقاء لقضاء سهرة تمتدّ حتّى الصباح، في الشرب والنقاش الذي لا ينتهي في شؤون السياسة والاشتراكية والأدب والفن.

وإن كان باسم حقّق نجاحًا ما في حياته، كإكمال دراسته، وعمله في الجامعة، رغم أنه كان مهدّدًا دائمًا بفقدان وظيفته في أيّ لحظة، بسبب تصرفاته التي لم ترق إدارة الجامعة، فإن علائي كان متبطلاً وبلا عمل، وتوازنه النفسي محل شكوك كبيرة، لدى كلّ مَن يعرفه، وكانت قصة جنونه معروفة

لهم، فهو مثل عصام في تميّزه الدراسي. ولكنّ صدمة علائي كانت من نوع مختلف، ومعروفة على نطاق واسع، فهو طُرد من مصر قبيل التوقيع على اتفاقية كامب دايفيد مع إسرائيل، وكان في السنة الثالثة في كلية الطب، رغم أنه لم يكن له أيّ نشاط سياسيّ، بل لطالما تفاخر أمامنا بعلاقته مع فنانات وممثلات مشهورات في مصر، دون أن يفصح عن طبيعة تلك العلاقات، ولكن اتخاذ منظمة التحرير الفلسطينية موقفًا معلنًا ضدّ مبادرة الرئيس أنور السادات، بزيارة إسرائيل، ولاحقًا توقيع كامب دايفيد، جعل السادات يردّ بعقاب جماعي شمل كثيرًا من الفلسطينيين في مصر، فوجد علائي نفسه مخفورًا ومطرودًا على أوّل طائرة تغادر مصر، التي أحبّها وتركت في نفسه غصّة، دون أن يعرف ماذا فعل هو شخصيًا ليُطرد؟!

وعاد علائي شخصًا آخر، يتنقل من كلية إلى جامعة إلى معهد، ولكنّه لم يكمل دراسته في أيّ منها، بل داوم على المقاهي أكثر من التزامه بدوامه الجامعي، فتحوّل إلى مشروع مؤلف لم يؤلّف شيئًا وشاعر لم ينظم بيتًا، وبرع في السُكر والتنظير. ثمّ نسب لنفسه وضع نظرية عن دور النخب الفلسطينية في استمرار مأساة شعبها، سمّاها «ثنائية الجُعّار والأفندية» وملخصها أن الطبقة السياسيّة التي تتكوّن من أفندية المدن وإقطاعيّي الريف، استمرّت في قيادة الشعب الفلسطيني، واستغلال أبنائه «الجُعّار» وهم في تعريفه الذين «يجعرون» أي يرفعون الصوت العالي تأييدًا لهذا الزعيم أو ذاك، وزجّهم في أتون النار، دون أن تقدّم طبقة الأفندية أيّ تضحيات تُذكر، وكلّما أصبح أحد من طبقة «الجُعّار»، لظروف مختلفة، في موقع قيادي، يتحوّل إلى واحدٍ من الأفندية.

لاحظ البعض أن علائي، بنظريته التي طرحها في مقاهي المثقفين والبارات، كأنه يريد أن يغمز من قناة الطبقة التي جاء منها صديقه الدكتور باسم، رغم أنه، في النهاية، يشمل الجميع بتقريعه، ونبّه ذلك البعض ليلاحظوا ما سمّوها العلاقة المركّبة بين الاثنين، علائي والدكتور باسم، الذي يبدو أنه شَكّل لعلائي المثال. وفي يومٍ ما، بعد عودة الدكتور من إحدى زياراته الأوروبية، كتب علائي مقالاً في إحدى الجرائد، مستغلاً علاقة ربطته بالمحرّر

الأدبي فيها، عن الدكتور، محاولاً التخلص من علاقة التلميذ والأستاذ، وقتل الأب المعنوي، إذ أظهر في مقالته دكتوره، ككاتب وأكاديمي تقليدي، آتٍ من عصور قديمة، وعندما سأله الدكتور معاتبًا، لماذا فعلت هذا؟ أجابه علائي مداريًا خجله:

– أردت استفزازك كي تردّ، ونعمل حراكًا أدبيًا...!

ولم يكن لأحد أن يتوقع أن المقالة يمكن أن تُشَكّل رأس الجليد المخفي، في العلاقة التي أصبحنا نصفها لاحقًا بالمعقدة بين الاثنين، عندما طعن علائي دكتوره بسكين أودى بحياته، في أثناء نقاش محتدم بينهما.

سَلّم علائي نفسه للشرطة، وروى القصة العجيبة، بأنه مثلما يحدث دائمًا، كان والدكتور يتناقشان في مواضيع معيّنة، وأخذا يتبادلان الأوصاف والاتهامات، مثل وصف الدكتور له بأنه زئبقي، وإمبريالي، وبرجوازي صغير، فهدّده علائي بسكين يبدو أنه كان قريبًا منه، ودون أن يدري طعنه، طعنة كانت من القوّة لتنهي حياة الدكتور، ولم يكن علائي يقصد قتله.

صدّق الجميع رواية علائي، حتّى عائلة الدكتور، التي لم تكن علاقته بها جيدًا أصلاً، واعتُبر ما حدث ضربة خطأ، وحُلت المشكلة في النهاية، وفقًا للعادات العربية، وخرج علائي من السجن، ولزم بيته، لا يخرج منه، ثم أُصيب بسمنة زائدة، أفقدته القدرة على الحركة، أو ربّما هو رغب في ذلك، حتّى تُوفي مكتئبًا.

قبل رحيل علائي، وقبل جنون عصام، بدا الاثنان كواحد متهتّك وآخر عاقل، ثنائية قابيل وهابيل من بطن واحد.

وبعدما فُقد علائي، بقيت حالة عصام كما هي، فهو في النهاية، مجنون يستطيع تدبّر أموره، وعندما يخرج من المنزل، يستطيع العودة إليه بسلام، وإن لم يكن أحد يعرف إذا كانت حالته ستتطوّر للأسوأ أم لا، بعكس حالات جنون أخرى، جنونها كان طاغيًا وعابرًا للحدود، مثل حالة غازي جميل.

غازي جميل

إن كان من شكلٍ مُعيّن متفق عليه بين النّاس للمجنون، فهو شكل غازي، وهو شخص يشيع في كلّ مكان يذهب إليه بهجةً وحركة، إلّا أنه غامض إلى حدٍ بعيد، ولا يُعرف ما إن كانت لديه القدرة على الكلام أم لا، أو إن كان صمته الذي لا يناسب حركته الدائبة، نوعًا من الخرس الملازم له منذ ولادته. حتى اسمه كان محل شكوك، فهو متعدّد الأسماء، وكلٌ يناديه باسم مختلف.

غازي جوّاب مدن، مغامر، ومُدخّن شره. في ثمانينيات القرن العشرين، كان أشهر شخص في مدينة بيت لحم، ونَجم ساحة المهد. كان يرتدي الجينز، وينظم السير، وحركة المركبات السياحية في الساحة، ويصادق رجالاً ونساءً يأتون من مختلف دول العالم، يعمل أمورًا كثيرة غير محدّدة، وكل صباح يدور على المحالّ التجارية، يقف في مدخل المحل، تاركًا سيجارة تشتعل في فمه، ويطلب آمرًا أن يُدفع له، ويعطيه كلّ تاجر قطعة نقدية، دون نقاش أو جدال.

علاقة غازي بدير المجانين وزملائه هناك، كانت مُحيّرة، فمثلما يقف في مداخل المحال التجارية ليأخذ من أصحابها ما كانوا يصفونها ضاحكين بالـ«خاوة»، كان يذهب إلى الدير، في الوقت الذي يختاره ليأخذ علاجه، ثمّ يترك ساقيه للريح، والسيجارة في فمه.

اللغة التي يتواصل بها غازي مع العالم الخارجي هي تمتمات، وفي أحيانٍ قليلة، ضحكة صافية، ولكنّها لا تعبّر إلا عن استحقاره لمحدّثه، وكأنه يريد أن يقول له:

– لن أردّ عليك لأنني أخرس، لكنني أدرك تمامًا ماذا تقول عني.

ورغم أن غازي كما عُرف في مدينة بيت لحم كان أشهر شخصيات المدينة، وأكثرها ديناميكية،اختفى فجأة، خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى، وفوجئت به، في آخر مكان يمكن أن أفكر أن أراه فيه، وهو وسط البلد في العاصمة الأردنية عَمّان، وتحديدًا في مجمع رغدان، قريبًا من الساحة الهاشمية والمدرّج الروماني.

رأيت غازي هناك عام 1990م، بنفس لباسه وسيجارته التي لا تُغادر فمه، وربما خُيّل إليّ أنها نفس السيجارة التي أشعلها في بيت لحم، ونسيها في فمه. كان يُنظم موقف الحافلات الكبير في الساحة، وكان صاحب كلمة مسموعة وسط غابة السيارات والنّاس، ودائب الحركة، ولا يتكلم.

استغربت كثيرًا وجود غازي في هذا المكان، وبنفس الحيوية والنشاط، وانتقل خَرَس غازي إليّ، ثمّ تحمّست له، وحاولت التحدّث معه، ويبدو أنه عرفني، ولكنّه تجاهلني، وعندما أمسكت بتلابيبه، ووجّهت له، بعصبية، أسئلة متتالية، نطق بجملتين سريعتين فهمت منها أنه يتذكرني، وأنه لا يخشى المخابرات، ولم أعرف عن أيّ مخابرات يتحدث، ولم يفسح لي المجال لأي سؤال آخر، لأنه سرعان ما تركني مستأنفًا ملاحقته للمركبات وتنظيم حركتها.

هذا الموقف جعلني أدرك أن غازي بإمكانه أن يتحدّث عندما يريد ذلك، وقد يستغرقه هذا سنوات من الصمت، ويتطلّب منه الانتقال من بلد إلى آخر.

قُدّر لي أن أتردّد كثيرًا على مجمع السيارات، في تلك الأيّام، وأحيانًا كنت أمضي وقتًا طويلاً في المكان، يستمر حتّى ساعات الليل التي صادقت خلالها بائعي القهوة والشاي، وكثيرين من مُهمّشي قاع عَمّان، وعلمت خلالها بإشاعة منتشرة في المجمع، تشير إلى أن غازي مخبر لدى المخابرات، وأن

مسألة جنونه هي للتغطية على عسعسته، ولذلك فإنه مرهوب الجانب، واكتسب مكانته في المجمع، لا فقط لنشاطه وديناميكيته، واندفاعه المجنون.

لم أُصدّق مسألة المخابرات هذه، وخصوصًا أن خوف النّاس المزمن من أمن الحكومات، قد يجعلهم يهابون أيّ شخص لمجرّد إشاعة، قد يسهم بنشرها هو، لحماية نفسه، وشرنقتها، وهو ما خمّنت أن يكون غازي فعله، في غُربته هذه. وإذا صحّ ذلك فإنه فعلها بكثير من الذكاء والدهاء.

التقيت غازي أكثر من مرّة، ولكنني لم أشكل أيّ أهمية له، وكأنه لم يعرفني جيدًا من أيّام بيت لحم، ولم أنجح في استفزازه، لأسمع منه أيّ كلمة تؤكد لي قبل أيّ أحد آخر، أنه ليس فقط يتكلم، ولكنّه تكلم معي أنا، إلى درجة أنني شككت في أنني سمعت منه بضع كلمات عندما رأيته.

وفي وقت لاحق، استمعت لشهادات أناس آخرين، تشير إلى أن غازي شوهد في مدن عربية أخرى، يقوم بنفس العمل، واختلطت هذه الشهادات بكثيرٍ من الواقع والخيال، الذي عادة ما يلازم شخصيات مثل غازي.

ونسيت غازي، حتّى فاجأني مرّة أخرى، في عام 2006، بين أبواب وأدراج الحرم الإبراهيمي وشوارع البلدة القديمة في الخليل، ولكن بهيئة مختلفة، فقد ارتدى اللباس التقليدي الفلسطيني، المسمّى الكِبر (القمباز) ولكن بدون غطاء الرأس، واحتفظ بسيجارته في فمه، وبلحية صغيرة بيضاء، وبعصا يتوكأ عليها، لقد كَبر غازي...كَبر كثيرًا. شاخ.

رأيت غازي بشكل مختلف، وبدور مختلف، يناسب سنّه المتقدّمة، فهو تخلى عن الجينز المتسخ، وارتدى اللباس الفلسطيني التقليدي، ولكنّه أبقى السيجارة في فمه، واحتفظ بنفس حركاته، وهزات رأسه الدائمة، وطريقة سيره السريعة، رغم استعانته بعكاز.

أصبح غازي أحد دراويش أبينا إبراهيم الخليل، مجذوب عميد العائلة الإبراهيمية، جدّ الديانات التوحيدية. حاولت التحدّث معه، فضحك ضحكته الساخرة، وأشار طالبًا سيجارة، ثمّ طلب قِطعًا نقدية.

منذ أن رأيته حاولت تتبعه، وزرت الخليل أكثر من مرّة، ولكنّه كان يرفض التحدث معي ولا يجيب عن أسئلتي، أصبح شخصًا غامضًا، غريبًا، يجلس على باب الحرم الإبراهيمي مصوّبًا عينيه لجنود الاحتلال المسيطرين على الحرم، وكأنه يمارس نوعًا من التحدّي.

وخشيت أن أفتح الصحيفة يومًا، لأجد خبرًا عن استشهاده، مثلما حدث كثيرًا على أبواب الحرم، الذي قُسم بين المسلمين واليهود، بقوة الحديد والنار، وارتُكبت فيه مجزرة مروِّعة.

صادفت غازي داخل الحرم يُصلّي. كان، ما إن يصل إلى الباب، حتّى يعود الشخص الذي عرفته، بسيجارته، وحركاته، وطلبه مالاً.

وتعرّفت إلى أصدقاء لغازي، من دراويش أبينا إبراهيم الخليل، وجميعهم شخصيات هامشية جذابة، ومنهم «أبو عين كريمة» كما يطلق عليه عارفوه لفقدانه عينه اليمنى، يحرصون على أداء الصلاة في أوقاتها داخل الحرم الإبراهيمي الشريف.

كان أبو عين كريمة، يسير بصعوبة مستعينًا بعكاز، تميّز بروح مرحة وتفاؤل فطري، وكأنه خلق كي يكون جزءًا من الحرم الإبراهيمي المهيب ودرجاته القديمة وأضرحة العائلة الإبراهيمية.

ولاحظت أنّ أبا عين كريمة، الذي قدّرت أن عمره يزيد عن ثمانين عامًا، له طقوسه الدينية، ويصعد وينزل درجات الحرم، باطمئنان داخلي عميق، وكأن مروره من بوابات التفتيش الإلكترونية أكثر من عشر مرّات في اليوم على الأقلّ لا يعني له شيئًا.

لم يكن ذلك الرجل يشعر بأيّ غضب عندما يطلب منه جنود جيش الاحتلال المناوبون على الحراسة إعادة المرور أكثر من مرّة من البوابات الإلكترونية، عندما تصدر صفيرًا أثناء مروره، للتأكّد من أنه لا يحمل شيئًا مخالفًا للتعليمات العسكرية الإسرائيليّة.

كان يغطي عينه التي لا يرى فيها بجلدة سوداء كتلك التي كان يضعها على عينه الجنرال الإسرائيليّ موسى ديان. ولصفات كثيرة تشكل شخصيته، وتجعلها جذابة، فإن كثيرًا من الصحافيين والفنانين والمصوّرين

يحرصون على التقاط صور له، وكأن أهمّيته من أهمية الحرم الإبراهيمي أو كأنه جزء منه.

وأصبح أبو عين كريمة نَجم معرض فوتوغرافي أقامه الفنان البريطاني ريتش ويلز، حاول فيه استكشاف الحياة اليومية للفلسطينيين، وأطلق عليه عنوانًا مباشرًا وعامًا هو «فلسطين في صور»، ولسبب لم يفصح عنه الفنان جاءت الصور جميعها بالأبيض والأسود، وإن كان ذلك لم يضف فنيًا إلى المعرض، فإنه اعتبر إشارة رمزية لوضع صعب ومركب لا يخلو من الألم.

وأبرز لوحات المعرض أطلق عليها ويلز ببساطة كلمة «طاقة» وهي كلمة تشير في اللهجة الفلسطينية إلى فتحة صغيرة في غرفة المنزل لجلب التهوية، ولكنّه أطلقها هنا على أبي عين كريمة؛ على عينه غير المغطاة التي يطل منها على العالم.

آخر مرّة رأيت فيها غازي، رأيت فيها أيضًا أبا عين كريمة. وصلت الخليل مبكرًا، قبل شمس الصباح، وقصدت تكيّة سيدنا إبراهيم الخليل، التي تُقدّم الطعام للفقراء منذ قرون طويلة. كانت المدينة تتنفس ببطء. صادفت غازي في باب الزاوية، المنطقة الشهيرة في الخليل، بسيجارته وزيّه الجديد الذي لم أتعوّد عليه، ممدّدًا في جانب الشارع، مُسندًا ظهره إلى الحائط، ويبدو عليه أنه أمضى ليلته نائمًا في الشارع، تفوح منه رائحة خمر نفّاذة، وعندما رآني مدّ يده، طالبًا «الخاوة». اعتبرتها فرصة، وسط الهدوء، ومقابلتي له وجهًا لوجه في ذلك الصباح الندي، لأن أحاول أن أُحدّثه قليلاً، أكشف شيئًا من سرّه، وأذكّره بمعرفتنا القديمة، لكنّه لم يبال، وظلّ باسطًا يده، فقلت له:

– احكي يا غازي، إحنا دافنينو سوا...!

لم يتأثر غازي بكلماتي التبسيطية، وأخذ بالتمتمة، بينما أخذ شكله يصبح أكثر فأكثر مثل أشكال المشرّدين البائسين الذين نراهم في الأفلام الأميركية. أعطيته، كنوعٍ من الوداع، كما خُيّل إليّ، أو كنوع من مدّ مساعدة متواضعة لصديقٍ قديم في محنة، ما تيسّر.

واصلت سيري، تزيدني نسمات الصباح شجنًا، وما إن بدأت أتوغّل في شوارع البلدة القديمة المسقوفة، حتّى رأيت أبا عين كريمة، يدفع عربته

الخشبية، واضعًا فيها امرأة عجوزًا، هي زوجته على الأغلب، قاصدًا الأسواق، ليبدأ نهارًا جديدًا. كان ينقل، كجزء من عمله في سوق الخضار، المشتريات لمن يرغب من المتسوّقين، حتى منازلهم.

في المرّة التالية التي وصلت فيها الخليل، اختفى فيها غازي وأبو عين كريمة، وعلمت ممّن يذكرهما على باب الحرم الإبراهيمي أنّهما غادرا، ماتا، ودُفنا في المقابر المخصّصة للفقراء الذين لا ناس لهم أو أهل يدفعون تكاليف دفنهم.

لم يستطع أحد أن يخبرني عمّا حل بزوجة أبي عين كريمة.

مُعين عبد ربه

ارتباط المجانين بالسياسة أمر مثير للانتباه، فالمجانين الذين عرفتهم في دير المجانين، لديهم، مثل جميع البشر، اهتمامات في الدين والجنس والسياسة. وعندما كنت أتمكن من الدخول إلى أقسام المجانين، أحيانًا، ولفترة قصيرة، بإذن من أحد المعارف التمرجية أو الأطباء، أرى بين المجانين شيوخًا يصلّون ويؤمّون غيرهم في الصلاة، وبعضهم يعلقون المسابح في أعناقهم، ويرتدون عمائم، وجلابيب. أما مسألة الجنس، فارتباطها بالسياسة كان واضحًا، على الأقل بسبب القاموس الجنسي المستخدم من قبل كثير من المجانين للتعبير عن آرائهم السياسية وفي وصفهم لبعض السياسيين.

وأبرز مثال على ذلك هو السبعاوي، المجنون الذي يرتدي بذلة سوداء، يضع في ياقتها وردة حمراء، ويرتدي طاقية شبيهة بتلك التي يضعها المتديّنون اليهود على رؤوسهم، ويجلس قرب باب الخليل بالقدس، يستمع للمحطات الإخبارية باهتمام، ثمّ يطلق تعليقات لاذعة بحق الحكام العرب، بصوتٍ عالٍ، عندما يستوقفه خبر ما، وما بين طلبه للمتجمّعين حوله الصمت ليسمع بدقةٍ خبرًا ما، وصرخاته، يقف في كثير من المرّات، وجهه إلى الراديو، شاهرًا مؤخّرته إلى المتجمّعين وهو يصف العرب بالعملاء والجواسيس، والقليلي الأدب، ويحدث أن يرفسه أحدهم برجله على مؤخّرته، فتثور ثائرة السبعاوي، ويكون لديه الاستعداد ليلاحق الرافس في أزقة القدس وشوارعها القديمة، وغالبًا

لا يمسك به، فيقف جانبًا، ثمّ ترتفع عقيرته بالغناء لفيروز «شوارع القدس العتيقة»، قبل أن ينتبه للعودة بسرعة حيث مذياعه، وبعض متعلقاته.

التعليم والثقافة والذكاء، أسباب للجنون؟! وسأضيف إليها أيضًا السياسة...

في عام 1984، زرت كاتبًا مسرحيًا اسمه مُعين عبد ربه، في دير المجانين، بطلب من صديق، نسيت اسمه. كنت وصديقي (لنسمِّه شاكرًا وقد يكون الاسم قريبًا من ذاك الحقيقي الذي لم أعد أذكره، برغم المعزّة التي ربطتني به)، على وشك الدخول في مغامرة مجنونة. كان كلانا من الكوادر الطلابية في تنظيم ماركسي لم نعد راضين عن أدائه. وكنا كلانا قد ضقنا ذرعًا بما وصفناه بالقيادة الفاسدة غير المؤتمنة والمطواعة للاحتلال، كما بقيادة منظمة التحرير التي كنّا نصِمُها باليمينية المفرطة.

درتُ وشاكرًا على مناطق مختلفة في فلسطين، من أجل الإعداد لتأسيس تنظيم ثوري راديكالي لا يعرف المساومة أبدًا، وأذكر أنّ مغامرتنا قادتنا إلى المثلث الفلسطيني، ذلك الذي ذهب إلى إسرائيل في مفاوضات فندق الوردة البيضاء في جزيرة رودس، نتيجة جهل المفاوضين العرب بالخرائط. وهي فضيحة تكرّرت كثيرًا بعد ذلك، وأدّت إلى خسائر كثيرة لاحقة لقرّى جنوبي القدس، كما شكّلت ملمحًا مهمًّا من الملامح المجنونة التي صبغت مفاوضات أوسلو.

أذكر أننا زرنا أصدقاء لنا في قرى المثلث تلك، بشكل لا علاقة له بتنظيمنا العتيد، وتعشّينا في منزل الشاعر عبد الرحيم عمارة الذي أعارني مجموعة كتب للشاعر نجيب سرور، ما زالت بحوزتي، من بينها رباعيات كتبها في مستشفى للمجانين في مصر.

عندما أخبرني شاكر بوجود صديقه الكاتب المسرحي في الدير، طالبًا مساعدتي لرؤيته باعتباري من أهل المكان، تحمّست أكثر ممّا تصوّر شاكر، واعتقدت أنه إذا كان بإمكاني تقديم مساعدة للكاتب المجنون، بتوصية ممّن نعرفه من تمرجية، فإنه أمر بالغ الأهمية.

ذهبنا إلى الدير، ووفقنا بأكثر ممّا توقعنا، سمح لنا صديق تمرجي، لا فقط برؤية مُعين عبد ربه، من خلال قضبان غرفة العنبر الموجود فيه، كما

طلبنا، للاطمئنان عليه، ولكنّه فتح العنبر وسمح لنا بالدخول، لنكون وسط المجانين.

وجدنا أنفسنا وسط تجمّع بشري غريب. رجال يرتدون أزياءً مختلفة، بعضها غريب، منهم مَن يجلس على السرير، ومنهم مَن يسير يعتصر سيجارته، وآخرون وجوههم هائمة لا يلوون على شيء.

أوّل انطباع تولّد لدينا، بعدما استوعبنا التنوّع في هذا التجمّع البشري، هو السطوة الأخلاقية الممنوحة لكاتبنا، من قبلهم، في إبداء ملاحظات لهم، والطلب منهم الهدوء، أو الجلوس، أو الابتعاد عن الباب ليدخل الهواء.

ولم يكن هناك مسوّغ لهذه السلطة، كما عرفنا لاحقًا، سوى ما لمسه هؤلاء المجانين، في الكاتب المسرحي، بأنه يمكن أن يكون أعقلهم، وأقدرهم على إدارة أمورهم اليومية، والتفاهم مع التمرجية.

وكان هذا المسوّغ مبرّرًا جدًا كما لمسناه، من اللحظات الأولى من لقائنا مع الكاتب، فلم تكن هناك أيّ علامات يمكن أن تشير إلى أنّ لوثة الجنون أصابته، إلا إشعاله سيجارة من أخرى، ومصّها بطريقة مجنونة.

كان مُعين هادئًا، لبقًا، يتحدّث بأدب جمّ، ولا يقطع حديثنا إلا للرّد على طلب أحد المجانين، أو قول كلمة تحمل شكوى مجنون آخر، وهكذا.

وبرغم ذلك، كان مُعين أوّل مجنون أقابله يعترف بوعي بأنه مريض، وبحاجة فعلاً لتلقّي العلاج، ولكن ليس في هذا الدير، الذي وصفه بالسجن.

أعلن مُعين أنه لا يثق بالنساء، وأن الرجل أكثر إخلاصًا من المرأة، وأن هناك فروقًا حقيقيّة في طريقة التفكير بين الرجل والمرأة، وأن فلسطين لن تتحرّر، إلا إذا تشكلت طليعة حزبية تحمل أفكارًا تروتسكية، وهذا غير ممكن في المجتمع الفلسطيني التقليدي، ونظر إلينا مؤكدًا:

– لا يغرّنكما ما يمكن أن تعتبراه تقدّمًا في هذا المجتمع، إنه عشائري وفلّاحي ومشوّه حتّى العظم... حذار، حذار أن تغفلا عن ذلك...!

شعرت بأنه كان يقرأ أفكارنا، وأنه أدرك بالحدس ما ننوي فعله، دون أن يطرح أيّ منّا فكرة التنظيم الراديكالي أمامه، فأيقنت مدى ذكائه، وكم نحن مفضوحون طفوليون.

بعد مرور بعض الوقت، أصبح وجودنا محرجًا لصديقي التمرجي، الذي ساعدنا على الدخول ومقابلة مُعين، فطلب مني الاستعجال، واستجبت له على الفور، إلّا أن مُعينًا احتجّ واستكبر أن نخرج من عنده دون أن نشرب شيئًا، ويبدو أن أصدقاءه المجانين فهموا عليه، أو كانوا ينتظرون لحظة مثل هذه، حتّى تقدّم عدد منهم، حاملين لنا كاسات فيها ماء، بينما كان معين يعتذر لعدم وجود شاي أو قهوة.

وعندما خرجنا أخيرًا، محتارين، بين إلحاح صديقي التمرجي علينا بالخروج، وإلحاح مُعين ورفاقه بأن نبقى أطول فترة ممكنة، وقفنا خارج باب القسم المغلق، وفي الجانب الآخر من الباب وقف مُعين وأصدقاؤه، وأخذ بعضهم، كأنّهم بوغتوا بخروجنا وتنسّمنا الحريّة التي يفتقدونها، بتحميلنا سلامات وطلبات لأهلهم، منهم مجنون من دير غسانة، رأسه معصّب بشاش طبي، فهمنا منه أنه أُصيب بطوشة، فجُلب إلى الدير، في ظروف لم نفهمها. أوصانا مجنون دير غسانة بالذهاب إلى أهله حاملين قائمة توصيات تتعلق بشؤون الحرب والسلام مع عائلة الطرف الآخر في الطوشة. أما معظم طلبات المجانين التي سمعناها منهم متداخلة، فتتلخص برسائل لأهلهم بأن يأتوا ليزوروهم، ويخرجوهم.

ودّعنا مُعين وداعًا أخيرًا، ولحظت دمعة نزلت من إحدى عينيه، وهو يشفط سيجارته عُمر الرديئة. قال:

– سنلتقي قريبًا!

والتقيت مُعين، بعد سنوات، في مسرح الحكواتي بالقدس، كان مشاركًا كتابة وإخراجًا، في إحدى المسرحيات، ولكنّه لم يظهر أمامنا، وفي الاستراحة، قصدت الكواليس، لأسلم عليه، وأحيّيه على العمل، شادًا على يديه، لمعرفتي بوضعه كمجنونٍ سابق، يحتاج إلى دعمٍ معنوي على أيّ عمل إبداعي يضطلع به. بعد بحث، وجدته منزويًا، مرتعدًا من الخوف، وعلمت من أصدقاء في المسرح ان أشقاء زوجته سمعوا بعلاقة ربطته بفنانة مسرحية، وكانوا ينوون مفاجأته بضربه أمامها، وأمام النّاس في المسرح، لذا فهو متوارٍ عنهم، بينما يتولى آخرون امتصاص غضبهم، منكرين وجود مُعين في المكان، حتّى تمضي هذه الليلة على خير.

سمحت لنفسي بأن أقارن بين وضع مُعين في دير المجانين، ولياقته النفسية المقبولة نسبيًا، وبين ارتعاده خوفًا في «دير العقلاء».

سلمت على مُعين. أظن أنه لم يعرفني، أو لم يُرد أن يعرفه أحد في الظرف المحرج الذي وجد نفسه فيه، لكنّني عرضت على زملائه أن أستضيفه في بيتي، متعهدًا بحمايته. في النهاية، أسهمت في ترتيب مبيته لدى صديق مشترك في منزل الأخير في بلدة العيسوية، شرقي القدس.

سهرنا ثلاثتنا: مُعين، وأنا، وصديقنا العيساوي، على سطح منزل الأخير. التزم مُعين الصمت، وخشيت أن يتجلى جنونه بصمته وأن يطول هذا الصمت، لكنني منّيت النفس بأنه لن يكون إلا مؤقتًا، وآنيًا.

بعد تلك الليلة،لم أعد أسمع بأيّ نشاط لمعين، وعندما أسأل أحدًا عنه، أسمع أخبارًا متفرّقة ومتناقضة عنه، حتّى فوجئت به في انتفاضة الأقصى.

عميد عالم جمّال

لم يكن أحد يتصوّر أن يرتبط اسم الدهيشة بفعل سياسيّ على مستوى إقليمي تجسّد بقصة عميد عالم جمّال، أو عميد العرتوفي، كما عرفه النّاس.

تقع قرية عرتوف غربي القدس، وتبعد عنها نحو 30 كلم، وكان مُقدّرًا لهذه القرية الصغيرة الهادئة أن تكون على موعدٍ، مثل باقي الأراضي الفلسطينية، مع الغزوة الاستيطانية، وأن تعيش الصراع الدموي الذي رافقها. وصل ذاك الصراع إلى ذروته عام 1948، وكان على سكان القرية وعددهم في ذلك العام نحو 350 نسمة، أن يدافعوا عن قريتهم وأرضهم في وجه العصابات الصهيونية التي كانت منظمة وتعمل ضمن خطط للاستيلاء على المناطق الفلسطينية ومن بينها تلك البلدات غربيّ القدس. قادت الهجوم على القرية فرقة من منظمة الهاغاناه بقيادة ضابط سيصبح مشهورًا جدًا في ما بعد وهو رفائيل إيتان قائد الجيش الإسرائيليّ والوزير في ما بعد، والذي تُوفي غرقًا في ميناء أسدود. وفي مواجهة قائد مثل إيتان، لم يكن لدى سكان القرية إلا أربع بنادق، اشتراها أصحابها بعدما باعوا مصاغ زوجاتهم.

وفي أثناء تقدّم اثنين من المقاومين للدفاع عن قريتهما، أُصيب أحدهما واسمه أحمد عبد الفتاح نتيجة قصف الطائرات، وتدلّت إحدى يديه، فحمله زميله وسار به نحو مدينة بيت لحم لعلاجه في المستشفى الفرنسي في المدينة. كُتبت الحياة لعبد الفتاح، وانخرط في ما بعد في حزب التحرير

الإسلامي الذي أسّسه في القدس الشيخ تقي الدين النبهاني، بعدما انشقّ عن الإخوان المسلمين، وكفّر كلّ الأنظمة العربية، جاعلاً من إعادة الخلافة الإسلامية أحد أهدافه، وربما هدفه الأوحد. وبعد احتلال ما بقي من الأراضي الفلسطينية عام 1967، وصل الإسرائيليون إلى عبد الفتاح في مخيّم الدهيشة، حيث عاش بعدما دُمّرت قريته عرتوف وهُجّر جميع سكانها، وأبعدوه إلى الأردن، ليعيش في إحدى ضواحي مدينة الزرقاء.

ومن بين الذين هُجّروا من القرية أحد شبابها واسمه عالم جمّال، حطت به الرحال في بلدة صويلح الأردنية. تمتّع عالم بصفات كثيرة أحبّها فيه كلّ من عرفه، وكان معتدًّا بنفسه إلى حدٍ كبير، وشهمًا وكريمًا، وأصرّ على الزواج بفتاة أحبّها من خارج القرية من جبل الخليل، وهو أمر لم يكن كثير الحدوث في ذلك الحين، وتجشّم مشاقّ كثيرة، حتّى ظفر بها. وكان على عالم، الذي تحدّى التقاليد من أجل مَن أصبحت زوجته، أن يخوض، بعدما فقد كلّ شيء: الأرض والوطن والآمال، تحديًا من نوعٍ جديد، مع واقع اللجوء الصعب.

افتتح عالم في بلدة صويلح مطعمًا لبيع الحمص والفلافل، وفي هذه البلدة الأردنية أنجب عددًا من الأبناء، من بينهم، سنة 1956، عميد، الذي نشأ، مثل معظم الأبناء الفلسطينيين من جيله، على حكايات الأهل عن البلاد التي تركوها، وعن البنادق الأربع، والمقاوم الجريح أحمد عبد الفتاح، ونشأ عميد ضمن تربية دينية، منجذبًا إلى أفكار حزب التحرير، خصوصًا أن آخرين من العائلة كانوا من أعضاء الحزب أو متعاطفين معه من بينهم أحد أبناء عمومته.

أظهر عميد تفوّقًا في دراسته، وما إن أنهى المرحلة الثانوية، حتّى بدا طريق المستقبل واضحًا لديه ولدى عائلته: الدراسة في جامعة الأزهر ما دامت ميوله وثقافته دينية.

وصل عميد عالم جمّال، إلى القاهرة في أوائل سبعينيات القرن العشرين، حاملاً معه أفكار حزب التحرير المكفّرة للأنظمة، والتقى هناك مع دكتور في الفلسفة، فلسطينيّ هو الآخر، اسمه صالح أبو سريّة، أكثر تعمّقًا منه في أفكار حزب التحرير. قاد أبو سريّة، مع مجموعة من الطلاب، هجومًا

معروفًا على مبنى الكلية الفنية العسكرية عام 1974، وكانت خطته الزحف وقتل الرئيس السادات والاستيلاء على الحكم لإقامة الخلافة الإسلامية.

كما هو متوقع، فشلت مغامرة أبو سريّة، ومن ضمن الذين اعتقلوا معه عميد عالم جمّال، الذي بُرّئ وأُطلق سراحه، بينما أُعدم أبو سريّة ورفيق له، وحُكم على الباقين بين خمس سنوات والمؤبد. أكمل عميد تعليمه الجامعي في مصر بالأزهر في كلية أصول الدين - قسم الحديث، وذلك من سنة 1975 إلى سنة 1979. واجتهد في تلك الفترة في تجميع طاقات الشباب ودعوتهم إلى العمل الجهادي ضدّ الحكومات المرتدّة، فاعتقل بعد حصوله على الليسانس لمدة ستّة أشهر بتهمة تأسيس تنظيم جهادي، وذلك ضمن حملة الاعتقالات التي جرت على أثر هروب أحد الشباب من السجن وهو حسن الهلاوي. ثمّ أُفرج عنه وتابع دراسة الماجستير، وبعد سنة رُحِّل في أثناء تأديته للامتحانات إلى الأردن، وقد مضى عليه في مصر أكثر من تسع سنوات، وبدأ يحضر للدكتوراه، وخلال كلّ ذلك، أصبح معروفًا في أوساط الحركيّين الإسلاميين الذين بدأوا يظهرون في محافظات مصر، وكان لعميد تلامذته ومجموعته ومن بينهم مَن أصبح معروفًا في ما بعد مثل كمال حبيب، الكاتب والباحث الإسلامي، الذي نسّق بين مجموعته التي سُمّيت «مجموعة عميد عالم الجمّال» ومجموعتين أُخريين لاغتيال السادات.

وتحدّث كثيرون عن دور عميد في تلك المرحلة الهامة من تاريخ مصر والمنطقة وجماعات الإسلام السياسيّ، ومن بينهم محامي الجماعات الإسلامية منتصر الزيّات الذي ذكر أنه التقى في بدايات عام 1980 بالحركي أحمد هاني الحناوي، وهو من جماعة عميد، وعرّفه إليه. ويصفه الزيّات قائلاً: «كان أقرب إلى القِصر منه إلى الطول، أصلع خمريّ اللون يشعّ من عينيه الذكاء، وكان عمره حوالى 29 عامًا». ويذكر الزيات أن عميد حدّثه عن ضرورة قيام دولة إسلامية، ونصحه بقراءة «فقه الجهاد في سبيل الإسلام» للإمام الشوكاني. وقال له إن طريق الدعوة الإسلامية يمرّ بمراحل عدة، الأولى، مرحلة الدعوة باللسان، والثانية مرحلة زجر المتلقين بشيء من التخويف، والثالثة تكون باليد، أي بالعنف.

ويشير الزيّات إلى أن عميد كان «يردّد أن مصر هي أكبر دولة عربية وأن الحركة الإسلامية فيها ينبغي أن تقوم بدورها من هذا المنطلق، وأن صالح سريّة جاء إلى مصر وهو يدرك أنه إذا تحرّك الشعب المصري فستتحرك الشعوب العربية كلُّها لاقتلاع الأنظمة الحاكمة».

وأبلغ عميد الزيّاتَ بأن في تنظيمه ضباطًا في الجيش المصري مستعدّين لإسقاط النظام بالقوة، وشرح له فكرة القيام بثورة شعبية، كما أخبره أن تنظيمه يضمّ مجموعات عنقودية لا يعرف بعضها بعضًا على رغم اتصالها فكريًا.

وبرغم أن الزيّات يشير إلى أنه لم ينصح جماعته بالارتباط بتنظيم عميد، يقول: «كنّا نجهّز لتوحيد المجموعات الجهادية من أجل إسقاط الأنظمة العربية وإقامة دولة الخلافة الإسلامية، وهذه أفكار نابعة من حزب التحرير الذي كان ينتمي إليه عميد عالم جمّال في الأصل. كان عميد يرغب في أن نبدأ بمصر ثمّ يتمّ تصدير الثورة إلى بقيّة الدول العربية، وفقًا لنموذج الثورة الشعبية التي اندلعت في إيران في 1979 بتحريض من آية اللّه الخميني».

جميع الذين أرّخوا لتنظيمات الإسلام السياسيّ في مصر كانوا يتوقفون عند مسألة إبعاد عميد عالم جمّال إلى الخارج، ولا ينسون الإشارة إليه باعتباره «الإسلامي الغامض».

ويذكر الزيّات أنه ذهب إلى موعدٍ مع عميد عالم جمّال، فلم يجده لأن السلطات المصرية أبعدته إلى الخارج في أوائل كانون الثاني (يناير) 1981. ويقرّ الزيّات بأن عميد أدّى «دورًا محوريًا في توحيد التنظيمات الجهادية في مصر، إلّا أنه كانت هناك علامات استفهام كثيرة في شأنه». ويقول إن المشكّكين فيه كانوا يتساءلون من أين جاء وكيف وما هي أغراضه؟

تنتهي قصة عميد عالم جمّال، لدى الذين كتبوا عن تلك المرحلة، عند ترحيله من مصر. إلّا أن ما حدث بعد إبعاده، وفقًا لشهادات جمعتها من مقربين منه، هو أنه وصل إلى الكويت، ليحظى بحماية إسلاميين ومساندتهم في هذا البلد الخليجي الذي فيه حركات إسلامية متنوّعة ولا سيّما أنصار لحزب التحرير الإسلامي.

من بين جميع من التقيت، لم يستطع أحد الجزم بشأن شكل العلاقة التي ربطت عميد عالم جمّال بحزب التحرير بشكل رسمي، أو عمّا إن كان نشاطه السابق في مصر جزءًا من خطةٍ ما للحزب، خصوصًا أن استراتيجية الحزب المعروفة تقوم على أساس التثقيف والتحضير لإقامة الخلافة. أمضى عميد في الكويت بين عامين إلى ثلاثة أعوام، ولكن يبدو أن هناك أجهزة أمنية عربية، من بينها تلك المصرية، لم تكن أسقطت عميد من حساباتها، وربما مارست ضغطًا على الكويت لإبعاد جمّال من أراضيها.

هكذا، أبلغ الرفاق الكويتيون عميد أنّهم لم يعودوا قادرين على حمايته وتوفير ملاذ آمن أو حتّى غير آمن له، فقرّر بنفسه، أو ربما معهم، أنه لا بد له من العودة إلى الأردن، وإلى مسقط رأسه: صويلح.

استقبلت عائلة عميد ابنها العائد بكثيرٍ من الترحيب والشوق، ووجد عميد مزيدًا من شبان ورجال ونساء ينظرون إليه باحترام تسبقه سمعته حول عِلمه وتعليمه وسجاياه. ومثلما هو متوقع، اختارت له العائلة إحدى فتياتها ليتزوّجها، ولكنّ شهر العسل بالنسبة له لم يطُلْ، لا مع زوجته ولا مع الحكومة الأردنية، التي اعتقلته. لا تتوفّر معلومات عن النشاط الذي مارسه عميد لتعتقله الحكومة الأردنية، ويمكن أن يكون اعتقاله تمّ ضمن الحملات الدورية من الحكومة على نشطاء حزب التحرير، أو الإسلاميين الحركيين، كما كان يتوقع أقرباء له في مخيّمنا يتابعون أخباره.

إلا أن تجربة الاعتقال انتهت بشكل مأساوي، وعندما أفرجت الحكومة الأردنية عن عميد عالم جمّال، بعد نحو عام من اعتقاله، لم يكن هو نفس الشخص الذي اعتقلته، فقد أُصيب داخل السجن بمرض عقلي.

كتب الحركي الاسلامي أبو قتادة المقدسي مقالاً عن عميد، تطرّق فيه إلى مسألة مرضه: «سافر إلى أفغانستان لنصرة الجهاد الأفغاني ودخل في الجهاد هناك... ثمّ رجع إلى الأردن بعد ذلك ونشط في مجال الدعوة والعمل الإسلامي، فاعتقلته المخابرات الأردنية بتهمة ترؤس تنظيم جهادي ضدّ نظام الحكم... ومكث قيد الاعتقال في زنازين المخابرات أربعة عشر شهرًا كاملة صبّوا عليه ألوانًا لا تُطاق من العذاب وأوذي أذىً شديدًا ومع هذا فإن إخوانه

الذين كانوا معه في الاعتقال شهدوا بأنه ثبت ثباتًا عجيبًا ولم يخضع لأولياء الطاغوت أو يخنع لهم ولا أعطاهم ما يريدونه... وهذا ما جعلهم يغتاظون منه أكثر فيصبّون عليه ألوانًا من العذاب شتّى... ومن غير المستبعد أن يكونوا جعلوا في طعامه أو شرابه عقارًا أذهب عقله فأصيب على أثر ذلك بانفصام عقلي أخرج على أثره وحكم بالإقامة الجبرية لمدة سنة ثمّ حُجز في القسم القضائي في الصحّة النفسية (مستشفى الأعصاب) تحت الحراسة... في منطقة الفحيص إحدى ضواحي عمّان الغربية».

بعض مَن عرف عميد بعد خروجه من السجن، أكدوا أنه أصيب بمرض نفسي كان يجعله دائم الشكّ في كلّ مَن حوله. وتوالت الأحداث الدرامية في حياة عميد، فطلق زوجته، ثمّ وقع ما هو الأسوأ، ففي أثناء مناقشة بينه وبين والده حول قضية عاديّة، يحلو لعارفيه أن يقولوا إنها تافهة، استلّ سكينًا وطعن والده حتّى الموت.

كان الحدث فوق التصوّر، واعتُقل عميد الحركي المطارَد، ولكن هذه المرّة بتهمة جنائية. وحُكم عليه بالسجن وأودع مستشفى الأمراض العقلية، حيث هو الآن، غير مدرك أن اسمه ما زال يتردّد كأحد المسؤولين عن بثّ فكر تلك الحركة التي أقلقت وما زالت، دول المنطقة والعالم.

طبعًا، للمقدسي رأي آخر: «... وقد زاره كثير من الإخوة في مستشفى الأعصاب فوجدوه في حالة طبيعية جـدًا... ويشهد له الأطباء هناك أنه طبيعي وليس بمريض، ولكنهم يقولون إن الذين يُحالون على هذا المكان لا يمكنهم الخروج منه إلا بتقرير طبّي ينص على الشفاء التام، وقوانين هذا المكان تنص أنه ليس هناك شفاء تام لمثل هذه الحالات..!!!، وأخونا إلى اليوم ثابت لم ييأس من روح اللّه.. وهو قائم ولله الحمد بالصلوات الخمس ويصلي الجمعة بمن عنده ويخطب فيهم ويتابع أخبار الإخوة في مصر والجزائر وأخبار أفغانستان والبوسنة والهرسك.. وكل مَن زاره وجد أن قواه العقلية طبيعية وذاكرته ممتازة، وعزيمته طيبة لم تفتر.. وإيمانه لم يخمد.. فهو يحدّثك عن مصر وقصّته مع العمل الجهادي والتنظيمي هنا وهناك وآماله وطموحاته..».

أما في مخيّم الدهيشة، فتُذْكر قصّة عميد عالم جمّال، أو عميد العرتوفي، بكثيرٍ من الحسرة، والحزن، والغموض.

أميرة علاء الدين محمّد

في عام 1990، كنت أتمشى على مهل، في الشارع القريب من دير المجانين، في طريقي من المخيّم إلى بيت لحم، أتفقد ما أحدثه الزمن من تغيير، بعد غيابي عامين عن الوطن، الذي كان ناسه آنذاك مفعمين بالأمل، أمَل انتفاضة الحجارة، وفجأة، توقفت بجانبي سيارة حديثة، خرجت منها امرأة في الأربعينات، تشي هيئتها بجمال بدأ يذوي، وبأرستقراطية تذوي هي الأخرى.

أمسكت المرأة بتلابيبي، وأصبحت خلفي، بينما أصبح مَن تبعها من رجال ترجّلوا هم أيضًا من السيارة في مواجهتي.

قالت المرأة:

– أرجـوك... ساعدني، يـريـدون أن يتخلصوا مني، ويودعوني دير المجانين..!

تحدّث معي الرجال، بكثير من التهذيب والحنق المكتوم، محاولين أن يشرحوا لي أنّ قريبتهم هذه، أختهم، وابنة عمهم، مريضة فعلاً، وأنها كانت في إجازة من المستشفى، وهم الآن يريدون أن يعيدوها لتستكمل العلاج.

أخذت المرأة تصرخ وتولول، وتبصق، وتتهم أقرباءها بأنّهم يريدون أن يجنّنوها من أجل تحقيق مكاسب معيّنة، لم أستطع أن أفهم شيئًا عنها.

لم يكن هذا المشهد غريبًا كليًا عليّ، فمعظم المجانين الذين قابلتهم في الدير وخارجه، يرفضون جنونهم، ويتصرّفون بكثير من الذكاء مستخدمين

القيم (إن جاز التعبير) السائدة في عالم العاقلين الموازي لهم، للتأثير على محدّثيهم، لنفي صفة الجنون.

قالت لي المرأة، بعدما تمكنت بفضل ثورتها، وتقهقر الرجال، من أن تحرّر مساحة من الأرض تجعلها تنتقل من خلفي إلى جانبي:

– انظر إليّ، هل شكلي شكل مجنونة، وأنا اسمي أميرة؟

وبالطبع لم يكن شكلها ليدلّ على أيّ صلة بالجنون، من بقايا الجمال، إلى اللباس الذي ترتديه، إلى قوامها الذي أخذت باستعراضه بجرأة، قائلة:

– كيف يمكن أن يكون هذا الجمال مجنونًا؟

كنت قد استوعبت الموقف، وحاولت التوفيق بين واجبي المفترض في نصرة المرأة، ومحاولة تفهّم ما يقوله رجال العائلة، وسعيهم لإعادة قريبتهم بدون ضجيج وفضائح في الشارع، إلى دير المجانين.

قلت للمرأة:

– بالطبع لا يمكن أن تكوني مجنونة، ولكن...؟!

طلبت سيجارة، وبعدما أشعلتها قالت:

– أنتم أيّها الرجال دائمًا لديكم ولكن... لكن عند الحب، ولكن عند الزواج، ولكن عندما ينام أحدكم مع المرأة، ما قصّة هذه اللاكن؟

أدركت أنّ بإمكاني التحكم في دفة الأمور، لإيجاد حل يرضي جميع الأطراف، ما دامت المرأة أبدت رغبة في الحديث والفضفضة، وكان ذلك بالنسبة إليّ يعني حل نصف المشكلة.

– كما تعلمين، كلنا محكومون بالأسئلة في حيواتنا، الحياة سؤال كبير...

ولم تدعني أكمل، وفي هذا الأثناء بدأ المطر ينزل خفيفًا ثمّ أقوى، فأحكمت وضع شالها الصوفي على عنقها، وأخفت السيجارة في يدها لتحميها من المطر، وقالت وهي تُوجّه نظرات دالة نحو أقربائها الذين بدأت تظهر عليهم علامات الضيق:

– نعم، أنت رجل تفهم، وهذا أمر نادر، لماذا أتينا إلى الدنيا بدون أن يسألنا أحد؟ ثمّ تقرّر جنسنا، رجل وامرأة، بدون خيار، ولم يحقّ لنا اختيار العائلة، ولا الوطن، ولا الزواج، ولا أيّ شيء..!

وتابعت:

– هل تعرف أنني زوجة الوزير الأردني السابق علاء الدين محمّد. لم أرغب بهذا القدر، ولكنّه ابن عمي، والزيجة أتت نتيجة التقاء مصالح، قد تقول إن هذه مجنونة لأنها ترفض قدرها هذا، وزارة، وجاه، ومال، اعتبرني مجنونة فعلاً، لا أريد هذا كله.

لمزيد من احتواء الموقف، اقترحت أن ننتقل إلى قرب جدار بناية قريبة، لنحمي أنفسنا من غضب السّماء الذي بدأ يشتدّ، وافقت المرأة والرجال الذين يتبعونها، بسبب المطر الكثيف أكثر من أيّ شيء آخر.

لا أعرف كم عدد السجائر التي دخّنتها المرأة، في وقفتنا التي تطرّق فيها النقاش إلى أمور لم تخطر على بالي، من نجيب محفوظ إلى الطيّب صالح إلى توفيق الحكيم ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، وطوال هذا الوقت استمرّ صمت الرجال على مضض. فقد كانوا يترقبون نهاية الموقف المحرج الذي وضعتهم فيه قريبتهم المجنونة، ورأيت في عيونهم كم تمنّوا أن تقع على الأرض فجأة جثّة هامدة، ليخلصوا منها ومن هذا الموقف، بعدما فاجأتهم بخروجها من السيارة، وخرّبت مهمّتهم التي تقضي بإيداعها دير المجانين.

كنت أعتزم طرح حل اعتبرته وسطًا، دون أن يكون لديّ ثقة بأنه سيُطبَّق، لكن بدا لي أنه سيشكل مخرجًا آنيًا للموقف الذي تزداد وطأته ثقلاً، مع مرور الوقت ببطء، وهو أن توافق المرأة على العودة إلى الدير، لتلقي العلاج، ما قد يستغرق أيامًا، لكنها ستكون أيامًا محدودة، تعود بعدها إلى منزلها وأولادها. إلا أن المرأة فاجأتنا جميعًا عندما قالت:

– لنذهب إلى المستشفى. لنذهب إلى الدير الذي مَن دخله لن يخرج منه عاقلاً أبدًا...!

سلّمت عليّ المرأة، وسلّمت أمرها، واتجهت نحو السيارة التي ستقلها خلال دقائق إلى مكان تعتبره جحيمًا. لم يكن استنجادها بي سوى نوع من تأخير قدر مُقدَّر، فهي تدرك أنني مجرّد عابر، لن يستطيع أن يقدّم لها شيئًا. مجتمع العاقلين جميعه لا يفهمها ولن يفهمها، وإن أظهر غير ذلك، فالعاقل في النهاية يتعاطف ويتآمر مع أخيه العاقل، ضدّ المجانين.

شكرني الرجال العاقلون على جهودي في تهدئة المرأة المجنونة، وأعربوا عن أسفهم لأيّ إزعاج تسبّبت وتسبّبوا به، ورجَوْتهم بصدق، وأنا أشعر بعجز ما، أن يأخذوا بالهم منها، فردّ عليّ أحدهم:

– لا تعرف كم هي عزيزة علينا... ولكنّها مريضة، وعندما تغيب أكثر من اللازم عن المستشفى وتكون بعيدةً عن إشراف الأطباء تسوء حالتها، ولكننا سنأتي لأخذها بين الفترة والأخرى في إجازات.

سمحت لنفسي بأن أصدّق ما قالوه، برغم علمي أنّ الأهالي يتنكرون لمجانينهم ومجنوناتهم، يأتون بالمريض أو المريضة، وبعد استكمال إجراءات الدخول إلى الدير، يشعر الأهل بأنّهم فعلوا ما يجب فعله، وأنهوا واجبهم، وفي معظم الحالات تصبح الزيارات متباعدة حتّى تنقطع، ولا يعودون مرّة أخرى إلّا عندما يموت المجنون، فيتسلّمون الجثّة لتُدفن عند أهلها، أما المجانين الذين لا أهل لهم، أو الذين اختفى أهلهم، فإن الموت يفرزهم طائفيًا، فالأوقاف الإسلامية تتولى دفن المجانين المسلمين، والكنائس المسيحيّة تتولى دفن المجانين المسيحيين، ويظهر في فناء الدير فجأة شيخ معمَّم ليصلي على المجنون إن كان مسلمًا، أو قسّيسًا ليصلّي على المجنون المسيحي. هذا في الحالات التي يكون فيها حظ المجنون الميت جيدًا، أما إن كان غير ذلك، فسينتظر تمرجيًا يتطوّع لدفنه.

قصّة هذه المرأة، على أبواب الدير، قصّة نموذجية تتعلق بالنساء حصرًا، ربّما لأن الرجل، حتّى لو كان مجنونًا، يظلّ متشرّبًا بما يزرعه المجتمع فيه من دور، كشخص قوي يعتبر الاستنجاد أو التمسكن سمةً لا تليق برجولته تحت أيّ ظرف.

وللمرأة في الدير قصص وحكايات... ففي الفترة التي صادفتُ فيها تلك المرأة، عبّرت المجنونات عن انتمائهن للمجتمع الذي حبسهن خلف جدران الدير، بالشكل الذي ساد خلال انتفاضة الحجارة، فقاد الجيل الشاب من المجنونات، الموازي لجيل الحجارة، حصة نزلاء ونزيلات الدير في الانتفاضة، فخرجت المجنونات خارج أسوار الدير، إلى شارع الجبل، ورأيت حماستهنّ وهنّ يضعن متاريس من الحجارة لإعاقة سيارات جنود الاحتلال من المرور.

ورأيتهن أيضًا متسلحات بالحجارة في انتظار الجنود، ورأيت أكثر من ذلك... إحداهن، وهي تتلفع بالحطة المرقطة بالأسود والأبيض الأثيرة لدى الختيار، وتحمل حجارة في يديها، سارت وحدها تبحث عن جندي احتلالي أو سيارة عسكرية إسرائيلية لترشقها، ولكنها لم تجد، فجلست قريبًا من أسوار الدير، تصرخ باسم فلسطين والوطن، وتهتف شعارات الانتفاضة. حاولت تهدئتها، ونصحتها بأن تعود إلى الداخل، خشية على حياتها، لأنني رأيت في ما تفعله أمرًا انتحاريًا، سيعرّضها بالتأكيد لخطر إطلاق النار عليها، وهي الوحيدة المكشوفة، فصرخت في وجهي، وهدّدتني برشقي بالحجارة إن لم أبتعد، ووصفتني بالمتخاذل.

ولكنّ مثل هذه المشاهد أصبحت جزءًا من الماضي، ونسيها النّاس. وإن كان أعضاء التنظيمات طالبوا، مع تأسيس السلطة الفلسطينية، بما رأوا أنّهم استحقوه من وظائف نظرًا لتاريخهم النضالي، مشرّعين أبواب الفساد الوظيفي على آخره، فإن مجنونات الانتفاضة تلك، وزملاءهن المجانين، لم يطالبوا بشيء، ولم يطالب أحد لهم، وبعد فترة قصيرة من تأسيس السلطة، تحدّث المجانين عن أيّام الاحتلال والكفاح، بنوعٍ من الحنين.. العميق.

شفيقة المصري

وجود المجنونات في الدير كان دائمًا مثار اهتمامنا، نحن ذكور الدهيشة، خصوصًا عندما نُفاجأ بمجنونات لا يدخلن رسميًا ضمن عداد المجنونات لكن يحملن سمات الجنون ويعشن بيننا، من كبيرات السنّ الشائهات، واللواتي يعانين عيوبًا خلقية، ومنهنّ مَن تترك نفسها وشعرها الزائد ينمو ويتطاول ويتجعّد، حتّى إنّ بعضهن يصبح لهنّ لحى قصيرة مع مرور الوقت.

وهذا الاهتمام بدأ معنا في سنّ مبكرة. أذكر مرّة أن تمرجيًا من مخيّمنا يعمل في الدير، دُعي لإلقاء محاضرة في مركز شباب المخيّم، فأخذ يحدّثنا عن أنواع الأمراض النفسية التي تُصيب المجنونات، ومنها أن بعضهنّ يجلسن، وهن يفركن أجسادهن، ويضحكن سعيدات، لأنهنّ يتخيّلن أن واحدًا يحسّس عليهن، وعندما سرت همهمات وضحكات في القاعة، وأُطلقت تعليقات، قال بحزم:

– يا إخوان نحن نتحدّث بشكل علمي، هذه أمراض لا تستدعي الضحك والسخرية...!

ولم أرَ، طوال عشرتنا الطويلة مع مجانين ومجنونات الدير، هذا الملمح من مرض المجنونات، لكنّني وقفت على أسباب تؤدّي إلى جنون المجنونات، مثل الصدمات السياسيّة والفقدان الشخصي والوطني، وأبرز مثال على ذلك جانيت جواد، التي كانت تقطن وعائلتها في القطمون، وهو جبل يقع غربي القدس، سكنته الطبقات والفئات الصاعدة في المجتمع المقدسي قبيل

النكبة، ثم سقط بأيدي العصابات الصهيونية بعدها، ففقدت كثير من تلك العائلات الصاعدة في السلم الاجتماعي، والعائلات التقليدية، التي تجرّأت على الخروج من بلدة القدس القديمة، إلى التمدّد العمراني الأرحب غرب المدينة الكثير.. الكثير، وربما كلّ شيء، مثلما هي حال عائلة جانيت، التي أصبحت مشرّدة، وتحوّلت أحلامها إلى هباء، وهي ترى منازل القطمون الفخمة، تسيل لعاب يهود أتوا من مختلف أنحاء العالم، لتقطنها.

هذه الظروف جنّنت الفلسطينيات، ولكنّ أشهر مجنونة بالنسبة لي هي شفيقة، لأنها قريبة لعائلتنا، وتتمتّع بحرية الدخول إلى الدير لتلقي العلاج والعودة إلى منزلها بعد ذلك.

عاشت شفيقة مع أمها في المخيّم، وكان يحلو لنا أن نصف جنونها بالانفصام، وإن كنّا لم نعرف علميًا وطبيًا معنى هذا المرض، إلّا أن سلوكها، أو الأصح حديثها معنا الذي لم ينقطع لسنوات طويلة، جعلنا نجتهد، ونصفها بالمنفصمة.

شفيقة طويلة القامة، لها أشقاء حققوا تقدّمًا في دراستهم الأكاديمية، خارج المخيّم وخارج البلاد، فعاشت وحيدة مع أمها.

مظهر شفيقة هادئ جدًا، وترتسم على وجهها دائمًا ابتسامة ساخرة، لم يكن من الصعب معرفة كنهها، فهي تسخر من النّاس ومن الحياة، ولا تقيم لهم أيّ اعتبار.

عندما تجالس شفيقة، تتبدّى خلف الوجه الهادئ الساخر، امرأة حكّاءة، مؤلفة قصص وحكايات، بطلتها في معظم الأوقات هي نفسها، فهي طالبة الجامعة الأميركية، أين؟ وكيف؟ لا نعرف، التي تغار منها زميلاتها، لتحقيقها النجاح الأكاديمي الباهر، وحصولها على المنح دائمًا، لأنها تعرف تمامًا وضع أسرتها الفقير، فأخذت على عاتقها تدريس نفسها بنفسها، دون أن تكلفهم شيئًا.

وتُورد شفيقة تفاصيل دقيقة لحياتها الجامعية الزاخرة، ولقصص الحب مع المدرّسين والطلبة، التي ينتهي بعضها بشكل جدي بتقدّم هذا أو ذاك لطلب يدها، بل وأكثر من هذا، تعزمنا على موعد خطبتها، وتلحّ علينا

بالحضور، ثمّ تنسى وننسى نحن أيضًا، حتى يحين موعد لقاء آخر وعزومة أخرى، وحكايات لا تنتهي، ترويها بمزيج غريب من اللهجة الفلسطينية المطعّمة بالأمثال، والكلمات العربية الفصحى، وكلمات إنجليزية، ومصطلحات خاصة بها وحدها، كلّ مرّة تأخذ معنى مختلفًا مثل: شلظم، التي لا نعرف ما تعني بها إلا عندما تستخدمها بجملة مثل «اليوم شلظمت الدنيا» ونفهم من ذلك أنّ الدنيا مسودّة في عينيْ شفيقة، أو «يا اللّه خلص الوقت، أريد أن أشلظم» ولا يترك لنا نهوضها أدنى شك في أنها تقصد الرحيل.

قد تكون حكايات شفيقة الممتعة، التي تحملنا إلى عوالم مختلفة، وتحرّضنا، دون أن ندري، على الحلم والتحليق، هي أحد الأسباب التي جعلتنا نصف حالتها بالانفصام، لكنّ ذلك ليس السبب الوحيد، فشفيقة كانت وما زالت، دائمًا، تنتحل شخصيات نسائية تعرفها، وتصدّق أنها خولة ابنة خالتها، أو سارة ابنة عمّتها، أو فلانة جارتها، تدّعي أنها إحدى هؤلاء، لتمارس عمليات نصب ظريفة، ثم تعود إلى منزلها محمّلة بحاجيات أخذتها دينًا من هذا المحل أو ذاك، بعد أن تكون أقنعت صاحبه بأنها فلانة ابنة فلان الذي يعرفه، وأن والدها سيمرّ عليه في وقت لاحق ويدفع ثمن البضائع.

أفعال شفيقة هذه، التي كان يتقبّلها الجميع بعد أن تُكشف وتسبّب إحراجًا مؤقتًا لشخصياتها، لطالما أقلقت والدتها العجوز التي كانت تؤنّبها وتحاول شكمها بالضرب، لكن لا أحد يستطيع النّيل من شفيقة.

تقول لها والدتها:

– فضحتيني يا شفيقة.. أصبحت أخجل من النّاس..!

فتهز شفيقة رأسها وتقول:

– ناس.. ناس.. أيّ ناس؟

وتلحّ والدتها عليها، بعد أن تهدأ موجات غضبها، أن تذهب إلى الدير لتأخذ الدواء، وهو ما تفعله شفيقة، بوداعة، وبدون اعتراض، لتعود وتظهر بأناقتها اللافتة، وشعرها المسرّح اللماع.

وفجأة حدث ما ظننّا أنه قد لا يحصل أبدًا، فقد انفرط الثنائي: شفيقة والأم، بموت الأم، التي بكتها شفيقة، وتحدثت عن شمائلها، ودورها في دعمها لتحصل على أعلى الشهادات من الجامعة الأميركية المفترضة.

وبعد موت والدتها، طرح رجال العائلة عدة اقتراحات، استُبعدَ منها ما يتعلق بانتقال شفيقة للإقامة في منزل أيّ منهم، واستُبقي ذلك المتعلق بانتقالها للسكن الدائم في الدير. عندما نقلوا الاقتراح إلى شفيقة، اتهمتهم بأنّهم يطمعون في منزلها المتواضع في مخيّم اللاجئين هذا، وتوعّدتهم بأنّها ستريهم العين الحمراء.

وبالفعل، أرتهم شفيقة وجهًا لم نكن نعرفه من جنونها، ففتحت عليهم جبهة صوتها، ونشرت ما سمّته غسيلهم الوسخ، وطردتهم من منزلها وهي تحمل المكنسة، ولاحقتهم في الشارع، وهي تتوعّد، وكان يُسمع صوتها وهي تتقمّص أصوات بنات من الذين طردتهم، وهنّ ينادين العشاق، ويبثثن أشواقهنّ الجسدية، إلّا أنه لم يعد يُسمع صوتها في ليل المخيّم، وهي تنتظر بلهفة لقاء أحبّتها.

وعادت شفيقة كما كانت، طالبة في الجامعة الأميركية، تُحِبّ وتُحَبّ، تَدرس، وتُثير غيرة زميلاتها، ولكن هذه المرّة ازداد تعاطفنا معها، فهي امرأة طيبة كما وصفناها، ومظلومة ولطيمة، بعد موت أمها، وقبل ذلك، إذ إنها عاشت يتيمة بموت أبيها، الذي لم نكن نعرف عنه شيئًا.

رِفقة علي

جاءت رِفقة إلى مخيّمنا من قطاع غزة مع والديها وشقيقها الأصغر منها. فبعد الاحتلال الحزيراني، كان شارون قد شرع بعملية توطين للاجئين في القطاع، وفي ظروفٍ معينة، تهجّر عدد منهم، ولجأوا مرّة أخرى إلى مخيّمنا.

تميّزت رفقة بأشياء كثيرة، منها لهجتها القريبة إلى اللهجة المصرية، وجرأتها في رواية النكات المكشوفة، وعادتها في تزويدنا بالشطة الحمراء الحارّة، التي تصنعها عائلتها في المنزل، ولها مذاق مختلف عن تلك الشطة التي تصنعها أمهاتنا، ويزدن عليها كمّيات من البندورة كي تخفّف لذعتها، أو تقتلها، فنجد أنفسنا نأكل شطة بطعم البندورة، أما شطة رِفقة فكانت كما قالت لنا «شطة حُرّة»، وعندما لم نكن نفهم، تقول: «حُرة.. ألا تفهموا معنى حرة يا بجم».

كنّا نعرف أن رفقة فيها «شرش هبل»، فهي لا تلعب إلا مع الأولاد، وتقلدنا في كلّ شيء، حتّى في طريقة تبوّلنا بعد أن نشعر بالألم في مثاناتنا لتأجيلنا ما لا بد منه، فنهرع إلى أيّ جدار لمنزل في الحارة، ويدير واحدنا ظهره، ليفرغ ما في جعبته على حائط الجيران، ومعنا رِفقة، قبل أن يشمّ هؤلاء الرائحة فينهرونا أو يضربونا.

ولطالما تعرّضت رِفقة للضرب من والدتها، التي تنهرها بسبب قضائها كل وقتها في اللعب مع الأولاد، وتطلب منها مساعدتها في الأعمال المنزلية قائلة: «تيسة في المدرسة وتيسة في البيت، مِش معقول».

لم أعد أذكر متى أصحبت رِفقة تتغيب عن مرافقتنا، لتنقطع، وتقف على شباك منزلها، بينما نحن أيضًا تغيّرنا وأصبحنا، عندما نتبارى في كرة القدم، نتبارى أيضًا للفت نظرها. كانت حين تُعجب بواحد منا تتبادل معه الغمزات ثمّ القُبلات الهوائية، وكنّا نحسد الذي يصاحب رِفقة ولو عن ذلك البعد، رغم أننا لم نكن نعرف أن ما تفعله رفقة معنا هو في الواقع ليس سوى نوع من التدريب ربّما، لأن علاقاتها الحقيقية كانت مع آخرين. فقد علمنا أنها تصادق الشبان الأكبر منا سنًا، وتلتقيهم في الأزقة، وأصبحنا نسمع عمّا يدور في تلك اللقاءات، ويبدو أنها علمت بما نعلم، فلم تعد تخصّص أحدًا منا بقبلاتها الهوائية، وأصبحت تحبّنا جميعًا، وجميعنا نحبّها، مع أننا نعرف أنها تحبّ أيضًا غيرنا من الكبار، ونحلم بأن نكبر، لتحبّنا. وكانت هي طبعًا من يحدّد متى نكبر، ومن يقرّر أننا كبرنا كفاية، حين ترضى بمقابلة أحدنا في زقاقٍ من تلك الأزقة.

وخلال كلّ ذلك عرفت رِفقة بلقب رِفقة الهبلة، فهي، وإن كانت تطلق العنان لأنوثتها الفطرية، إلا أنها أيضًا كانت هبلة، نحسّ ذلك ونعرفه من شكلها وشعرها غير المسرّح، ورائحتها الكريهة، ووسخها الذي عُرفت به، حتى إن أحد الكبار أخبرنا وهو يحدّثنا عن مغامرته مع رِفقة، بأنه عندما تحسّس جسدها، كانت تخرج الأوساخ في يده «فتائل... فتائل» حسب تعبيره، وأمام تقزّزنا قال: «ولكنّ جسمها دافئ رائع، آه ما أروعه». ولم يكن جسمها، في الواقع، إلّا أوسخ من أجسادنا قليلاً.

لم يكن أيّ منا يعرف ما يعنيه عندما يقول رِفقة الهبلة، غير أنها فعلاً هبلة، هبلة وفقط، ولكننا لم نكن نعرف أن هبلها سيتطوّر إلى جنون، أو أنه سيأتي وقت نُغيّر فيه صفة رِفقة إلى رِفقة المجنونة، المستباحة، المباحة، بل إن شائعة انتشرت بيننا، في وقت لاحق، أن من ينام معها يصاب بعدوى الجنون، أو قليل منه. وردًّا على من كان يتجرّأ ويقول أنا فعلت مع رفقة ما فعلت، وها أنا أمامكم في كامل قواي العقلية، تطوّرت النظرية إلى أنّ عدوى جنونها تنتقل شيئًا فشيئًا وتتطوّر مثلما حدث معها بالضبط. وبسبب هذه الإشاعة، وربما بدونها، تغيّرت نظرتنا إلى رِفقة، التي أصبحنا لا نرى فيها أيّ

لمسة جمال، بل نتقزّز منها، ومن أيامنا معها، وأحيانًا نشفق عليها، ونلعن المجتمع الذي لا يستطيع أن يقدّم لها مساعدة أو علاجًا. ولم نعرف مَن الذي يجب أن يبادر، ولكن يبدو أن كثيرين، ومن بينهم عائلتها، قرروا أنه يجب إرسالها إلى دير المجانين، ويبدو أنها مكثت هناك أيّامًا أو أسابيع، لتصبح من قبيلة المرضى/المريضات الذين واللواتي يذهبون، ويذهبن إلى الدير ويخرجون، ويخرجن منه.

وحدث تطوّر. فقد عادت رِفقة ذات يوم بعد طول غياب، ربّما كانت في الدير، أو مكانٍ آخر، حيث لاحقتها في غيابها شائعات منها أنها عملت في ماخور «لينا شجر» في بيت جالا، وهي تتأبّط ذراع شخص آخر، تقول إنه زوجها. سكن الاثنان في غرفة ملحقة بمنزل عائلتها في المخيّم، وعادت رفقة إلى عادتها القديمة، لا تكتفي بالوقوف في الشباك وهي تمشّط شعرها بغنج، ربّما للدلالة على وضعها الجديد، وترسل الغمزات والقبلات إلى المارة، بل أصبحت تقف على الباب، تبحلق في كلّ واحد يمرّ ولا تكفّ عن إرسال ابتسامات ولو خجولة، إذ إنها تخصّص الحركات الأكثر جرأة لوقوفها على الشباك.

وعزّز سلوكها هذا شائعة عملها في ماخور لينا، الذي أدارته الأخيرة في منزل عائلتها القديم وسط بيت جالا، متحدّية لا فقط المجتمع في مدينتها بل المجتمع الفلسطيني عمومًا، الذي كوّن منذ فترة طويلة، ربّما سبقت النكبة، آليات دفاع ذاتية، في مواجهة الغزوة الصهيونية، تجلّت بتشدّده في المحافظة، فتحوّل الموقف من ماخور لينا، من مسألة أخلاقية، إلى موقفٍ وطني عام، وخصوصًا أن المرأة قد استمدّت قوّة وجودها من قوّة جيش الاحتلال، الذي وفّر وجوده في بيت جالا، حماية غير مباشرة لها، لأنّ بعض الجنود كانوا من زبائنها. وعلى هذا الصعيد، كانت المفاجأة أن ضابطًا درزيًا ارتبط مع ابنة لينا التي تُقدّمها للزبائن بقصّة حبّ انتهت بالزواج، وبخضوع الضابط لإجراءات عقابية من جيشه. ظلّت تلك القصّة لفترة حديث الصحافة، وشطحت أقلام صحافية إسرائيلية وغربية لتنسج قصة حب حارّة ربطت بين جندي محتل وامرأة فلسطينيّة، ولكنّ معرفتنا بلينا وعملها وعمل ابنتها، وبلطجة جنود الاحتلال، أفرغت القصة بالنسبة إلينا من رومانسيتها المفترضة.

كثيرون منّا شاركوا في إلقاء زجاجات حارقة على ماخور لينا القوية الشخصية والمتسلطة، وشهدوا بأنّهم رأوا رِفقة هناك، ترتدي زيًا ضيقًا من الجلد الأسود يُغطي جسمها، ويجعلها تبدو كعاهرة حقيقية، مثل العاهرات اليهوديات اللواتي كُنّا نراهنّ في شارع يافا بالقدس، يتصيّدن خصوصًا الزبائن العرب.

لم تكن لدى أيّ منا معلومات كافية عن زوج رِفقة، وشككنا في أنها التقطته من ماخور لينا، وأصبح هذا الزوج المنفوش الشعر الغامض، يخرج صباح كلّ أحد للعمل في إسرائيل، وأحيانًا لا يعود إلا مرّة كلّ أسبوع، مساء الجمعة، ويمكث السبت ليعود الأحد صباحًا إلى عمله، كان شخصًا صامتًا لا يتدخّل بشؤون أحد، ولا يرغب في أن يتدخل أحد في شؤونه.

وفي أحد أيّام السبت، سمعنا صرخة تلتها صرخات، وعندما هرعنا إلى منزل رفقة، كان زوجها يضع يده على بطنه محاولاً منع الدم من التدفق، ويجري إلى مدخل المخيّم لا يعرف ماذا يفعل؟ لحقنا به، محاولين الاتصال بطبيب أو إسعافه، حتّى سقط على شارع القدس-الخليل، ونطق جملته الأخيرة، وأيضًا الأولى التي نسمعها منه:

– لقد قتلتني المجنونة، قتلتني رِفقة!

رغم أن هذه الجملة انتشرت في المخيّم، ورُدّدت بتأثر، لم يتّهم أحد رفقة، التي اتهمت بدورها اليهود بمقتل زوجها، ولكن مَن هم اليهود؟ لم يعرف أحد، ولم يحقّق أحد، ودارت نقاشات طويلة حول هوية الجاني، هل يمكن أن تكون هي؟ استبعد البعض. صحيح أنها هبلة ومجنونة، وعاهرة، أضاف آخرون، وبإمكانها القيام بأيّ فعل، إلّا القتل. كان كل طرف يستدلّ بشواهد معينة، وفي النهاية، بعد أسابيع قليلة، بدا الجميع راغبين في إنهاء هذا الملف، وقد تواطأوا بشكل مستغرب مع رِفقة، حتّى حدث ما هو غير متوقع، عندما خنقت طفلتها الصغيرة، وخرجت تحملها وتضحك وتبكي بهستيرية معترفة بقتلها وقتل أبيها، وتهديدها بقتل الجميع.

سار في جنازة الطفلة أكثر بكثير ممّا سار في جنازة الزوج الغريب، الجميع صامت، وكان كلّ واحد منّا يلوم نفسه، ويُحمّلها مسؤولية قتل هذه الطفلة، أما رفقة فوُضعت في دير المجانين، دون أن يُسمح لها، هذه المرّة، بالخروج منه.

مجنونات العائلة

لن أعرف أبدًا لماذا كان عدد المجنونات في عائلتنا أكثر من عدد المجانين؟ ولا أريد أن أبذل جُهدًا في بحث، قد لا أصل فيه لأسبابٍ منطقية وحقيقية، أو حتّى قريبة من الحقيقة، فالأهالي قلّما كانوا يتحدثون عن الممسوسين بالجنون، وإذا ما تحدثوا، كان ذلك ليفسّروا تلك الظاهرة العائلية... والتفسير هو أنّ رجالنا اعتادوا أن يقترنوا، وهم كبار في السن، بفتيات أصغر منهم، ويموتوا تاركين إياهنّ وحيدات، حتى شاع المثل الذي يقال دائمًا على سبيل المزاح بأن نساء العائلة يقبرن رجالها، ويعشن حتّى يخرفن أو يُصبن بالجنون. وقد كان من الفلكلور العائلي أن تروي إحدى الأمهات لأبنائها وأبناء أبنائها وأبناء أشقائها وشقيقاتها وأبناء العائلة، وأبناء الجيران والحارة، حكايتها الخاصة، حين كانت تلعب في الحارة مع رصيفاتها من الطفلات، ونادى عليها الرجال المتجمّعون في إحدى غرف المنزل، فرحين، بمناسبة لا تعرفها، ليعقدوا قرانها على واحدٍ منهم.

ومن مجنونات عائلتنا، خالتي رسمية، العوراء العين، التي تزوّجت أحد رجالنا الكبار السن، الجادّين، وأصبحت ضرّة لزوجته الأولى المسنّة، التي قضت محترقة ذات شتاء، عندما شَبّت النار في الكانون المصنوع من الطين والقش. ولا أعرف إن كان لخالتي المجنونة أيّ ضلع في هذه الجريمة، التي لم يُحقق فيها بالشكل الكافي، رغم أنها من أولى القضايا التي حققت فيها

الشرطة المحليّة التابعة للاحتلال الإسرائيليّ في سنوات الاحتلال الأولى. وكانت هذه الشرطة لا تزال تحمل بعض إرث مهني، ورثته من العهد الأردني السابق، وحتّى العهد البريطاني، فبعض أفرادها كانوا ممّن خدموا في شرطة العهدين السابقين، ووجدوا أنفسهم في ظل الاحتلال الجديد، في سلك جهاز، سرعان ما فتح المجال للعملاء والخارجين عن القانون، ليشكلوا النسبة الأكبر من عناصره.

أستطيع الآن القول، وإن بتحفظ، إنّ مفتاح فهم جنون الخالة رسمية هو الحرمان، والغضب على قدرٍ لا يُرَد، فلم يكن لعوراء أمّية مثلها، أن ترسم مستقبلاً غير الذي دفعها إلى كنف رجلنا العجوز الفقير، الذي بقي يعمل حدّادًا حتّى وفاته، وأتخيّله الآن وقد وصل عمره التسعين، وهو يحمل حقيبة العمل الجلدية، التي يضع فيها زوّادته، ويخرج من منزله فجرًا إلى شقاء يتجدّد كلّ يوم دون أن يكون هناك أيّ أمل بحدوث تغيير، فكلما مرّت السنون ابتعدت عودة اللاجئين إلى ديارهم ومنازلهم وأشجارهم، أكثر فأكثر.

من علامات جنون هذه الخالة التي عرفناها، تقلبات مزاجها الحادّة، وخوضها في كلّ يوم، طوشة مع زوجها، فما إن يصل عائدًا من العمل، حتّى ترتفع الأصوات من المنزل، بينما تجلس ضرّتها العجوز متلفعة بالكثير من الخِرق البالية، كساحرةٍ خارجة من كتب الحكايات، على عتبة باب المنزل من الخارج، وتستمع مثلنا لما يدور، وكأنها شامتة، أو كأن الأمر لا يعنيها أبدًا.

وبعد وقت، تخرج الخالة رسمية، وقد رفعت ذيل ثوبها وشبكته بحزامها، فبانت سيقانها الملتوية المشعرة، تتمتم بكلام غير مفهوم، وكل مَن يحاول استرضاءها، والطلب منها أن تأخذ جانب العقل والحكمة، وتجعل الليلة تمرّ على خير، يناله من غضبها نصيب، وأحيانًا تلاحقه بالبصاق.

لم يفهم أحد أسباب غضب الخالة رسمية المستمرّ، الذي لا يقبل بأيّ هدنة، أو يتوقف يومًا، فوُصفت بالمجنونة التي من الواجب تجنّبها. ولكنّ الأمر لم يكن يسري علينا، نحن الأولاد، الذين كنّا نتجمّع حولها على عتبة البيت صيفًا، أو داخله شتاءً، حول كانون النار، نستمع لحكاياتها التي لا تنتهي، وهي حكايات شعبية، تتضمّن الكثير من الكلام المكشوف، ولا

تتورّع عن استخدام أوصاف عارية لأبطال تلك الحكايات وبطلاتها، ولوصف الفعل الجنسي، وحكايتها التي سمعتها منها كثيرًا، عن المرأة الجميلة التي لم تحتمل فظاظة العشيق في أوّل لقاء فقالت له عندما رأت حجم عضوه الكبير: «قوم قوم... بَشَرَك قدّ القدوم». (بالطبع تجنّبت هنا ذكر اسم العضو الذكري كما تلفظه الخالة رسمية).

لست متيقنًا إذا كانت خالتي رسمية مجنونة أم لا في الأصل، ولكن ما أستطيع تأكيده هو أنها أصبحت كذلك بالفعل، بعد موت الزوج المسنّ، الذي سبقته زوجته الأولى احتراقًا قبل ذلك بسنوات. خلال ذلك كنّا كبرنا قليلاً، فأدركنا عندها أنه لم يكن من الجائز منها قصّ حكاياتها الشهوانية علينا، التي أصبحنا نحسّ بمدلولاتها، بشكل لم نتوقعه أبدًا ونحن أصغر قليلاً، ونقصّها بعضنا على بعض، أمّا هي فقد ضعف نظرها في عينها السليمة، التي طالما حلفت بها، مقسمة بحياة هذه العين التي ترى بها أدق الأشياء، كما كانت تفخر، فانزوت في بيتها معظم الوقت. لكنها ظلت تذكّر الحارة بها، وبجنونها، كلما استحمّت عارية في فناء الدار، مطالبة أولاد الحارة بمساعدتها بصب المياه على جسدها، وإن تقاعسوا، تلاحقهم بشتائم جنسية. أمام هذا التحوّل في حياتها، الذي توقعنا أن يكون مؤقتًا، قرّر رجالنا إيداعها دير المجانين، فأصبحت الخالة رسمية مجنونة رسميًا.

لم تكن رسمية خالتي المجنونة الوحيدة، فما أكثر الخالات والعمّات المجنونات ونصف المجنونات، الصامتات القابلات بجنونهن، أو الصارخات اللواتي أردن إعلان جنونهنّ على الملأ، ومن هذا النوع الأخير، خالتي زينب، التي كنّا نسمّيها زوزو، ولا أعرف كيف علق بها هذا الاسم الخفيف، حتّى اختفى اسمها الرسمي نهائيًا من قواميس النّاس.

ظروف الخالة زوزو شبيهة بظروف الخالة رسمية، من حيث الزوج الكبير في السن، ولكن المتديّن كثيرًا هذه المرّة، رغم أن تديّنه لم يحجب صفاته التي لطالما وصفناها بالدنيئة، وعجز عن تغطيتها. لم أشك لاحقًا عندما حاولت أن أفهم شخصيّته، في تديّنه، ولم يكن ذلك يناقض صفات كثيرة منفّرة لديه، من عمليات النصب الصغيرة، ومحاولات الاستحواذ

اليائسة على أيّ شيء يمتلكه غيره، إذا سنحت له الفرصة، نتيجة بُخله الشديد.

كان لسان زوزو حادًا مثل المبرد كما وُصِف كثيرًا، وكانت هي مرهوبة الجانب، وعندما تخوض معركة، لا يباريها أحد، تمسك الحجارة، وتخرج إلى الشارع، وترشق الهدف، الذي عادة ما يكون أحد رجال الحارة، كالدكنجي، أو الحلاق، والسبب، غالبًا، هو سماعها، وهي عائدة من العمل في تنظيف بيوت الأغنياء، تعليقًا أو تجديفًا بها وبزوجها «اللي تاركها على حل شعرها»، وبقاموسها من الصرّة وأسفل، ما كان يُحرج أولادها ويحرجنا نحن، المرتبطين بصلة قرابة بها، أمام رصفائنا العكاريت.

عاشت زوزو على قلقٍ، حتّى أخذ اللّه وديعته، كما كانت تصف موت زوجها، فهجرت أولادها والحارة، وناسها، واختفت. بحث رجال العائلة عنها كثيرًا وفي النهاية قالوا: «المجنونة تبخرت.. ارتاحت وأراحت».

وأتساءل الآن، لماذا وصفنا زوزو بالمجنونة؟ وإن كان ذلك بسبب طُوَشها الكبيرة، وأسلحتها من الحجارة والكلام المكشوف، التي كانت تستقطب أكبر عدد من المتفجرين، فالطُوَش لم تكن أمرًا نادرًا في حارتنا، وكان رمي الحجارة أمرًا شائعًا جدًا في السنوات الأولى للاحتلال على الأقلّ. وفي هذا الإطار، أذكر مثلاً مثقفة اعتُقلت في بداية الاحتلال، وهي تنتمي لفصيل ماركسي، وكانت ضمن الأفواج الأولى من الأسيرات الفلسطينيات اللواتي تميّزن بانتمائهن للفئات المثقفة، وقادتهنّ الثقافة إلى ملعب النضال ضدّ الاحتلال وممارساته. وبين فترة اعتقال وأخرى، تزوّجت أسيرًا، تعبيرًا عن وفائها لقضيته، أكثر من كون الزواج تعبيرًا عن علاقة عاطفية ربطت الاثنين، ولم تستطع التعايش مع أهله، الذين عاشت معهم، وأرادوها كِنّة تقليدية، بينما كان الزوج في السجن يقضي سنوات حكمه، ولا أعرف مقدار الضغوط التي تعرّضت لها، لكي تودّع كلّ تصرّف قد تكون له علاقة بثقافة تلك الأيام، فأصبحت تحمل الحجارة وترشق منزل عائلة زوجها، بينما يختبئ سكانه في الداخل، لا يجرؤون على الخروج منه، وأحيانًا يتسللون إلى النوافذ، يستطلعون ما يجري في الخارج، لتقدير الموقف، وإذا مرَّ أحد يتوسّمون فيه قدرة على

كبح جماح كِنّتهم الجميلة الغاضبة، يطلبون منه التدخل، وكلهم حسرة على الفتاة المنفوشة الشعر، التي يكشف قميصها عن أجزاءٍ من ثدييها، وتنّورتها ترتفع إلى ما فوق الركبة، وعندما تجلس بين هدأة وأخرى، مباعدة بين ساقيها، يرى المارّة ملابسها الداخلية. لكنّ المثقفة الغاضبة لم يكن يهمّها في تلك الأيام أيّ شيء، سوى تنفيس غضبها تجاه عائلة زوجها.

ولم تكن طوشة زوزو الواحدة تنتهي بسرعة، وكنّا نعيد ذلك إلى كون المنزل المرشوق بالحجارة يقع بالقرب ممّا كنّا نسمّيه العين، حيث تندلع طوش نسائية عديدة. فتلك العين لم تكن عينًا أو نبع ماء، بل محطة توصل الأونروا إليها المياه في المواسير الحديدية، في فترات محدّدة في الأسبوع، وتأتي النساء ليعبّئن التنكات منها، وغالبًا ما يحدث ازدحام واندلاع طُوش بين النساء، على دور كلّ منهنَّ في تعبئة الماء، وكل منهنَّ حريصة على أخذ ما يحتاج إليه بيتها من الماء من هذه المحطة المتعدّدة الحنفيات، لأن البديل سيكون جلب المياه من مسافة بعيدة، وصعود جبال ونزول أودية، حتى قرية ارطاس، أقرب قرية إلى مخيّمنا، حيث العين التي اعتبرها التقليد الديني «النبع المختوم» في نشيد الأنشاد، بينما كانت بالنسبة لنا «النبع الجهنّمي» الذي يتطلّب النزول إليه وحمل الماء منه صعودًا، لجبلين، مشقّة لا يمكن وصفها.

كُنّا نراقب ما يجري في العين، وتعمد البنات من مجموعتنا، اللواتي يُسمح لهنّ أكثر منا بالاقتراب من مكان تعبئة الماء، إلى قلب شباشبهن، لاعتقادهن أن ذلك يزيد من استعار نيران الطُوَش، وهو الأمر نفسه الذي كنّ يفعلنه في أثناء ثورات المثقفة الجميلة، التي كنّا نتعاطف معها، ونرى أنها مظلومة، وكانت هي تبادلنا المشاعر، وتقتنص فرصة بين فترة غضب وأخرى لتتحدّث معنا، أو لتطلب من أحدنا أن يجلب لها ماءً ترطّب به فمها، وأحيانًا تبعث مَن يشتري لها ولنا مشروبات غازية.

في مطلع السبعينيات، كانت تلك الغاضبة، مع زميلة لها، ترتديان الملابس القصيرة، التي كانت موضة تلك الأيام، إلا أن الأمور تغيّرت مع الاثنتين بطريقة دراماتيكية، لا يمكن لمن عرفهما في سنوات جموحهن أن

يتصوّرها. فقد أصبحتا داعيتين منقبتين، غير متزوّجتين، بعدما تطلقتا من زوجيهما الأسيرين السابقين. لا أعرف كيف حدث هذا التحوّل، ولكن أظنُّه تفصيلاً في تحوّلات كبيرة حدثت في المجتمع الفلسطيني، في فترة زمنية ليست طويلة، صبغها استمرار الاحتلال، وشابتها الهزائم والخيبات.

بعد هزيمة حزيران 1967، بدأت العذراء تظهر في العواصم العربية، وبدأ النّاس في غزة ينظرون إلى قبور الشهداء فيرونها تتحرّك. كانت المثقفة الجميلة تسخر من ذلك وتقول لصديقاتها: «المحكومون يلوذون من الهزيمة بالخرافة، والحكام ينشرونها، بثقلهم السلطوي لتثبيت الهزيمة». أما مع دخول صدام حسين الكويت عام 1990، فقد أصبحت تلك المثقفة ذاتها تقول إنها رأت وجه صدام محفورًا على القمر، وإنها فتحت القرآن، فكانت به شعرة في إحدى الصفحات، فلما فتحت حيث توجد الشعرة، وقرأت الآية الواردة هناك، فهمت أن صدام سينتصر.

أينك يا ريتشارد؟ وأيّ قرابة هذه بين الدهيشة والميسيسيبي؟

الشيخة صَفِيَّة

في عائلتنا نوع من الجنون مختلف عن ذاك الرسمي الخاص برسمية، أو زوزو. هو جنون غير محدَّد الهوية وفضفاض، ينطوي على مروحة واسعة من الملامح. فمثلاً، كثيرًا ما يقال: «خالتك أو عمّتك فلانة مجنونة لا تقربها»، يعني لا تزعلها ولا تغضبها وتجنّبها، لأن من الصعب توقع ردّة فعل هذه الخالة أو تلك العمّة المجنونة.

ولكن جنون صَفِيَّة، أو الشيخة صَفِيَّة، كان مختلفًا، وارتبط منذ البداية بتديّنها، وهي امرأة بيضاء جميلة، مدوّرة الوجه، لم تكن كبيرة في السنّ كأمهاتنا مثلاً، ولكنها ترتدي الثياب التقليدية مِثلهنّ، فتبدو أكبر من سنّها، وتضع على رأسها الخرقة البيضاء، ولا تكفّ عن التسبيح، وتضع مسبحة كبيرة في عنقها.

للشيخة صَفِيَّة وجهان، واحد يظهر في الليل، والآخر في النهار. نعرف ذلك من نوبات هستيريا ليلية، تهاجمها بين الحين والحين، فتوقظنا مذعورين، ونهرع إلى أمهاتنا المشغولات عنّا بالهرولة إلى بيت عبد الجبّار، والد صَفِيَّة، فنتمسّك بأذيالهنّ، ونلحقهنّ، فنرى النّاس متجمّعين في حوش البيت الضيق، وأمام باب مغلق يقف عبد الجبّار، ساهمًا، باسطًا يديه، يتحكّم فيمن سيدخل من النساء لتهدئة ابنته، التي يأتي صراخها وهذيانها من خلف الباب الخشبي، وينتشر في ظلامنا الخارجي.

مع تكرار هذا المشهد، أصبحنا لا نطيل المكوث في حوش الشيخة صَفِيَّة، لأننا لم نكن نعلم ما يجري في الداخل، ولا تنقل لنا أمهاتنا شيئًا، غير أنهن يتناوبن على تلاوة آيات من القرآن الكريم، وترديد أدعية، حتّى تهدأ صَفِيَّة، وتنام «مثل الطفلة» وهي الجملة الأكثر تكرارًا على ألسنة الشاهدات العيان.

وفي اليوم التالي، نرى صَفِيَّة أخرى، هادئة. وبين نوبات جنونها الليلية، ونهاراتها الهادئة، تمارس الشيخة صَفِيَّة دور الداعية. وعندما بدأنا نكبر قليلاً، علمنا، من شذرات الكلام والحكايات، سبب جنونها.

القصة التي يمكن أن تروى، بأكثر من طريقة وأسلوب، تشير إلى أن صَفِيَّة كانت نائمة وقد انحسر الغطاء فكشف عن جزءٍ من جسدها الأبيض، وعندما دخل زوجها ورأى ذلك، غضب ولم يتحكم بأعصابه، فعمد إلى عصا، وانهال على الجزء الأبيض اللامع من جسدها، فأفزعها، ولم تعد أبدًا لطبيعتها، وهكذا أصبحت مجنونة، ونُقلت إلى دير المجانين للعلاج، ومكثت هناك فترة، وبعد ذلك سُمح لها بالمغادرة إلى منزلها، أما زوجها فلم نعرفه أبدًا، لأنه هجرها إلى بلاد اللّه الواسعة، حاملاً معه أبناءها.

مع مرور السنوات خفّت نوبات الشيخة صَفِيَّة الليلية، وأصبحت في النهارات أكثر هدوءًا وانزواءً، وكأنها رضيت بقدرها، وسلّمت أمرها لقوة قاهرة.

ولكن نجم الشيخة صَفِيَّة بزغ فجأة، في ربيع عام 1993، وأخذ كثيرون من خارج المخيّم يأتون لرؤية الشيخة التي سكنها جان، أو الأصح اثنان من عالم الجان: جنيّ فاسق، وجنيّة مؤمنة، يعيشان في جسدها، الذي أصبح هزيلاً من قلة الأكل. وكتب بعض الصحافيين تحقيقات عنها في الصحف المحليّة، من بينهم صديقنا عمّار الجوري، الذي عَنوَن مقالته بعنوان صارخ: «التخلف برسم البيع».

وأصبحت غرفة الشيخة صَفِيَّة مليئة بالنّاس، وهي في معظم الأوقات طريحة الفراش، يزورها معالجون لتخليصها من الجان الفاسق، بطرقٍ مختلفة. وكم تعرّضت المسكينة للضرب عندما يتلبّسها الجنيّ الفاسق، فتدبّ فيها الحياة وتأخذ بالكلام بصوت رجولي، وتطلق شتائم جنسية، وتتوعّد بتدمير

الدين الإسلامي، وحرق المسلمين أحياءً، وتنتصر لقتل المسلمين في البوسنة، وتتحدّى المعالجين الذين يضربونها ويخاطبون جنيّها الفاسق: اخرج منها يا كلب، يا حقير، يا ديوث، والجنّي يردّ بلسانها لاعنًا سنسافيل أجدادهم وأنبيائهم.

وبعد أن تهدأ، ترتمي على الفراش، فيعرف النّاس والمعالجون أنّ الجنيّ خرج مؤقتًا منها، وذهب لأعماله الأخرى، وربما بحثًا عن جسدٍ بريء آخر ليتلبّسه.

لم يعجبنا، نحن الذين نعتبر أنفسنا مثقفين، حال الشيخة صَفِيَّة وما يجري لها، واقترحنا إرسالها إلى دير المجانين لتلقي العلاج، أو عرضها على أطباء نفسيين، بدلاً من العروض التي يشارك فيها من وصفناهم بالدجّالين، الذين تصدّينا لهم، فاتهمونا بالكفر لأننا لا نؤمن بالجان، المذكور في القرآن.

وتحالفت الشيخة صَفِيَّة مع معالجيها، ضدّنا وضدّ نفسها، فعندما تسكنها الجنيّة المؤمنة، تعود للحديث الهادئ، وتسخر منا لأننا لا نؤمن بالجان، وتحدّثنا عن الصراع المحتدم في عالم الجان، بين الكافرين والمسلمين، وأنها تعمل داعية في ذلك العالم، وأنّ ملايين من الجان أصبحوا مسلمين على يدها، وتطمئن مسلمي عالمنا على وضع المسلمين في عالم الجان، الذين يبلون أفضل بكثير، وبما لا يقاس، مقارنة بمسلمي دنيانا.

ولم تكن جنيّة الشيخة صَفِيَّة المؤمنة تتحدّث في الدين فقط، بل أيضًا في السياسة والجنس، فكان لها مثلاً آراء في الرؤساء العرب، ودول مثل إيران والسعودية وأفغانستان والبوسنة والهرسك، ومرّة وقفت على باب منزلها هزيلة تلقي خطبة لنساء جالسات أمامها يستمعن بصمت، بينما بعضهن يمنعن دخول الرجال، وقالت بصوت جهوري محللة الوضع في البوسنة والهرسك: «بسبب فسادهم دخل النصارى إلى عقر دورهم وانتهكوا أعراض نسائهم، وحذار يا مسلمي هذه البلاد أن تنهجوا نهج البوسنة والهرسك».

وروت الجنيّةكيفية تلبّسها جسد الشيخة صَفِيَّة، وهي التي كانت تسكن تحت عتبة بيتها، تناضل في عالم الجان من أجل نشر الإسلام، ولا تفكر بعالم الإنس، ولم يخطر على بالها أن تزوره، لكثرة ما سمعت عن أخبار

فسوقه، وتخلّي المسلمين عن إسلامهم، ولكن إحدى جارات الشيخة صَفِيَّة اعتادت أن تضع مياه حمامها بعد أن يواقعها زوجها، في سطلٍ تسكب ما فيه من مياه قريبًا من عتبة الجنيّة، التي لم تحتمل المياه النجسة، فخرجت لتسكن الشيخة صَفِيَّة، وتذكّر عالم الإنس بأصول دينهم، وإن كنّا فهمنا قصّة الجنيّة المؤمنة، فإنه لم يقدَّر لنا أن نعرف أبدًا، لماذا جلبت معها الجنيّ الفاسق.

وجنيّة الشيخة صَفِيَّة كانت لديها حساسية عالية لكلّ ما له علاقة بالمواقعة، فعندما تكون الشيخة تنطق باسمها، لا تعود تسمح لكثيرين بالدخول عليها، بحجّة نجاستهم، فتقول مثلاً لهذا أو ذاك من أقربائها:

– قف عندك.. اخرج.. فأنت لم تستحم بعدما واقعت زوجتك فجرًا..!

وطبعًا كان ذلك سببًا في أن يصدق الكثيرون أن جنيّة تسكن الشيخة صَفِيَّة فعلاً، وإلا «فكيف لها أن تعرف أن فلانًا أو علّانًا واقع زوجته لو لم تكن هناك جنيّة تسكنها؟».

ولم يستطع أحد من المعالجين الكثر الذين تناوبوا على تعذيب الشيخة صَفِيَّة، إخراجها من الحالة التي تعيشها، ولا سيّما من بينهم شيخ قدّم نفسه على أنه «الوحيد في البلاد للسحر الأصلي القديم والقوي»، ولأنه كما قال خريج بلاد المغرب، فإن البعض استبشر خيرًا، فلا يوجد أكثر من الشيوخ المغاربة، في فلسطين، يحظون بإيمان بقدراتهم الإعجازية لفك السحر والأعمال والمس الشيطاني وصرع الجان، والخوف والحسد، وفتح الحظ، والفتح بواسطة المندل، وإخراج السحر.

لم نعرف ماذا كان يفعل «الدجّال المغربي» كما سمّيناه، أو «صاحب الخاتم السليماني» كما سمّى نفسه، عندما يختلي بالشيخة صَفِيَّة، وإن كنا علمنا أنه استخدم كل خبرته التي تعلمها من بلاد المغرب، وصنع للشيخة كل أنواع الخواتم الروحانية.

فشل المغربي، كما فشل غيره، بينما كانت الشيخة صَفِيَّة تذوي، تتخلل ذلك لحظات قوّة تتمثل بكلام الجنيّ الفاسق البذيء الذي أصبح يضمّنه كلمات عبرية كثيرة، أو فتاوى الجنيّة المؤمنة في السياسة والجنس

والدين، إلى أن فارقت الشيخة صَفِيَّة الحياة، بدون معرفة السبب المباشر في ذلك، هل هو التعذيب والضرب، أم الجوع، أم حالتها النفسية المتدهورة؟ ولكن الغريب أنّ موتها لم يثر اهتمامًا يُذكر، مقارنة بالضجة التي أحاطت بها عندما جلبت عالم الجنّ إلينا.

هدباء قُدسية

التقطت بيانًا مَرميًا على شارع القدس-الخليل، أمام مدخل مخيّمنا، ظنًّا منّي أنه أحد البيانات الكثيرة التي تصدرها الفصائل والأحزاب، في المناسبات الفلسطينية التي لا تُعد، وفي غير المناسبات، حيث تزدهر الخلافات الكبيرة والصغيرة، تلك التي تَحدُث على مستوى الوطن، أو في هذا الموقع أو ذاك. لكنني فوجئت بأنّه بيان مختلف، يتضمّن في جهته العليا اليُسرى، أو بلغة الصحافة، أذنه اليسرى، صورة امرأة شعرها منسدل على جانبي وجهها، بدون ترتيب، وهي أقرب، بملامحها إلى الرجولة، برغم نظرات عينيها المنكسرة.

كان شكل المرأة مؤلمًا، وأيضًا ما كُتب في الورقة، التي حسبتها بيانًا، وحملت عنوانًا بارزًا بجانب الصورة: «خرجت ولم تعد».

المفقودة: هدباء داود قُدسية/ بيت جالا

تحمل هوية رقم (92837465)

مفقودة منذ ثلاثة أسابيع، زوجها: محمّد أحمد سعيد

عنوان السكن: شعفاط/ قرب الياسمين

عقد زواجها: القدس/ المحكمة الشرعية

ملاحظة: المفقودة غير كاملة عقليًا

يرجى ممّن يعرف أيّ معلومات عن مكان تواجدها الاتصال على رقم زوجها محمّد سعيد (5747021)

قدّرت البؤس الكامن في وصف امرأة في إعلان موجّه إلى الرأي العام بأنها «غير كاملة عقليًا»، وقبل ذلك وبعده، أن تكون مفقودة. لم يكن أيّ شيء في هذا الإعلان، مطمئنًا بالنسبة لهذه الهدباء، التي خرجت ولم تعد، لماذا؟ لا نعرف، وإلى أين ذهبت؟ لا نعرف، وكيف يمكن لمن تكون امرأة غير كاملة عقليًا، فتجد نفسها مفقودة؟ أيضًا.. وأيضًا لا نعرف.

لم يكن أحد لينتبه كثيرًا إلى إعلان مثل هذا، وسط المواجهات الدامية مع الاحتلال خلال انتفاضة الأقصى، ولعلَّ كثيرين وقعت بين أيديهم ورقة هدباء، وشعروا بالحزن، أو الألم، للحظات، ثمّ نسوا الأمر، في ظل حياة، أصبح فيها الموت عاديًّا.

أنا أيضًا نسيت الأمر، حتّى شهر أيّار 2009، وكانت الظروف قد تغيّرت، وحُجز الفلسطينيون في سجون كبيرة، داخل ما بقي من مدنهم وقراهم، عندما أعلنت شرطة محافظة بيت لحم العثور على امرأة كانت نائمة على رصيف شارع المهد بالقرب من مقرّ البنك العربي وهي في حالة غير طبيعية ولا تحمل هوية شخصيّة، وادّعت أن اسمها هدباء قُدسية، وتبيّن للشرطة أنها تعاني من اضطرابات نفسية.

ذكر بيان الشرطة: «.. وتم تحويل المرأة إلى مستشفى الأمراض العقلية في بيت لحم. ووزّعت الشرطة صورة هذه المرأة داعية مَن يملك معلومات عنها أو مَن يتعرّف عليها الاتصال بمقر الشرطة في المدينة».

في 6 حزيران 2009 صدر بيان آخر: «تمكنت شرطة حماية الأسرة في بيت لحم من التعرّف على هوية المرأة المجهولة التي وُجدت قبل شهرين في أحد شوارع بيت لحم، وكانت نائمة أمام البنك العربي في ساعة متأخرة من الليل. وأفادت الشرطة بأنها توصلت إلى معلومات تفيد بأن المذكورة طُلقت من زوجها الأوّل في القدس قبل نحو 20 عامًا وقد أنجبت منه طفلين، وأنّها توجّهت بعد طلاقها إلى منطقة النقب بأراضي العام 48 وعاشت هناك فترة طويلة».

وأضافت الشرطة أنها توصّلت لابني المذكورة في القدس، الذين حضروا لتسلّمها بالرغم من أنها لا تذكرهم جيدًا، لأنها تركتهم قبل 20 عامًا

وكان الابن الأكبر يبلغ في حينه 4 سنوات، إلّا أنّهم لم يتمكنوا من إدخالها للقدس بسبب فقدانها للهوية.

وأشارت الشرطة إلى أنها توصّلت إلى معلومات تفيد بوجود أشقّاء للمذكورة يسكنون في مدينة طولكرم، قد انقطعوا عنها منذ طلاقها من زوجها الأوّل، وأن شرطة حماية الأسرة ما زالت تبحث لها عن مأوى مناسب.

وكانت الشرطة قد نشرت صورة المرأة عبر الصحافة ووسائل الإعلام، بهدف التعرّف إلى هويتها: «حيث لم يكن لديها أيّ وثيقة تفيد عن شخصيتها، وتبيّن أنها تعاني من اضطرابات نفسية، وحُوّلت لمستشفى الأمراض العقلية في بيت لحم، وخرجت من المستشفى بعد فترة لأنها تحتاج لرعاية فقط ومرضها هو محدودية في التفكير». ويا له من مرض.

لم تزدني بيانات الشرطة إلّا غموضًا على هوية المجنونة المفقودة.. والعجيب أنها كانت مثالاً لحالات عديدة كانت موضوعات لبيانات الشرطة.

في بلادنا، ليس أسهل من إصدار بيانات، من قبل العائلات، أو الجهات الرسمية، يمكنها أن تصنّف النساء بأنهنّ مجنونات، أو مفقودات، وقد لا يكون الهدف البحث عنهن، بل تسجيل وقائع غيابهن، لأغراض دنيوية، مثل إجراءات طلاق، أو حصر إرث.

ولا أظنّني بحاجة إلى إصدار أيّ بيانات، لأعترف بفقداني الخيط الروائي الذي أحاول الإمساك به منذ بداية هذا النص. سأجرّب مرّة أخرى، وأخيرة. تجربة في الزمنِ المشمشي.

سِفر مشمشي

الخِتيار

في النشرة التعريفية التي أصدرتها الإدارة العامة للمستشفيات في السلطة الفلسطينية، أصبح اسم دير المجانين «مستشفى بيت لحم»، بينما اسمه على اللافتة المثبتة على مدخله: مستشفى الدكتور سعيد كمال للأمراض النفسية. وتشير النشرة بكلام إنشائي: «... وبعد استلام السلطة الوطنيّة الفلسطينية وزارة الصحة في عام 1994، تابعت تحديث المستشفى وصيانته ليستمرّ في تقديم الخدمات للمرضى النفسيين».

في الواقع، وكما أشرت سابقًا، تمّ التوسّع على حساب الحيّز الخاص بوطن المجانين، عبر تشييد بنايات للسلطة على أرضهم. وبدأت المسألة عندما قرّر الختيار بناء مقرّ له في بيت لحم، فهُدم جزء من السور الجنوبي الغربي للدير، ودُخل إلى حيّز المجانين، وكان المقرّ أساسه قسم المجانين العاقلين الذي وُسِّع ورُمِّم.

والأرجح أن موقع الدير المهمّ، وأيضًا القريب من «مهبط الرئيس» الذي بُني على جبل أنطون-جبل مولر، كان حاسمًا لبناء مقر الختيار، مجاورًا للمجانين.

اللوثريون الفلسطينيون، الذين اعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين لجبل أنطون، استبشروا خيرًا بالسلطة الفلسطينية، وطالبوا الختيار بإعادة الجبل لهم، بعدما سيطرت عليه الحكومة الأردنية ثمّ الإسرائيليّة. وكذلك طالب

سكان مخيّم الدهشة بحصة من الجبل، لتوسيع المخيّم. إلا أنّ الختيار منَحَ جزءًا فقط من الجبل للوثريين، وبنى مهبطًا ومقارّ لبعض الأجهزة الأمنية، ثمّ منح جزءًا آخر لمتنفذين في السلطة، واحتفل كل طرف بما حصل عليه من الكعكة على طريقته، بينما بقي سكان المخيّم يجترّون أساهم.

حضر الختيار معظم هذه الاحتفالات. فعندما أولم أحد المستفيدين ممن حصلوا على جزءٍ من الجبل، جلس المدعوّون ينتظرون الختيار، وتم تجهيز منصّة للخطابة، وأمامهم الثريد، لكنّ الختيار الملول والمزاجي، وصل وأخذ يمشي بسرعة، يحيط به حرّاسه الذين صدّوا امرأة اعترضت طريق الختيار الذي كان يمشي بسرعة، وتقدّمت لتسليمه شكوى، فمنعوها من الوصول إليه، واحتجزوها. استمرّ الختيار بالسير ولم ينظر إلى أيّ جهة، ولم يلقِ بالاً لمستقبليه الكثر، بل قصد موقع وضع الحجر الأساس، فوضعه بصمتٍ وبوجه متجهّم، ثمّ عاد من حيث أتى، تاركًا الحضور يزدردون الثريد ويبتلعون الإهانة. كذلك شارك الختيار اللوثريين احتفالهم بوضع حجر أساسهم، حيث وصل إلى الموقع، وكانت الدنيا تمطر فارتجل أحد أقطاب القومية العربية المتشددين، المنتقد للختيار في مجالسه الخاصة، كلمة ردّد فيها: «الختيار والإعمار والأمطار تأتي مجتمعة».

وقاطع أحد سكان المخيّم، الاحتفال يومها، شارحًا للختيار أهمية منح سكان المخيّم أرضًا للتوسّع، بعد كلّ هذه السنوات من عمر النكبة، لكنه لم يهتمّ على ما يبدو.

الوحيدون الذين لم يطالبوا هم مجانين الدير، برغم أنّهم الأحقّ بجبل أنطون، جبلهم، بل إن هناك من استكثر عليهم ما ينعمون به أصلاً من مساحته، فقضموا منها لتشييد أيّ بناء حكومي. وما كان أسهل ذلك.

وعندما تمّ تجهيز مقرّه، بسرعة نسبية، نزل الختيار من طائرته في المهبط، وقصده. تجوّل فيه، ويبدو أنه لم يعجبه. لم يُبنَ كما رغب، فأخذ ينادي على أحد رجاله، الذي تولى الإشراف على البناء بلهجته المصرية، مهدّدًا:

– جرجس.. فين جرجس..؟ يا جرجس.. آتوني بجرجس..!

كان الرجل قد أحسّ بغضب الختيار فاختفى، وقرّر الختيار وهب المقرّ، الذي استخدمه لليلة واحدة فقط، نام فيها قريبًا جدًا من المجانين، وفي المكان الذي نام فيه مجانين لا يمكن معرفة عددهم، لوزارة الشباب والرياضة. وشيّد قصرًا فخمًا في مكانٍ آخر، صمّمه المهندس جعفر طوقان، يبعد نحو كلم واحد عن الدير، أطلق عليه قصر الضيافة، ضمّ مكاتب الرئاسة، بالإضافة إلى قسم كامل للضيافة فيه أكثر من ثلاثين جناحًا لاستقبال الرؤساء والضيوف.

جعفر طوقان، حظي بثقة الختيار في حياته ومماته. جعفر هو مَن صَمّم ضريح الختيار في رام اللّه. رأيت جعفرًا يجوس قرب القبر مساءً. كان يُفكر. ونتج عن ذلك: ضريح سابح في الماء، مستوحى من الكعبة.

فتح الختيار، ببناء مقرّه على أرض المجانين، لسلسة توسعات لم تنته على حساب وطن المجانين، رغم أنَّ هؤلاء كانوا قد عبّروا عن فرحتهم بدخوله الأراضي الفلسطينية.

ثمّة مفارقات ربطت الختيار بالمكان، فهو كان قد وصل إلى مخيّم الدهيشة في سنوات الاحتلال الأولى، وكان متخفيًا تحت اسم الحاج محمّد، وقضى يومين أو ثلاثة عند صديق له من المخيّم، وصعد الاثنان إلى الجبال المحيطة بالمخيّم، ومنها جبل أنطون، ليستكشف الختيار إمكانية إطلاق ثورة مسلحة.

لدى وصوله إلى أريحا يوم 1994/7/2، وفقًا لاتفاقية أوسلو، وكان ذلك حدثًا كبيرًا، زحفت جماهير غفيرة لاستقبال الختيار، وتمكنت مريم العِسلينيّة، من تحدّي كلّ قوات الأمن، والجمهور الذي يعدّ بالآلاف، ووصلت، بطريقة عجيبة، إلى الختيار وحضنته، ورسمت معه شارات النصر، وظهرت صورها في كافة وسائل الإعلام العالمية.

وحدث لها ما حدث مع تلك المرأة الألمانية، التي قيل إنها نجحت في الوصول إلى هتلر، وهو يخطب في مكان عام، ووقفت بجانبه للحظات، وأصابها الغرور، وأصبحت مَهيبة الجانب، حتى من زوجها، إلا أن الغرور الذي تسرّب إلى مريم العسلينية لم يرهب أحدًا، رغم أنها لم تكفّ عن الحديث عن

قوّة علاقتها بالختيار، ولم تتوقف عن تلقّي أوراق وطلبات لمساعدات مالية من النّاس لرفعها للختيار ليوقعها.

بعد وصوله أريحا، أخذ الختيار يزور المدن التي يتسلمها من الإسرائيليين، وفي العام التالي، وقبل يوم من وصوله بيت لحم، عشية عيد الميلاد، وصلت زوجته لإضاءة شجرة عيد الميلاد في ساحة المهد، ومعها طفلتهما، وبعدما أضاءت الشجّرة، عادت إلى فندق الكازانوفا بجانب كنيسة المهد، وتبعها الصحافيون والمستقبلون من الشخصيات المحليّة، وكان الحرس الكبير حولها يتصرّف بفظاظة، وعدم مهنيّة، وروى عمّار الجوري، كيف رأى أحد أفراد الحرس يمسك جهاز اللاسلكي ويضرب بكعبه صحافيًا أجنبيًا، بدون أيّ سبب واضح. كان ذلك بداية لما أُطلق عليها انتهاكات لحقوق الإنسان في العهد الجديد، أودت بحياة أكثر من ثلاثين معتقلاً في السجون، في وقت قياسي.

في اليوم التالي، عندما وصل الختيار بيت لحم، استقبله الآلاف، وهاج هؤلاء وماجوا وصرخوا، ورقصوا، وصفقوا، وهتفوا، حتى وإن كانت هناك مروحيتان في السَّماء، الأولى للختيار، والثانية إسرائيلية، مرافقة له، فهو كان يتنقل ضمن شروط احتلالية مجحفة.

كانت بيت لحم هي المدينة الثالثة التي انتقلت إلى السيطرة الفلسطينية قبل حلول عيد الميلاد 1995، بعد لقاء الختيار إسحق رابين في البيت الأبيض للتوقيع على ما عُرف باتفاق أوسلو الثاني. وضع الختيار ذراعه على ظهر رابين، الذي لم يعترض. لقد تغيّرت الأمور منذ أوسلو الأوّل. ألقى الختيار كلمة أشاد فيها بأبناء العمومة، أعداء الأمس، أصدقاء اليوم، وردّ رابين معلقًا، بأنّ اليهود لم يُعرفوا بقدراتهم غير الاستثنائية، إلا إذا تعلق الأمر بالخطابة، ويخيّل إليه أن الختيار ربما يكون يهوديًا صغيرًا. لم يُفوّت الختيار الفرصة وقال وسط الضحكات: «نعم، نعم، راحيل خالتي».

احتار رابين الجلف أمام إعلان الختيار انتسابه لراحيل إلّا أنّ حيرته لم تدم طويلاً، فبعد خمسة أسابيع، اغتيل وهو يغنّي للسلام وسط تل أبيب، ولم يكفّ الختيار، الذي تخلى عن بدلته الكاكي، وغطاء رأسه، وذهب ليعزّي أرملته، عن وصفه بـ«شريكي».

رابين اشترط للقاء القمّة في البيت الأبيض عدم ارتداء الختيار الكاكي، والامتناع عن التقبيل. وإن كان لم يحظَ بقبل الختيار، فإن الأخير تحايل على الوساطات، وحضر بالكاكي، الذي خفّف الأمير السعودي بندر من وقعه واصفًا إياه ببدلة سفاري. ليئا، أرملة رابين، استقبلت الختيار في تل أبيب بدون الكاكي، وصلعته ظاهرة للعلن، ولم تُبدِ تمنّعًا من القبل التي أغدقها عليها الختيار.

ألقى الختيار خطابًا من على سطح كنيسة المهد، أضحك الجمهور، وأثار ضحكهم بأسلوبه الحماسي، وكان خلفه، كما سيصبح دائمًا، أحد مساعديه يلقّنه، ويُذكّره بأسماء أشخاص وأماكن. ولفت ذلك فرقة أطفال، فقدّموا في ما بعد مسرحية، قلدوا فيها الختيار. حكت مسرحيتهم عن أحد دكتاتوريّي الثورات الكبار، الذي بنى نظامًا أمسك فيه بكلّ الخيوط، وكان يسمّيه «ديمقراطية سكر زيادة».

أحبّ الختيار، الذي لم يتخلّ عن لباسه الكاكي، وحطته المشهورة، القُبل، فكان يُقبّل ويُقبّل ولا يملّ، قَبّل الكبار والصغار وأيدي النساء وجباههنّ، وكان يُقبّل يديْ وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت كلما قابلها، ومصوّروه التقطوا له صورًا مع أعدادٍ لا تُحصى من مواطنيه، الذين أصبح لكلٍ منهم ذكراه الخاصة معه.

نسج الختيار علاقات غريبة ومتشابكة مع أوساطٍ واسعة من الفلسطينيين، وطوّر ذاكرة محدّدة لتذكّر مَن يقابلهم ولو مرّة واحدة، ومهما صغر شأنهم، عندما يقابله في المرّة المقبلة، وقد تكون بعد سنوات، باسمه.

صنع الختيار، الخطيب غير المفوّه باللهجة المصرية، ومؤدّي الحركات التمثيلية ذاتها دائمًا، في خطاباته، أسطورته الخاصة، واخترع شكلاً جديدًا لليوم، خاصًا به.

وعندما يصل الختيار من سَفرٍ ما، ينفّذ عملاً أو أكثر ثمّ ينام فترة، ويستيقظ، ويوقظ الجميع معه، فيشعر الذين ينتظرون الدخول إليه بأنه لا ينام.

وهذا ما فعله في ليلته الأولى في بيت لحم، عندما بدأ يومه الخاص، فاستقبل شخصيات وممثلي مؤسّسات سياسيّة وعشائرية وفتحاويّة وغيرها،

ومنهم مَن عزمهم لتناول فطوره المتقشّف الذي اعتاد، خلافًا لجميع البشر، تناوله في ساعات الليل الأولى، ما أسهم في إضفاء صفة الغرابة على سلوكه.

في اليوم الثالث لوصول امرأته، كان مزاج الختيار معكرًا جدًا، كان غاضبًا من صحيفة القدس اليومية، لأنها لم تنشر خبرًا رآه مهمًا، عندما قال له بطريرك الروم الأرثوذكس المتهم ببيع أراضٍ للإسرائيليين والمكروه من قبل أبناء طائفته: «أنت عمر بن الخطاب، وأنا صفرونيوس الذي سلم مفاتيح القدس للخليفة العادل».

وفعلت العبارة فعلاً مخيفًا في الختيار، فهو لم يكن على علم بآراء صفرونيوس المحتقرة للفاتحين العرب، واتصلت وكالة (وفا) الرسمية بالصحف، لنشر الخبر في الصفحات الأولى، أمّا صحيفة القدس التي كان محرّرها المناوب ماهر العلمي، فنشرت الخبر في صفحة داخلية، عن حُسن نيّة، لأن الصفحة الأولى كانت كلُّها عن الختيار كما قال العلمي في ما بعد، بعد توقيفه في سجن أريحا، لأنه لم ينشر الخبر في الصفحة الأولى.

سيطرت عبارة البطريرك على الختيار، وأخذ يردّد أمام زوّاره، وفي خطاباته اللاحقة، جملة ردّدها يومًا عمر بن الخطاب: «فإن رأيتم منّي اعوجاجًا فقوّموني بسيوفكم».

وقع الختيار في غرام بيت لحم، ويبدو أنه أُصيب بلوثتها (بركاتك يا عمّار الجوري – استسلمت لنظريتك أخيرًا)، وتدخّل في كلّ كبيرة وصغيرة تخصّها، كره المؤسّسات، وكان قِبلة لحلّ أيّ إشكال، يحمل أقلامًا ملوّنة، يوقّع بها على الطلبات التي يقدّمها له مواطنون ومسؤولون ووزراء، وكل طلب له لون مُعيّن، فاللون الأحمر مثلاً رسالة للجهات التي تصرف المال، بأن لا تصرفه.

وقفت شفيقة المصري على باب الختيار وتمكنت من الدخول إليه، ومن الحصول على توقيعه لصرف مساعدات لها، وأخذت في لياليها الطويلة، تحمل الهاتف وتدير حديثًا بصوت يسمعه كلّ الجيران، مع الختيار. كان يبدو مُقنِعًا، لكل مَن لا يعرف شفيقة.

ولم يتمكّن حراس الختيار من كبح جماح شفيقة في الوصول إليه، ورغم أن خليفته أبو مازن كان يختلف عنه في أمورٍ كثيرة، شوهدت أكثر

من مرّة تقف أمام مقره في رام اللّه المعروف باسم المقاطعة وهي تصرخ في الحرّاس بطريقة ارستقراطية متعالية:

– قولوا لأبي مازن، أن لا يبعث الشيك الخاص بي إلّا مع فهمي السمّاك شخصيًا، ولن أقبله إلا منه شخصيًا. فهمتم؟

في سنواته الأخيرة، وبعدما وصل المسار السياسيّ إلى مأزق، اعتبر الإسرائيليون والغربيون الختيار عثرة في مسيرة السلام، واستحدثوا منصب رئيس الوزراء ليقللوا من صلاحياته، ولكنّه ظل يحارب حتّى آخر لحظة.

وتخيّل عمّار الجوري وعدد من زملائه، عندما كنّا نسمع التعليقات التي تطال الختيار حتى من أقرب النّاس إليه، أنّهم سينقلبون عليه، بأكثر الطرق بساطة وعملية، سيعتقلونه لدى نزوله في مهبط الطائرات، ويودعونه دير المجانين، على بعد خطوات.

وربما كان مجانين الدير هم من أوّل مَن شخّص المرحلة، ولعل واحدًا منهم، لم أعرف مَن، هو مَن أرسل لي أهزوجة «في المشمش»، وإن شككت في مُنير شحاتة، الشاعر الذي غادر إلى حيث لا يعود أحد.

في المشمش

في أيلول 1993م وقف الختيار، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، في حديقة البيت الأبيض في واشنطن، حيث تمّ التوقيع على ما عُرف باتفاق أوسلو، بجانب رئيس الوزراء الإسرائيليّ إسحق رابين والرئيس الأميركي بيل كلينتون، وتمّ تبادل المصافحات بعد التوقيع، وتردّد رابين في مدّ يده لمصافحة الختيار، الذي حسم الموقف بحماسته المعروفة وترك يده تنتظر يد رابين لعدة ثوان، كانت مثيرة، وشكلت مشهدًا رمزيًا، شاهده الملايين مباشرة على الهواء، يختزل ما سيميّز العلاقات بين أعداء الأمس في السنوات اللاحقة.

وقد لا يخطر على بال أحد أن المعضلة الكبرى التي واجهت البيت الأبيض هي كيفية منع الختيار من ممارسة شغفه بالتقبيل. فقد ظلّ رابين يومها قلقًا حتى اللحظة الأخيرة من إقدام الختيار على تقبيله. ونجحت إدارة الإمبراطورية الأميركية، مستعينة بحليفها الأمير بندر، في تطوير طريقة تحول دون تقبيل الختيار لمسؤوليها، وتدرّب الرئيس وكبار مساعديه على تلك الطريقة، في مواجهة ما سمّوها «الرزمة الكاملة» من قبل الختيار، التي قد لا تتوقف عند تقبيل الوجنتين، بل قد يلحقها تقبيل الجبين، ولكن الختيار استغلّ كل فرصة سانحة ليُقبّل متفاخرًا. وفي الواقع، إن كلّ خطط الإمبراطورية لم تكن قادرة على منعه من تقبيل مادلين أولبرايت المربربة.

أثار هذا الاتفاق خلافًا في الأوساط الفلسطينية، وفي أوساط عربية واسعة، وترتّب عليه قيام «السلطة الفلسطينية» على أجزاءٍ من الأراضي الفلسطينية تفتقر للسيادة، ولأسباب كثيرة منها شروط نشوء هذه السلطة، وأخرى تتعلق بالقائمين على إدارتها وباستمرار ممارسات الاحتلال القمعية ضدّ الشعب الفلسطينيّ واستمرار الاستيطان وعدم الالتزام بأيّ اتفاق تمّ توقيعه. تعرّضت المرحلة اللاحقة للاتفاق لانتقادات عدة. وفي فترة من الفترات، مع استمرار فساد رجال السلطة وتوسّع أجهزتها في الاعتقال السياسيّ، واستمرار حكومة الاحتلال بالمراوغة في مفاوضات مريرة ومملّة ولا تنتهي، وتواصل القمع والاستيطان، كان التذمّر كبيرًا في الأوساط الشعبية. وبرغم وجود منابر صحافية متعدّدة في الأراضي الفلسطينية تتفاوت في قربها من السلطة الفلسطينية والأحزاب والقوى المؤثرة في المجتمع والحياة السياسيّة، إضافة إلى الانفتاح الكبير على الإعلام الدولي، إلّا أن البعض بحث عن وسائل إعلام من نوعٍ آخر لنشر موادّ تعبيرية عن همومهم وقضايا تشغلهم.

وهذه الوسائل كانت تُعرف في السابق بالمنشور السياسيّ، والنشرات السرّية التي تصدرها الأحزاب والقوى الوطنيّة، وكان يغلب على هذه النشرات، التي كانت تُسمّى تجاوزًا صحفًا، النفحة التعبوية ضدّ الاحتلال أو «الردح» بين التنظيمات أنفسها.

هكذا، ظهر من جديد «أدب شعبي» كان يوزَّع بطرق حديثة عبر الفاكس مثلاً، ومن ذلك قصيدة سمّاها صاحبها المجهول «.. في المشمش»، يتكوّن كلّ بيت منها من ثلاث جمل تنتهي بعبارة «في المشمش» أو «للمشمش»، وهي اصطلاح شعبي معروف الدلالات يعبّر عن الاستحالة.

عنوَنَ صاحب تلك الكلمات، ولعله أحد الأصدقاء المجانين، كلماته، بعنوان «.. في المشمش» وجاء مقطعها الأوّل على النحو التالي:

طلعت نشرة وزفّوا البشرى وبقينا بسكرة للمشمش
رحنا مدريد والإيد في الإيد وأعطوا مواعيد للمشمش
ضحكوا علينا ومش بإيدينا واستنينا للمشمش
طبخوا الطبخة ديك وفرخة نشوف الفرحة في المشمش

عملوا سلام	حكي وكلام	وتبقى أحلام	للمشمش
راحوا صلوا	تا ينفصلوا	لخير يصلوا	في المشمش
الحكم الذاتي	يا ساداتي	قصة حكواتي	للمشمش
الختيار تسرّع	لما وقع	توقيعوا ينفع	في المشمش
الوصلوله	مش معقولة	يعطونا دولة	في المشمش
رحنا طابا	نغنّي سكابا	حق الطلابا	في المشمش

في المقطع السابق، يحاول الزجّال أن يقدّم لموضوعه بالإشارة إلى مؤتمر مدريد لسلام الشرق الأوسط، الذي عُقد برعاية أميركية وبحضور وفد إسرائيل والوفود العربية، والذي كان ممهّدًا لاتفاقيات وقّعت في ما بعد بين منظمة التحرير وإسرائيل وبين الأردن وإسرائيل.

ويشير إلى عدم التزام إسرائيل بالاتفاقيات وإلى لقاءات أخرى عُقدت في منتجع طابا المصري لم تسفر على أرض الواقع عن شيء.

أما في المقطع التالي، فيتحدّث الزجال عن الأمور الجوهرية التي تمسّك بها الإسرائيليون وتنازل عن بعضها المفاوض الفلسطينيّ، كما يتطرّق إلى أمور تفصيلية في الاتفاقات التي نُظر إليها بأنها اتفاقات مجحفة:

بدهم الجسور	ونقطة عبور	مع نسف الدور	للمشمش
سلاح الشرطة	قنوة وبلطة	الهم سلطة	في المشمش
شروط العودة	مش موجودة	وقعة سودة	للمشمش
قدس الأقداس	والأقصى انداس	برجع يا ناس	في المشمش
مهد المسيح	نازل يصيح	يلغوا التصاريح	في المشمش
سلام الشجعان	سببلي اجنان	يشفي السرطان	في المشمش
شقر اللحا	مسمار جحا	ادور الرحا	في المشمش
سكنوا بلادي	أرض جدادي	اصبر اولادي	في المشمش
زادوا نوحي	وطلعت روحي	تشفى جروحي	في المشمش
طرق التفافية	واخذوا المية	يعطوا هوية	في المشمش

ويمكن الإشارة إلى أن الزجّال يسخر من عبارة «سلام الشجعان» وهي عبارة أثيرة لدى موقّع الاتفاق الختيار، كان لا يملّ من ترديدها ومن القول إن ما وقّعه مع الإسرائيليين هو «سلام الشجعان». كما تتطرّق الأهزوجة إلى بعض الأمور الحياتية المستجدة على الجمهور مثل ضرورة حصولهم على تصاريح من الاحتلال للتنقل بين مدنهم وقراهم، وإلى استمرار تحكم المحتلين بمصادر المياه وعملهم الدؤوب في شقّ طرق استيطانية عُرفت باسم طرق التفافية لتأمين تواصل بين المستوطنات، وكل ذلك على حساب أراضي الفلسطينيين وبموافقة الجانب الرسميّ الفلسطينيّ.

وفي المقطع اللاحق، يخطو الزجّال خطوة جريئة، عادة لا يقدم عليها الأدب المكتوب بالفصحى، وهي التعرّض لأسماء شخصيات سياسيّة ودورها في ما حدث:

حسني مبارك	بالفكرة شارك	ترجع دارك	في المشمش
عبد الشافي	حكى الصافي	دوا شافي	في المشمش
كلنتون قال	وزيره جال	يعطونا مال	في المشمش
فيصل وحنان	زادوا الأحزان	يعطونا كيان	في المشمش
ابن عريقات	قام بجولات	ليرضي البلديات	في المشمش
حكى الراوي	عن بلعاوي	بحكم قاوي	في المشمش
شعث شاطر	في المخاطر	لجبر الخواطر	في المشمش
عبد ربه	وعر دربه	يطمن قلبه	في المشمش
فاوض في باريس	ولقي متاريس	بقدر على إبليس	في المشمش
أما القدومي	شقّ هدومي	ينسى همومو	في المشمش

والأسماء المذكورة أعلاه هي لكل من:

• حسني مبارك: الرئيس المصري المخلوع الذي كان لبلاده دور في المفاوضات.

• حيدر عبد الشافي: المفاوض الذي استقال احتجاجًا وحظي بشعبية.

• بيل كلنتون: الرئيس الأميركي الراعي للمفاوضات والمنحاز لإسرائيل.

• فيصل الحسيني: المفاوض الفلسطيني.
• حنان عشراوي: الناطقة باسم الوفد الفلسطينيّ المفاوض.
• صائب عريقات: المفاوض المخضرم. كبير المفاوضين وصاحب قاموس من المصطلحات مثل الحياة مفاوضات، أقلّ من استراتيجية وأكثر من تكتيك... الخ.
• حكم بلعاوي: مسؤول كبير في حركة فتح – الحزب الحاكم، ومسؤول أمني ووزير.
• نبيل شعث: مفاوض ووزير.
• ياسر عبد ربّه: مفاوض ووزير.
• فاروق القدومي: رئيس الدائرة السياسيّة في منظمة التحرير.

وتقييم دور هؤلاء الأشخاص أو غيرهم في تلك المرحلة، التي ما زالت مستمرة، يخرج عن نطاق هذا النص، وليس من أهدافه، وأشير إلى أن ذكر الأسماء هو من قبيل الأمانة في نقل نص أدبي كتبه على الأرجح مجنون (وليس على المجنون حرج)، ولا يهدف، من قبلي، إلى الإساءة لأحد، أو الإشادة بأحد (الاحتراز كما تعلمون واجب).

ويختتم الزجّال أهزوجته بأربعة مقاطع، للأسف ليست جميعها واضحة في الأوراق التي لديّ، لكن ذلك النقص لا يخلّ بالمعنى الذي يمكن فهمه:

ما حصلت بالكون	قسم حبرون	حقوا مرهون	في المشمش
حيّة عجيبة	في التخشيبة	----	في المشمش
خطة مليحة	نسكن ريحا	----	في المشمش
بتحصل هزّة	تتردم غزة	بنشوف العزة	في المشمش

وتعبّر هذه المقاطع عن نتائج الاتفاق وما ترتّب عليه من تغييرات على الأرض، مثل التبديل الذي طرأ على أسماء المدن، الخليل (حبرون)، أريحا، غزة...! التي كانت عناوين لاتفاقيات جزئية عُرفت باسمها خلال تلك المسيرة من «سلام الشجعان»!

لم يُقدَّر لي أن أعرف المجنون صاحب الأهزوجة، ولماذا أرسلها لي بالذات؟

من خلال متابعتي لأسلوب الختيار، وحركاته وضحكاته، وكلامه الذي يخرج متأتئًا، وتسامحه مع ضحكات النّاس على أسلوبه، بل وتشجيعهم على ذلك، من خلال المبالغة في الكلام والحركات، لم يعد لديّ شك في أنه أُصيب هو الآخر بلوثة الدهيشة، كما حدث لأسماء كبيرة قبله مثل الإمبراطور غليوم الذي وصل إلى ما سيصبح وطنًا للمجانين، قبل الختيار بنحو قرن من الزمان.

تدخّل الختيار في التفاصيل، تفاصيل التفاصيل، بشكل لا يفعله إلّا دكتاتور، يؤمن بأن لا أحد غيره يمكن أن يمسك أيّ خيط.

وهاك مثالاً على ذلك. كانت السلطة مدعومة من جهات مانحة دولية بدأت التحضير للاحتفالات بالذكرى الألفية الثانية لميلاد المسيح، وأُعلن عن مسابقة دولية لتصميم شعار للمناسبة. وفعلاً تقدّم فنانون كبار من العالم، وعقدت لجنة التحكيم الدولية التي ضمّت في عضويتها المدير العام لليونسكو فديريكو مايور ومدير المتحف البريطاني وآخرين من «الوزن الثقيل» اجتماعًا لها في لندن (أواخر 1999م) وأعلنت فوز فنان فرنسي بالمسابقة ونُشر الشعار الذي صمّمه وأُجريت معه المقابلات العديدة، وتسلّم قيمة الجائزة المالية، وأُعلن عن الشعار ونتائج المسابقة في احتفال كبير في بيت لحم افتتحه الشاعر محمود درويش وحظي باهتمام وسائل الإعلام المختلفة، ولكنّ الأمر لم يستمرّ طويلاً، إذ ألقى الختيار نظرة على التصميم ولم يعجبه، فأدخل عليه تعديلات، وأقرّ شعارًا، كان يفخر بأنه مصمّمه.

أراد أن يكون فنانًا، لا رئيسًا فقط، وفعل الأمر ذاته في مسابقة لتصميم شعار «السياحة الفلسطينية»، إذ استكثر على تلك الطالبة الموهوبة الفوز بمسابقة مدعومة من منظمة دولية، فأعاد تصميم الشعار بنفسه، ليفخر أيضًا بأنه صمّمه. بعدها، غادرت الفتاة بلاد الختيار، الأب، والفنان، والثائر، والمقرّر، وفضولي التفصيلات، ولم ترجع.

لم يُرد أن يكون فقط، فنانًا، ورئيسًا، بل أيضًا خبيرًا في البروتوكول، والطبخ، والعلاقات الاجتماعية، كان رجاله يشيعون أنه يملك عن كلّ منهم ملفًا مليئًا بتجاوزاتهم، يظهره للواحد منهم، إذا فكر بتحريك ذيله.

قَسّم الوزارات، كلّ وزارة برأسين، الوكيل والوزير، والجميع له اتصالاته المباشرة معه، كان يحبّ أن يطلع على كلّ شيء، وكان التضارب بين عمل الوكيل والوزير يصل ذرى يخرج فيها الخلاف إلى العلن ويصل إلى حد القطيعة بينهما. وحدث أن يتخذ الوكيل قرارات والوزير قرارات مناقضة، ولم يكن المشهد أحيانًا مأساويًا فقط بل كان مثيرًا للسخرية إلى حدّ بعيد، وانقسم الموظفون في الوزارات إلى قسمين على الأقلّ: قسم يدين بالولاء للوزير والثاني للوكيل، وأقسام أخرى لمن دعمها بالتوظيف من خارج الوزارة أو تنتظر لتعرف لمن تكون الغلبة، وبعضها له خطوط مفتوحة مع الختيار مباشرة بدون وساطة الوكيل أو الوزير. الخلافات وصلت إلى درجات غير معقولة، مثل الاعتداء بالضرب من قبل جماعة الوزير على الوكيل، أو استقلال كلّ منهما بوزارة خاصة به.

قد تكون للرؤساء هواياتهم التي لا يمكن فهمها، حتى لو كانوا رؤساء في ظروف غير مفهومة، تكون فيها سلطاتهم شكلية، وكراسيهم من وهم، كسلطة أوسلو في ظل احتلال تحكّم بالبشر والحجر وحركات الختيار وأنفاسه، إلى أن قتله أخيرًا، كما هي القناعة لدى عدد كبير من الفلسطينيين.

يعيش الدكتاتور، والنبيّ، والإمبراطور، بعد موته. يتذكّره محبّوه، ومبغضوه، يحمّلونه انكساراتهم، يحنّون إليه، وإلى بطشه وجنونه وسحره، بشكل قد لا يكون مفهومًا.

أُنسي الحاج كتب مثلاً، مندهشًا، بعد عقود من موت داهش بك: «ذات يوم انعجق لغويّ كبير هو الشيخ عبد اللّه العلايلي بمؤسّس مذهب (روحاني) اشتهر بكثير من الأدوار السحريّة، فضلاً عن الدعوات الفكريّة. كان المؤسّس هو الدكتور داهش. ووضع العلايلي، العلايلي الرصين الأكاديمي اليساري المعمَّم، حجّة اللغة وصاحب المعجم الذي لو صدر بتمامه لأحدث ثورةً في العربيّة، وضع العلايلي كتابًا في الإعجاب بداهش».

وفي مدوّنة غير رسمية، نجد ذكرًا لغليوم في مكان غير متوقع، يوميّات مؤرخ لبناني مشهور هو الدكتور كمال الصليبي الذي ذكر زيارة الإمبراطور التاريخية لبلاد الشام: «التي بدأها من فلسطين، تلبية لدعوة السلطان عبد الحميد الثاني، واستغلها للدعاية السياسيّة، ولإظهار نفسه وكأنه الصديق الأكبر للدولة العثمّانية، ولعموم العالم الإسلامي، في أوروبا، وكان من أوائل الذين سافروا بالقطار من بيروت إلى دمشق».

يسرد الصليبي: «وكان برنامج سفر غليوم إلى دمشق يفترض توقفه في بحمدون، فتوجّه أعيان القرية لاستقبال الضيف الكبير في المحطة وفوجئوا بوفد كبير من نصارى المتن ينتظرون وصوله، هم أيضًا، ومع هذا الوفد عريضة تطالب الإمبراطور بمزيد من الاهتمام بشأن نصارى جبل لبنان، فلم تعجب العريضة البحمدونيين، إذ وجدوها مذلّة، وممّا زاد في استيائهم جواب الإمبراطور غليوم عليها حين قُدّمت إليه فور وصوله. كان بين حاشيته مَن ترجم له مضمون العريضة، فقطب حاجبيه وسأل عن عدد النصارى في البلاد. وحين أخبروه بأنّهم لا يقلون عن ثلاثمئة ألف نسمة، أجاب بكلام فهم منه أنّ هؤلاء النصارى يعيشون في جزء من العالم يقطنه ثلاثمئة مليون مسلم، فإذا كان لا يعجبهم وضعهم فيه، فما عليهم إلا أن يتحوّلوا إلى الإسلام».

ورجع البحمدونيون في ذلك اليوم وهم يقولون: «لا طلعت حلوة منهم ولا منه».

مجانين المسيح

في زمن الفلسطينيين المشمشي، لم تتوقف القدس وبيت لحم عن استقبال أشخاص وجماعات، ممسوسين بالمدينتين وقصص الكتاب المقدّس. أشكالهم غريبة، يسكنون الفنادق المتواضعة، ويُقْدِمون في أحيانٍ كثيرة على طقوس غريبة، ويتفاوت ذلك بين جماعة وأخرى أو فرد وآخر.

ويرتبط هؤلاء بما يمكن تسميته تجاوزًا «التقليعات» الإنجيلية والتفسيرات الغريبة للكتاب المقدّس التي تتبنّاها جماعات لا حصر لها، وخصوصًا في الجنوب الأميركي.

وكان لهذه التقليعات جذورٌ في الأراضي المقدّسة. في عام 1866 مثلاً، ظهر نصّاب أميركي عُرف باسم أدامز، أخذ يدعو رفاقه وعائلاتهم إلى السفر معه إلى القدس والاستيطان هناك في انتظار عودة المسيح، ونجح في حشد نحو 150 من أبناء جلدته خلفه، وجمع منهم أموالاً لهذه الغاية، وطلب أدامز من الباب العالي العثماني السماح له ولجماعته بالاستيطان في القدس، ولكنّه لم ينتظر تلك الموافقة، فوصل ميناء يافا مع جماعته في أيلول 1866، ولكنّ سكان المدينة المسلمين توجّسوا من هؤلاء القادمين مع خيامهم ومن أشكالهم وأسمالهم، فأجبروهم على السكن في خيامهم حتّى يتبيّنوا حقيقتهم ويحدّدوا مصيرهم.

وفجأة اختفى أدامز، مع الأموال، تاركًا جماعته تعيش في ظروفٍ صعبة، حتّى اضطرّت للمغادرة من حيث أتت في شهر حزيران (يونيو) 1867 بمساعدة القنصل الأميركي.

وفي رواية أخرى أن ثلاث عائلات أميركية وصلت يافا في عام 1966، وعندما رأت غضب مسلمي المدينة، وخوفهم، عادت من حيث أتت.

وإذا كانت محاولة أدامز لم تنجح في الاستيطان بالقدس لأسبابٍ دينية، فإنها لم تكن آخر المحاولات، ففي عام 1881، وصل إلى القدس أميركي من شيكاغو اسمه هوارتيو سبافرود فقد أملاكه هناك، وتعرّضت عائلته لسلسلة من المآسي، اعتبرتها نوعًا من العقاب الإلهي، وفقًا لمبادئ الكنيسة المشيخية، التي تنتمي لها، فقرّرت أن تأتي إلى القدس على خطى المسيح. ووصل سبافورد مع زوجته وابنتيه وتسعة أشخاص، وأقاموا في القدس في انتظار المسيح المنتظر.

آمن سبافورد بأن «عودة الشعب اليهودي إلى القدس تُعدّ دليلاً على قرب المجيء الثاني للسيد المسيح». كان هذا أساس عقيدة الجالية الأميركية التي عاشت حياة شبه اشتراكية في القدس بسبب فقرها، وانصياعًا لتعاليم دينية تؤمن بها، قبل أن تتطوّر أحوالها، ويملك بعض أفرادها الآن فندق «الأميركان كولوني» التاريخي.

المستوطنة الأميركية «الأميركان كولوني» في القدس كان لها في تاريخ المدينة المقدّسة الحديث دور امتدّ إلى باقي البلاد، ولعلّ أهم مظاهره، هو جهود أفراد «الأميركان كولوني» في التصوير الفوتوغرافي، الذي بدأ مع زيارة الإمبراطور غليوم التاريخية للبلاد، حين تولى الكولونيون الأميركيون التصوير، وكانوا بذلك أوّل الرواد، فتركوا ثروة هائلة من الصور يحتفي بها الفلسطينيون والإسرائيليون، ويلاحقونها بجنون، في الكتب أو على مواقع الانترنت، ويستغلها كل طرف لإثبات حقه في البلاد، وللتدليل على وجودٍ له أسبق من الآخر.

وما زال يتوافد على القدس الكثير من مرضى «الكتاب المقدس»، فيما يعيش آخرون منهم فيها وفي ضواحيها، حياة تقشف وعوز، ومن بين هؤلاء،

شخص عرفته معرفة وثيقة، اسمه ريتشارد، وهو، مثل غالبيتهم، من الولايات المتحدة الأميركية، ويحمل شهادة عليا، وصل فلسطين لتحذير اليهود من نهاية العالم.

كان لدى ريتشارد اقتناع بأن نهاية هذا العالم ستكون على يدي صدام حسين الذي سيصبح زعيمًا لأسباط يأتون من 13 دولة ويحرقون الأخضر واليابس.

كان ذلك في أحد أيام صيف 1995. فوجئت بكهل طويل يرتدي قميصًا بدون أكمام ولا يكفّ عن الابتسام – أرغب في تسمية ابتسامته بالابتسامة البلهاء، ولكن ذلك قد لا يكون دقيقًا لوصف الابتسامة المشرّعة دائمًا على شفتيه والتي لا أعرف سببها، لكن أُفضّل تسميتها الابتسامة الدينية، أو الإنجيلية، التي تحاكي ابتسامات المبشّرين والمبشّرات الذين واللواتي يشعرون بأنّهم يملكون ويملكن، أخيرًا، مفاتيح الخلاص.

كان ريتشارد، الخمسيني، يقف أمام كنيسة المهد، وأمامه مجموعة من اللافتات المكتوبة بعربية غير مترابطة الكلمات، ولكنها تشي بأفكار ريتشارد الآتي من الميسيسيبي ليحذّر اليهود من الكارثة القادمة.

أوّل ملاحظة أبديتها لريتشارد، ضاحكًا، تتعلق بلغة اللافتات العربية المكسرة، فضحك وحمّل المسؤولية لمترجم طلب منه نقل أفكاره إلى العربية.

وتوصّل ريتشارد إلى أفكاره بعد وفاة زوجته، وتفكّره في الكتاب المقدّس، فأُوحي إليه من السَّماء، كما قال لي بثقة وباطمئنان، بتفسير مُعيّن، فترك منزله الهادئ في الميسيسيبي وحضر إلى فلسطين، تاركًا ابنه هناك، مُبشّرًا بدعوته، واستقبله اليهود باحتقار وسرقه بعضهم واستولوا على حاجياته فحضر إلى بيت لحم، وأعطته الشرطة الفلسطينية تصريحًا ليقف في ساحة المهد ليتمكن من عرض ما توصّل إليه مكتوبًا على لوحات كرتونية.

هنا، قدّم له فلسطينيون محليون من المسلمين والمسيحيين المأوى والمأكل والمشرب، بعدما رأوا حالته المادية الصعبة، وعمل في بعض المطاعم لكسب نقود تعينه على نشر فكرته ودعوته، وعلى أمل أن توافق قناة «السي.إن.إن» على إجراء مقابلة معه ليتحدّث فيها عن أفكاره، ويحصل على

أموال تساعده في سدّ تكاليف حياته البسيطة والمتقشفة، ولإكمال رسالته، فهو يريد أن يقنع ويحذّر اليهود، لا أصدقاءه الفلسطينيين الذين أبدوا شفقة غريبة عليه، ولم يأخذوا كلامه عن انحيازه لليهود على محمل الجد، بل تعاملوا معه كمجنون، أو كعابر سبيل، يحتاج إلى مساعدة ومأوى.

بعد أعوام من مكوثه، غادر إلى أميركا ليرى والدته التي كانت تصارع الموت، وبعد موتها، عاد ليستقرّ في بيت لحم، عائشًا، هذه المرّة، بدون عمل، وعلى ما يُقدّمه له السكان المحليون الطيبون، وسكن في غرفة صغيرة، قدّمتها له عائلة مسلمة، إلى حين تحقّق السيناريو الذي تصوّره لتفسيره للكتاب المقدس.

في شهر آب 1998، قَلَب ريتشارد الدنيا على الصحافي عمّار الجوري، وعندما ذهب إليه، ليعرف ما هو الأمر الطارئ الذي لا يحتمل التأجيل، وجعله يريد مقابلته، طلب منه إجراء مقابلة معه على وجه السرعة ليوجّه رسالة للعالم ولليهود.

وعندما ضحك الجوري، كما روى لاحقًا، وطلب منه تأجيل ذلك لانشغاله بأمور أخرى ألحّ عليه قائلاً إنه سيذهب للقدس ولم يعد هناك وقت لإضاعته مع اقتراب نهاية العالم، وشكك في أن يكون لهما لقاء آخر، فأنصت إليه، وكان هذا الحوار الغريب العجيب، الذي أثبت جزءًا منه هنا، بعدما زوّدني به الجوري مشكورًا. شطبت الأسئلة، فريتشارد قادر على تقديم نفسه، بدون وسطاء، مثلي:

– أنا من منطقة الميسيسيبي؛ حضرت إلى هنا لأحذّر من صدّام حسين، ووضعت شعارات مكتوبة على ألواح بهذا المعنى على جبل صهيون بالقدس، ممّا حدا باليهود إلى طردي من هناك، وعلى فكرة أنا أحمل شهادة جامعية إلا أنني لا أستغلها وظيفيًا لأنني هنا في مهمّة وهي تحذير اليهود.

– شخصية صدّام موجودة في الكتاب المقدّس والربّ أعطاه عشر طرق لخداع أميركا وإسرائيل، وأميركا هي التي دفعته لاحتلال الكويت وحرق آبار النفط، لتصبح أكثر حرية في فرض سياساتها. كلّ ما ذكرته موجود في الكتاب المقدس وهو كلام الربّ، وهو إله إسرائيل كما أؤمن ويؤمن بذلك

المسيحيون وأنا مسيحي، لي جذر يهودي يسري في دمي وأنتمي لإسرائيل لكن ليس لإسرائيل هذه.

– باعتقادي أن الربّ وعدهم بقيام دولة إسرائيل على هذه الأرض لكن مثلما أعطاهم إياها، يستطيع أخذها منهم لأن الوعد مشروط بأن يكونوا جيدين مع الأغراب، وهذا منعدم الآن، ولم يكونوا جيدين معي، وبأن يكونوا جيّدين مع جيرانهم وهذا أيضًا غير موجود في علاقتهم مع الفلسطينيين، وهذا كله يناقض وعد الربّ.

– أنا ضدّ دولة إسرائيل ولا أؤمن بها والربّ سوف يزيحها ولكنّ وعده ما زال قائمًا بدولة تلتزم بالشروط التي ذكرتها، والإسرائيليون الذين يؤمنون بالسلام سيتركون هذه الأرض إلى: إسبانيا، وتركيا، واليمن، وسيريلانكا، وتونس، واليونان وهذا موجود في الكتاب المقدس، ووعد الربّ اقترب.

– اتصالي غير مباشر مع الربّ، لقد عرفت أن الوعد اقترب. صدّام حسين كان الإنذار الأوّل. والإنذار الثاني هو مهاجمة إسرائيل لسوريا، وفي ما بعد ستُدمَّر إسرائيل تمامًا، كما ورد في الكتاب المقدس، وهناك عشرة رجال ذوي قوّة خارقة سيقودون العالم ويدمّرون إسرائيل وأميركا وجزءًا من الغرب والأمور ستتغيّر بسرعة، وأسرع ممّا تتوقعون.

– في البداية عشت مع اليهود في أسدود ولكنّ أصدقائي اليهود سرقوا أموالي وكذبوا عليّ كثيرًا. وانتقلت للقدس فطردوني. فجئت إلى المدينة التي وُلد فيها السيد المسيح أنشد الطمأنينة، وكرجلٍ فقير وجدت أناسًا يهتمّون بي وأصدقاء يعطفون عليّ.

– عندما يقول الربّ بأن تكون جيدًا مع جيرانك فعلى إسرائيل أن تكون كذلك. كمسيحي حقيقي، وفي داخلي يهودي، سأكون جزءًا من دولة اليهود الحقيقية هذا إذا لم يقتلوني، لأن هؤلاء النّاس يقتلون جماعتهم حتى يكسبوا التعاطف.

– الكثيرون لا يستوعبون وجهة نظري وأريد أن أوضح بعض الأمور عن صدّام حسين... فهو حين سمّى الحرب «أم المعارك» كان ذلك إلهامًا من الربّ لأنها كذلك وتكشف المعادلة الحقيقية للصراع، وكما يقول الكتاب

المقدس فإن الملك البابلي نبوخذ نصر، ستختفي روحه وتعود في شخص آخر هو صدّام حسين، وصدّام يعي ذلك تمامًا، وإذا استمرّت إسرائيل وأميركا في إساءة معاملة الفلسطينيين فسيضع الربّ، العشرة رجال أصحاب القوى الخارقة خلف صدام لتدميرها، وهؤلاء الأشخاص سيأتون من شمال آسيا وكوريا، لأن مهامهم توحيد بلادهم، والحل الوحيد أن يخرج النّاس الطيبين من أميركا والغرب لإنذار النّاس، لأن اللّه لجميع النّاس وأنا أعمل بشكل فردي ولم يوصلني اللّه بأحد ليعمل معي.

– صدّام حسين لن يموت، وسيعيش وكما ذُكر في الكتاب المقدس سيصاب بجرح خطير ولكنّه سيعيش، وأحد الأماكن التي ستكون أمانًا للفلسطينيين بعد تدمير إسرائيل هو الأردن، وبعد الحرب سيعودون إلى هذه الأرض بسلام، ويعود كلّ أبناء اللّه وسيكون صدام الملك الثامن للبلاد. والفلسطينيون عقلانيون سيستوعبون إقامة دولة لليهود بشروط الربّ.

إذا أكمل القارئ/ئة، أجوبة ريتشارد، فلا شك في أنه/ها، سيكون، وستكون مهتمًا/ة، بمعرفة أن ريتشارد ظل يصارع بهدوئه وابتسامته، لكي يشرح نظريته، حتّى لم يعد يهتم به أحد حتّى من باب الفضول، وخصوصًا، عندما أصبحت مناسبة عام ألفين ملائمة لسطوع أخبار الجماعات الإنجيلية الغريبة الأفكار عن المسيحيّة المحليّة، وبعضها وصل إلى فلسطين عشية عيد الميلاد عام 2000م، لأسبابٍ شتى اقتناعًا منهم باقتراب نهاية العالم، وكان بعض هؤلاء يستعد لعمليات انتحار جماعي، واستأجروا مساكن لهذه الغاية على جبل الزيتون، حيث صعد المسيح إلى السَّماء، ولكنّ السلطات الإسرائيليّة لاحقتهم وطردت العشرات منهم من القدس، فيما جنّدت السلطة الفلسطينية كلّ طاقتها لعدم السماح لهؤلاء بالتسرّب إلى احتفالات عيد الميلاد في بيت لحم وارتكاب «حماقات» لا يمكن التكهّن بها.

وشهدت ساحة المهد مشاهد فيها من الطرافة الكثير، وأصبح مشهد رجال أمن فلسطينيين بلباسهم المدني، وهم يسرعون للإمساك برجل تدلّ هيئته على أنه أجنبي، ويجرّونه أمامهم وهو يحاول قول شيء ما، مألوفًا،

وعندها يعلم المشاركون في الاحتفالات، بأنه أُلقي القبض على مجنون آخر من مجانين المسيح.

وجرى نوع من الشماتة المتبادلة بين أميركا وإسرائيل، في ما يخص هذا النوع من المجانين، على طريقة: «ليس نحن فقط لدينا مجانين بل لديكم أنتم أيضًا».

ونشرت الصحف الإسرائيليّة مثلاً: «أوساط أميركية رسمية أصبحت تبدي اهتمامًا بالحركات اليهودية المتطرّفة في إسرائيل، بينما أبدت الأخيرة اهتمامًا بالطوائف الأميركية المتطرّفة. ازدادت الرقابة الإسرائيليّة على الطوائف المسيحيّة التي تصل إسرائيل في انتظار عودة المسيح أو من أجل انتظار نهاية العالم، وأبدت السلطات الأميركية امتعاضًا من سياسة القبضة الإسرائيليّة الحديدية تجاه مواطنيها الذين يُعتقلون ويبعدون».

لم تنمُ هذه الطوائف في فقط أميركا ولكن أيضًا في إسرائيل، مثلاً:

• يعقوب عوبيد توقع نشوب حرب يأجوج ومأجوج في بداية 7 تشرين الأوّل 2009، ودعا إلى العودة إلى الدين، وأكثر من هذا تنبّأ بقدوم مخلوقات فضائية، وعندما مرّ التاريخ المذكور ولم يحدث شيء، اختفى.

• دافيد غولدنر الذي تمكّن من جمع مجموعة حوله، وتوقع ظهور المسيح في مغارة إلياهو في 28 تشرين الأوّل، ورابط في المغارة، وعندما مرّ التاريخ ولم يحدث شيء انشقت الأرض وابتلعته.

• مجموعة أخرى ظهرت على الساحة تدعى «عملية العودة» بزعامة ابراهام شينمان (42 عامًا)، في مستوطنة هار براخا التي يقطنها أنصار الحاخام كهانا، وهي متأثرة بالمجموعات المسيحيّة الأصولية التي تشترط عودة المسيح بعودة شعب إسرائيل إلى أرضه. دعت هذه المجموعة التي تستند أفكارها إلى تفسيرات للتوراة تتنبّأ بنهاية العالم عام 2000، كلّ يهود العالم الذين يتعرّضون لخطر الإبادة إلى العودة من المهجر.

• حاخام في البلدة القديمة بالقدس «أثبت» لجماعته من خلال مقارنة وحساب الأحرف والأرقام في التوراة أنّ من الممكن أن تقع الكوارث في عام 2000 وأنه ليس هناك أيّ يهودي في العالم آمن وبعيد عن الخطر، داعيًا إلى تبنّي دعوة يهود العالم للهجرة إلى إسرائيل فورًا وبدون إبطاء.

هذه نماذج من مجانين اليهود. أما أبرز مجانين أميركا، فكان الأخ دايفيد الذي وصل إلى الأراضي المقدّسة في بداية الثمانينيات، وبدأ بحشد النّاس على أساس أن المسيح سيعود في بداية الالفية الثالثة، واتُهم بالتخطيط لأعمال عنف، معلومات من أميركا والمملكة المتحدة وصلت للشرطة الإسرائيليّة، فاعتقلته، وكان مدرّبًا على التعامل مع الإعلام، فقال للصحافيين من داخل السجن بطريقة مسرحية: «اللّه لا يريدني أن أرحل».

خلف هذا الجنون الذي اهتمّت به وسائل الإعلام، يقبع جنون أكثر خطورة، مارسته كنائس بروتستانتية وانجليكانية، كانت تجمع التبرّعات للمستوطنات اليهودية، على أساس اقتناع لديها بوجوب تجميع اليهود في أرض الميعاد، كشرط لا بد منه للخلاص، وأخذ الحاخامات يتسابقون على الظفر بتبرّعاتها، وما زالوا. على أرض الواقع، الخلاص الوحيد الدائر كان ولا يزال هو الخلاص من الفلاحين الفلسطينيين عبر طردهم من أرضهم.

جاد وآخرون

بعد انـدلاع انتفاضة الأقصى، بـدا كلّ شيء مختلفًا، ومجنونًا على الأرض الفلسطينية. حمل جاد أبو عفرة الذي لم تكن تنقصه الجرأة أبدًا الكاميرا، وعمل مع إحدى الوكالات الأجنبية.

اختلفت انتفاضة الأقصى عن باقي الانتفاضات والهبّات التي سبقتها بسهولة الضغط على زناد البنادق والرشاشات. أصبح القتل أمرًا عاديًّا، ولم يُستثنَ الصحافيون من ذلك، وعندما قتلت القوات الإسرائيليّة الصحافي الإيطالي رفائيل سيرللو في رام اللّه، كان ذلك بمثابة رسالة بأنه لا خطوط حمراء للرصاص الإسرائيليّ.

في مثل هذه الأجواء ،كان أبو عفرة يُغطي أحداث الانتفاضة في جنين التي تعرّضت لاجتياحات عديدة وكثيرة، وخضعت لحظر تجوال لأيام طويلة، وعندما رُفع حظر التجوال في يوم تموزي من عام 2002، لعدة ساعات، خرج مرتديًا سترة كتب عليها «صحافة» بصحبة أحد زملائه، ولم يُقَدّر الاثنان أن رفع حظر التجوال لم يكن سوى فخّ نصبته قوات الاحتلال، إذ اجتاحت الدبابات الإسرائيليّة المنطقة فجأة، فهرب المواطنون ولم يبق إلّا أبو عفرة وزميله، فصوّبت إحدى الدبابات رشاشاتها نحوهما وأُصيب أبو عفرة في شريان رئيسي في رجله، وتمكن من التراجع حتى وصل المستشفى فاقدًا الوعي، بسبب النزف الحاد، وما لبث أن استُشهد.

وكان شاهدًا على حادث قتله ناشط أجنبي في حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني، أسرع إلى المكان وصوّر الحادث، وقال إن الجيش الإسرائيليّ قتل عمدًا جاد أبو عفرة وأصاب زميله، ورأى العالم كله الصحافي وهو ينزف، أمّا أنا فكنت أرى عاشقًا للحياة، يذوي بطريقة دراماتيكية، في بلادٍ تصعب الحياة الطبيعية فيها.

كثيرون كتبوا عن جاد بعد مصرعه، فأصبح بطلاً «دافع عن مدينته بالكاميرا»، ولكنّهم لم يذكروا شيئًا عن عقوق تلك المدينة التي نبذته إلى أحضان روسيات حيفا.

آخر مرّة رأيت فيها جاد، كانت وهو ينزف، على شاشات الفضائيات. أما بالنسبة لبهيجة صبري، فبعد عودتي من حيفا، أنهيت علاقتي بشكل تدريجي مع هذه المجنونة، وحرصت على أن يكون ذلك باحترام كرامتها، وأصبحت مقتنعًا أكثر فأكثر بضرورة مراجعتها لطبيب نفسي، وآخر مرّة رأيتها كانت في المؤتمر الأدبي الذي عُقد في بيت لحم، قبل اندلاع الانتفاضة بفترة قصيرة. جاءت بهيجة وأقامت في الفندق الذي عُقد فيه المؤتمر بحضور أدباء فلسطينيين من الداخل ومن الشتات، والتقت في غرفتها بكثيرٍ من محبّيها وعشاقها، كما سرت الشائعات في أروقة الفندق. خلال أيّام المؤتمر التقت عيناي بعينيها، ابتسم كلانا بحزن ورجاء، ولكننا أنكرنا بعضنا، حزنت عليها، وعلى نفسي، وعلى الوضع الفلسطيني، الذي كان ينذر بانفجار مجنون.. مجنون، فقد فيه الموت مهابته، بل أصبح أمرًا عاديًا.. عاديًا جدًا، ولم يعد هناك مكان لأشعار بهيجة الحسّية، فانزوت مرّة أخرى في غياهب النسيان.

في بيت لحم، أصبح كلّ شيء مجنونًا، لا فقط دير المجانين. ففيها نفذ الاحتلال أوّل عملية اغتيال لمقاوم في الانتفاضة، وقصف، ودمّر. حتى المقاومون لم يكونوا مثاليين، وارتكبوا ما لم ولن تتطرق له أبدًا الأدبيات والصحف والكتب الفلسطينية. للأسف قتل النشطاء أبرياء وبريئات، لشبهات غير مقنعة أبدًا. دفعت نساء حيواتهن ثمنًا لنزوات المناضلين العقلية. واستقبل دير المجانين أمهاتهن اللواتي جُننّ.

لن أكفّ عن التكرار: أجنّ شيء في الكون، عندما يفقد الموت هيبته، ويصبح أكثر الأشياء طبيعية. خلال الاقتحامات المتكررة لجيش الاحتلال لبيت لحم، لم يكن أمل كثير من الذين فقدوا الأمل في العودة إلى منازلهم، وأصبح موتهم محققًا في مخابئهم، سوى أن لا يتأخر النّاس في معرفة موتهم، والتمكن من دفن جثثهم.

كلّ الاقتحامات كانت بروفة لما حدث في فجر 2002/4/3. كانت قوات الاحتلال التي اقتحمت مدينة بيت لحم ضمن عملية إعادة احتلال الضفة الغربية التي قادها الجنرال أرئيل شارون، تفرض حصارًا مشدّدًا على ثلاثة مواقع رئيسة في المدينة هي: مبنى بلدية بيت لحم، وكنيسة المهد، وكنيسة مار أفرام للسريان الأرثوذكس التي كان الأب يعقوب يقيم فيها مع عدة عائلات سريانية، وهو على ثقة، في عزّ محنته، بأنه إذا كان الربّ منح صديقه داهش بك قدرات خارقة، فإن الربّ المانح سيحفظه ومن معه سالمين.

وكان العديد من المقاومين، ومعهم عشرات المواطنين، قد دخلوا إلى كنيسة المهد احتماءً من نيران المحتلين وخصوصًا الطائرات، بينما كان في مبنى البلدية عددٌ من الشخصيات العامة والصحافيين، الذين اعتقلت قوات الاحتلال بعضهم بعد اقتحام المبنى وتحويله إلى ثكنة عسكرية، واقتيدوا ليُعتقلوا في قصر الضيافة الذي بناه الختيار بعد تخلّيه عن مقرّه على أرض المجانين، وتحوّل في تلك الأيام إلى معتقل إسرائيليّ. يا لمفارقات العظمة والجنون.

ومع وصول قوات الاحتلال إلى كنيسة المهد وفرض حصار عليها، كان تسعة من الشهداء قد سقطوا في شوارع البلدة القديمة، ومن بين الذين سقطوا مسنّة وابنها الذي يتلقى العلاج في دير المجانين، استُشهدا بقذيفة أُطلقت على منزل العائلة في البلدة القديمة حيث تركّزت المواجهات.

وكان سقوطهما مؤلمًا ومؤثّرًا في الجماهير خصوصًا أن جثتيهما بقيتا أيّامًا عديدة في المنزل بين أفراده الذين لم يتمكّنوا من إخراجهما بسبب عدم سماح سلطات الاحتلال لسيارات الإسعاف بالوصول إلى تلك المنطقة، فقد كانت قوات الاحتلال تطلق النار على أيّ شيء متحرّك ولا تستثني من ذلك سيارات الإسعاف أو غيرها.

انضم ابن الأسطة، محمّد (16 عامًا)، يوم 2002/6/30، إلى قائمة طويلة من شهداء مخيّم الدهيشة ومعظمهم من الأطفال والفتيان.

عُرف عن محمّد هوايته في تتبع الأفاعي والإيقاع بها، وقبل ثلاثة أسابيع من استشهاده تمكّن من الإمساك بأفعى كبيرة مع فراخها، وعندما رأيته يستعرضها أمام مجموعة من الأولاد، طلبت منه إطلاق سراحها، فضحك ولم يأخذ كلامي على محمل الجدّ.

قال إنه يمسك بالأفاعي لكي يمنع خطرها عن أطفال المخيّم، وإنه يدرك أن هناك أفاعي في هيئة بشر أشد خطرًا على أطفال المخيّم، ولذلك لم يتوانَ عن التصدي لهم. وضحك مرة أخرى.

بدأ محمّد ورفاقه منذ نحو عشرة أيّام، قبل استشهاده، معارك يومية مع المحتلين الذين يحاصرون المخيّم، الذي تحوّل إلى نقطة تماس ساخنة مع قوات الاحتلال كما كانت الحال قبل اتفاق أوسلو.

واستُخدمت الحجارة والزجاجات الفارغة والأكواع، وهي عبوات ناسفة تُصنع محلية، باستخدام أكواع المواسير، لإقلاق المحتلين.

راوغ محمّد ورفاقه جنود الاحتلال وعطلوا عملية اقتحام هؤلاء الجنود للمخيم، ولكن بعض قنّاصة الاحتلال استطاعوا الالتفاف على محمّد ومجموعته، حيث سقط شهيدًا بالقرب من مسجد المخيّم وأُصيب ثلاثة من رفاقه بجراح.

ولم يحل منع التجوال دون تدفق المواطنين على منزل عائلته، القريب من مدخل المخيّم حيث تبرطع دبابات الاحتلال وآلياته.

وتحلّق رفاقه حول والدته، التي تولت تربيته وإخوته بعد موت والده قهرًا، وذاقت الكثير من مرارة زمن لا يرحم الفقراء واللاجئين.

بعد تلك الليلة البعيدة، في مسرح الحكواتي، لم أعد أسمع بأيّ نشاط لمعين عبد ربه، وعندما أسأل أحدًا عنه، أسمع أخبارًا متفرّقة ومتناقضة، وفوجئت، خلال انتفاضة الأقصى، عندما فجّر جسده، الذي حوّله إلى قنبلة موقوتة في القدس، غير بعيد عن مسرح الحكواتي، وكان في طريقه إلى القدس الغربية، ليفجّر نفسه وسط تجمّع يهودي، إلّا أنّ سقوط الأمطار، كما قيل، أحدث خللاً في الحزام النّاسف، فتفجّر في الجسد الذي يطوّقه.

أحببت أن أرى شريطًا مصوّرًا، يتلو فيه مُعين وصيّته الأخيرة، لأعرف كيف تطوّرت شخصيّة صديق قديم مجنون، ولكنّني لم أهتد لشريط مثل هذا، ورأيت ملصقات تحمل صورًا لمعين بلباس عسكري، وهو يحمل رشاشًا، ولم تكن هذه الصور كافية لي، لأن الفصائل خلال الانتفاضة، كانت تركب صورة أيّ شهيد يسقط على صور أخرى، فيظهر بصورة عسكرية، ولم يُستثنَ من ذلك حتّى صور الشهداء الأطفال غير المسيَّسين.

في فترة وُصفت بفوضى السلاح، فاجأ مسلحون ملثّمون ريتشارد الميسيسيبي، الذي ساءت حالته المعنوية والجسدية، بعد فشله في تحذير اليهود، وقتلوه بزخات من الرصاص أمام مطعم صغير كان ريتشارد يعمل فيه جاليًا للصحون.

وصدر بيان باسم أحد التنظيمات المحليّة، يعلن تبنّيه قتل من وصفته بعميل السي آي إيه، وتوعدت بملاحقة باقي العملاء.

تحسّر مَن عرفوا ريتشارد، وقالوا: «مسكين راحت عليه، قتلته الفوضى، التي تقتلنا منذ عقود، وتسيء لقضيتنا العادلة».

رغم عدم مشاركتهم في انتفاضة الأقصى، كما فعلوا في انتفاضة الحجارة، لم يتمكن مجانين ومجنونات الدير من البقاء بعيدًا عما يجري حولهم، وعندما بدأ التضييق على مجموعة من المقاومين المسلحين، ليس فقط من قبل سلطات الاحتلال، ولكن من السلطة الفلسطينية، التي رغبت في الالتزام بالاتفاقيات والوساطات الدولية، وعلى رأس هذه الالتزامات جمع السلاح، لجأ بعضهم إلى دير المجانين، بعدما ضاقت بهم السبل، اقتناعًا منهم، ولا أعرف كيف أتى هذا الاقتناع، بأن وجودهم وسط المجانين سيحميهم.

نفّذ الجيش الإسرائيليّ هجومًا على دير المجانين، فجر الخميس 2004/4/1، شاركت فيه أعداد كبيرة من المشاة والآليات العسكرية، حاصرت الدير من جميع الجهات، واقتحمته بحماية المروحيات، كانت حربًا مصغّرة. اعتقلت ستّة من الأطبّاء والممرّضين، ودمّرت مبنى الإدارة كاملاً، وحطمت الأثاث وأجهزة الكمبيوتر في قسم تخطيط الدماغ، حطمت أجهزة وأثاث عيادة الخدمات العسكرية داخل المستشفى، دمّرت الأبواب والجدران

بالمواد المتفجرة للعديد من الأقسام والعيادات والمباني، وأطلقت النيران من كافة الاتجاهات، واعتدت على المرضى والطواقم الطبية.

وانتهت العملية، التي استمرّت أربع ساعات، باعتقال 13 قاوموا القوات المقتحمة، من كتائب شهداء الأقصى، التي كانت قد أصدرت، قبل يومين، بيانًا شديد اللهجة حذّرت فيه الفاسدين والمستسلمين، وتوعّدت بعقابهم، وغمزت من قناة الأقرع، القائد البارز، بالإشارة إلى أنها ستنزل العقاب بالذين يزوّدون الجدار الفاصل بالأسمنت.

وكانت القناة العاشرة في التلفزيون الإسرائيليّ قد بثت تقريرًا زعمت فيه أن مصنعًا للأسمنت يملكه الأقرع يُزَوّد الجدار الفاصل بالأسمنت، الأمر الذي نفاه القائد البارز.

بعد انسحاب جيش الاحتلال، وقف بعض المرضى على شبابيك غرفهم وهم يرفعون شارات النصر، وقال أحدهم: «معنوياتنا عالية وصدورنا مفتوحة للنيران تتحدّى شارون». وأضاف باللغة الفصحى: «الأقرع يطالب أمس بتجنيب المدنيين ويلات الحروب بينما شارون يدخل المجانين في اللعبة». وأخذ يهتف بينما ردّد زملاء له الشعارات التي ردّدها ضدّ شارون ودعمًا للمقاومة.

بعد أشهر فقط من هذا الحدث، وقع حادث آخر مروّع في دير المجانين، كان له وقعه الشديد، ويتعلق بمريم العِسلينيّة، التي بعدما أزاحت كلّ العوائق في طريقها للوصول إلى الختيار، عادت إلى دير المجانين منفوشة الريش، وأُصيبت بغرور جعلها مكروهة من باقي المجنونات، وكانت تنتهز أيّ فرصة يكون فيها الختيار في بيت لحم، لتكافح للدخول إليه، طالبة منه مِنَحًا مالية.

ولم تكن هناك قوّة على الأرض يمكن أن تحول دون وصولها إلى الختيار، الذي يستقبلها بالأحضان والقُبل، ويوقّع لها على ما تحمله من طلبات بأقلامه الملوّنة.

وبدون أيّ مقدمات، تطوّرت الأمور التي ربما بدأت بمناكفة صغيرة بين مريم وزميلاتها، وهجمت المجنونات على مريم، بالشباشب، ولم يتركنها حتى فارقت الحياة.

لم يعرف أحد تفاصيل ما حدث، وفي الواقع لم يهتمّ أحد بمعرفة الحكاية، التي طويت مع جسد مريم الذي ووري في التراب في مقبرة قبّة راحيل. لم تكن الظروف تسمح بالتوقف عند مقتل امرأة مجنونة، وسط أعداد هائلة من البشر تسقط بالرصاص المجنون.

منصور المحمودي

خلال الانتفاضة الثانية، التي التزم فيها المجانين الصمت، بعدما رأوا كيف أن نتائج الانتفاضة الأولى لم تنصفهم، بل أدّت إلى مصادرة المزيد من أرضهم ومحاصرتهم، ظهر على حين غفلة، صوت منهم، محسوب عليهم، تسلل إلى الفضاء العام محاولاً محاكاته، دون أن يطرح نفسه ناطقًا باسم المجانين.

من بين 728 مرشحًا تنافسوا على 132 مقعدًا في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني عام 2006، ظهر مرشح واحد فقط، لا يستطيع تمويل حملته الانتخابية، أو طباعة ملصقات له، اسمه منصور المحمودي (55 عامًا).

وأخذ المحمودي، نزيل دير المجانين السابق، والذي يعامله النّاس كمجنون، بعمل دعاية انتخابية لنفسه، عن طريق زيارة النّاس في بيوتهم، والدوران على المحالّ التجارية والمكاتب والأسواق، حاملاً معه منشورًا صفّه على الكمبيوتر يحوي برنامجه، ومقدّمًا نفسه للمواطنين مرشّحًا باسمهم للانتخابات.

نشأ المحمودي في مخيّم الدهيشة، كابن لعائلة مشردة، ولم ينل حظًا من التعليم، واتجه مبكرًا إلى سوق العمل الأسود ليعول عائلته، لكنه أصبح عالة عليها، بدخوله دير المجانين.

ومنذ سنوات والترشح في الانتخابات، أيّ انتخابات، أصبح هاجسًا لدى المحمودي، وكان عادة ما يستوقف النّاس ويسألهم أن ينتخبوه عندما

يترشّح للانتخابات في يومٍ ما، وهو ما حدث في انتخابات 2006، حيث ترشّح، برغم ظروفه الصعبة، ومراجعته المستمرّة لدير المجانين لتلقي العلاج. وعن برنامجه قال للناس: «أريد القضاء على البطالة، وهي أهّم ما يعاني منه مجتمعنا، وأريد إنصاف الفقراء والمظلومين».

وتضمّن البرنامج الذي أعدّه المحمودي 21 بندًا، كلُّها تتعلق بالاقتصاد ورفع الرواتب، ودعم الزراعة والثروة الحيوانية، ودعم المواصلات، والقطاع الصحّي، وخفض أسعار البترول والكهرباء والمياه، ودعم القطاع التعليمي... الخ.

وكان المحمودي يقول إنه إذا لم يتمكن من تحقيق بنود برنامجه، فإن لديه بدائل، من بينها تجنيد الشعب الفلسطيني من سن 15 إلى سن 50 عامًا، لكن لماذا؟ لن يفصح عن خطته لأسباب أمنية.

اشترى المحمودي بذلة جديدة له، بمناسبة الحملة الانتخابية، بتبرّعات من زملائه في الدير، الذين رأوا أنّ عليه التنقل بين النّاس بلباسٍ لائق. ولكن البذلة الخضراء اللون، التي اشتراها لم تفلح إلّا بإضافة لمسات كاريكاتورية على شخصيته.

شعر المحمودي بالقلق من مضايقات المرشّحين المنافسين له، وكان يردّ تلك المضايقات إلى صدقه وشعبيته التي وصفها بأنها طاغية، ولتشكيله تهديدًا جدّيًا لهم.

وقال إن بعض المرشّحين ساوموه وعرضوا عليه مبالغ طائلة كي ينسحب من السباق ولكنّه رفض ذلك بشدة، وبرّر هذا الرفض بأنه ملتزم أمام محبّيه الذين يدعمونه، أن لا يبيع ضميره.

وإذا كان بعض المرشحين عرضوا على المحمودي أموالاً كي ينسحب كما ردّد، فقد هدّدته جهات بالاعتداء عليه إذا لم يسحب ترشيحه، كما ردّد أيضًا.

ولم يأخذ النّاس ترشيح المحمودي لنفسه على محمل الجدّ، وتندّر بعضهم قائلين إنه لو وفّر ما يصرفه لأولاده لكان أفضل له ولهم، فيما رأى آخرون أنّ ترشّح المحمودي أضفى على الحملة الانتخابية شيئًا من العذوبة، وكسر التجهّم والجدية اللذين يحيطان بها.

وكان المحمودي على ثقة كبيرة بأنه مع بزوغ فجر يوم 26 كانون الثاني، في اليوم التالي للانتخابات، سيكون قد أصبح عضوًا في المجلس التشريعي، وأنه لن يُضطرّ للاستيقاظ مبكرًا للبحث عن قوته.

لم ينجح المحمودي في الانتخابات، لكنه ظلّ يرتدي بذلة الانتخابات، التي اتسخت ولم يغسلها ولا مرّة واحدة. في هذه المرحلة، فعلت بيت لحم ومخيّم الدهيشة مفاعيلهما في الصحافيّ مات بينون ريبز، الذي عمل مراسلاً صحافيًا، وأصبح مديرًا لمكتب مجلة تايم في القدس، ثم تحوّل إلى مؤلف روايات بوليسية رائجة، يطلها عمر يوسف، أستاذ التاريخ في مدرسة الدهيشة.

وأوّل رواية كتبها ريبز سمّاها «رفيق بيت لحم» صدرت عام 2007 بالإنجليزية ثمّ ترجمت لأكثر من عشرين لغة، وفيها يتولى عمر يوسف حل الألغاز البوليسية.

وعندما علم المحمودي بحكاية ريبز، الذي قال في حوار صحافي، إنه استلهم شخصية عمر يوسف من شخصية حقيقية تعيش في مخيّم الدهيشة، أصبح مستعدًا ليحلف عشرات الأيمان، بأنه، ولا أحد غيره، مُلهم الروائي الصاعد إلى قوائم الأكثر مبيعًا.

ولكن الزمن لم يمهل المحمودي، ليصعد على صيت بينون ريبز، إذ كان صعوده إلى مكان آخر، عندما اختفى فجأة، مع ابنٍ له. بحث الأهل والنّاس عن الاثنين، وجاءت أخبار بأنّ الابن صودف يتسكع على شاطئ تل أبيب، وبرغم عدم امتلاكهم أيّ دلائل، شك فيه الأقارب، ووضعوا خطة لاستدراجه، وهو ما حدث وفق سيناريو يليق بالأفلام البوليسية، شارك فيه أبناء ليل من المخيّم، يعرفون الطرق والمسالك. وعندما وصل الابن إلى المخيّم، سُئل عن أبيه، فأجاب ببساطة وبهدوء:

– قصدكم منصور؟ لقد قتلته!

وأعطى لهم عنوانًا لمكانٍ قريب من مستوطنة يهودية، رمى فيه جثة أبيه، وروى كيف أنه فاجأ منصور، في الليل وطعنه، بدون أن يقدّم أيّ أسباب واضحة لذلك، فطلب منه منصور أخذه إلى المستشفى، ووعده بأن لا يخبر أحدًا عن الأمر، ولكنّ الابن، بعد صعود والده في السيارة، طعنه حتّى الموت.

لماذا قتل الابن، منصور المحمودي؟ تساءل النّاس، وتذكر بعضهم أن الولد أيضًا من الذين يراجعون دير المجانين، يدخلون ويخرجون.

أما عن الشخصية الروائية عمر يوسف، بطل روايات رييز فقد بحث اثنان من مثقفي الدهيشة في صفاتها، وكوّنا يقينًا بأن المقصود هو الشخص الذي يسكن في المنزل الذي سكنه داهش بك، قبل أن يغادر إلى بيروت، حاملاً معه دهيشته، ودهشته، وداهشيته.

ماري حدّاد لم تنس داهش ولا ابنتها ماجدة أبدًا، وتعود بعد 26 عامًا على وفاتها لتكتب بتاريخ 20 شباط 1971، مُذكّرة بالأسباب التي دفعت ابنتها للانتحار، وتتحدّث عن أسبابٍ عائلية وراء قرار بشارة الخوري تجريد داهش من جنسيته: «جريمة تجريد الدكتور داهش من جنسيّته اللبنانيّة ما كان ليقدم عليها بشارة الخوري لو لم أعتنق الداهشيّة أنا وقريني السيّد جورج حدّاد وكريماتي أندره وزينة، ثمّ الفقيدة الغالية ماجدة قاطنة الفراديس الإلهيّة. إن بشارة الخوري هاله وهال زوجته اعتناقي مع جميع كريماتي وقريني وصهرنا جوزف حجّار الداهشيّة، إذ تفانينا في سبيلها ممّا جعل بشارة الخوري زوج شقيقتي لور يصدر مرسومًا جرّد بواسطته الدكتور داهش من جنسيّته اللبنانيّة وأنف الدستور في الرّغام!».

تابعت ماري نضالها: «أصدرت عشرات الكتب السوداء مندّدةً بالعمل الإجراميّ الذي ارتكبه رئيس الجمهوريّة، شارحة مراحل الجريمة النكراء، ووزّعت هذه الكتب السوداء سرًّا على الشعب اللبنانيّ الذي كان يستيقظ ليرى طرق بيروت وقراها قد فرشت بالكتب السوداء وفيها تفاصيل الجريمة الهائلة. وقد سجنني بشارة الخوري مدّة عام كامل قضيته مع المجرمين و مرتكبي القبائح».

ومن عناوين «الكتب السوداء» التي وزّعتها ماري في أعوام 1945 و1946 و1947 و1948، «سأغتال الشيخ بشارة الخوي المجرم»، و«سيقتل الشيخ بشارة الخسيس، وستنتقل روحه إلى إبليس»، و«يجب محاكمة رئيس الجمهوريّة بشارة الخائن». ودفعت ثمن ذلك اضطهادًا وسَجنًا.

كانت ماري التي لم تنطفئ جمرة ماجدة في قلبها حتّى موتها تتوعّد «ان الحمامة الذبيحة ماجدة حدّاد التي قدّمت نفسها قربانًا لن يذهب دمها هدرًا»، ثمّ تستذكر ابنتها بكلمات مؤثرة جدًا، وكأن انتحارها حدث للتوّ.

بعد عام من كتابتها هذه الكلمات، رحلت ماري حدّاد، التي تُعدّ رائدة في الفنّ التشكيلي اللبناني، وصاحبة أسلوب خاص، تصفها بعض المراجع التشكيلية بأنها «تقدّم ذلك النمط المثير من الأعمال التي تنطوي على روح شرقية، وعلى انخطاف بالألق الغربي. لذلك فهي من طراز الانطباعيين الذين ينظرون إلى الموضوع وينطلقون منه للوصول إلى غايات تلوينية تجسّده كواقع له مدلولاته الثقافيّة، ولهذا السبب نالت إعجاب الباريسيين حيث كانت الفنانة اللبنانيّة الأولى التي يقتني متحف جودوبوم الفرنسي لوحة لها بعدما عُرضت في غاليري برنهايم سنة 1933 وغاليري روتجي سنة 1937. شاركت في المعرض العالمي بنيويورك سنة 1939 والمعرض العالمي في كليفلند/ أوهايو سنة 1941 وفي متحف جامعة هارفرد في العام نفسه. انتسبت إلى أتباع داهش ابتداءً من الأربعينيات من القرن العشرين ممّا سبب لها الكثير من المشكلات وأسهم في تهميشها. أمّا أغلب أعمالها فهي ضمن مجموعة متحف داهش في نيويورك».

ذهب داهش مثلما ذهبت ماجدة قبله، وماري بعده، بعدما حمل لوثة الدهيشة إلى بيروت، وصنع عالمًا مجنونًا على مقاسه. ما هو الجنون؟ وما هو غير الجنون؟ هل الحبّ والإيمان والنبوّة جنون؟ وهل الانتحار عشقًا وإيمانًا جنون؟

ويل لمن تحبّ نبيًا أو مجنونًا، خاصة إذا جاء من مدينة المجانين والأنبياء بيت لحم، انظروا إلى مريم المجدلية، وإلى ماجدة وماري حدّاد.

عندما وصل الإمبراطور وإمبراطورته دمشق، فُتن غليوم بشامة الدنيا، وبصلاح الدين الأيوبي، وأهدى له هديّة لا تخطر إلّا على بال إمبراطور أو مجنون، لقد أهدى له ضريحًا، قبرًا من المرمر، مثبّتًا الآن بجوار الضريح الخشبي لصلاح الدين، وعندما زرت مثواه بجوار المسجد الأموي، رأيت النّاس يقفون بجانب الضريح المرمري الجميل يبكون، وثمّة دائمًا شخص يلفت انتباههم بأن رفات صلاح الدين في الضريح الآخر، وليس في القبر الجميل.

ووضع غليوم إكليلاً من الذهب على ضريح صلاح الدين، سرقه لاحقًا لورنس العرب، الذي، عندما سئل، برّر فعلته قائلاً: «صلاح الدين لم يعد بحاجة إليه».

الدمشقيون حاكوا حول غليوم وأوغستا فكتوريا النوادر، مثل ما ذكره فخري البارودي في مذكراته: «في أثناء استقبال إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني عام 1898م في دمشق، لاحظت الإمبراطورة حمارًا أبيض، فاستلفت نظرها وطلبت إلى الوالي أن يأتيها به، لكي تأخذه معها ذكرى، فراح الوالي يبحث عن صاحبه. فعلم أنه يخصّ أبا الخير آغا. وكان الآغا من وجوه بلدته، ويفاخر دائمًا بأن له حبيبين: الحمار وحفيده حسني! استدعى الوالي أبا الخير، وطلب إليه إهداء الحمار إلى الإمبراطورة، فاعتذر. فعرض عليه شراءه منه، فأصرّ على الرفض، ولما اشتدّ الوالي في الإلحاح، أجابه أبو الخير: يا أفندينا، إن لديّ ستة رؤوس من الخيل الجياد، إن شئت قدّمتها كلّها للإمبراطورة هديةً مني، أمّا الحمار فلا! استغرب الوالي هذا الجواب، وسأله: لماذا؟ قال: سيدي، إذا أخذوا الحمار إلى بلادهم فستكتب جرايد الدنيا عنه، ويصبح الحمار الشامي موضع نكتة وربما السخرية، فيقول النّاس، إن إمبراطورة ألمانيا لم تجد في دمشق ما يعجبها غير الحمار، ولذلك لن أقدّمه إليها، ولن أبيعه! ونقل الوالي الخبر إلى الإمبراطور وزوجته، فضحكا كثيرًا، وأعجبا بالجواب، وأصدر الإمبراطور أمره بمنح أبي الخير وسامًا، فسمّاه (وسام الحمار الأبيض)».

ربّما لم يخطر ببال البحمدونيين، ولا الدمشقيين، أن الإمبراطور الألماني كان قد أصيب بلوثة الدهيشة عندما افتتح الميتم الأرمني، قبل وصوله إليهم.

سلام فيّاض

في 10 آذار/مـارس 2003 وافق المجلس التشريعي الفلسطيني بأغلبية كبيرة على استحداث منصب رئيس الوزراء. قبل ذلك بيومين، كان المجلس المركزي لمنظمة التحرير قد أعطى موافقته. اقترح الختيار أبا مازن، لرئاسة الحكومة، مع احتفاظه هو بالمسؤولية عن قوى الأمن الأساسية، وكذلك عن ملف مفاوضات السلام مع إسرائيل، وأحال مسؤولية المالية في السلطة إلى الدكتور سلام فيّاض.

ولم يحدث ذلك، دون أن يترك الختيار، الذي وافق على تجرّع سم توزيع صلاحياته بضغط دولي، ولو شكليًا، بصماته، مشككًا بشركائه في المسؤولية.

يوم 2009/10/27، كانت مناسبة وضع سلام فيّاض الحجر الأساس لمديرية صحة بيت لحم الجديدة على أرض المجانين، بتمويل خارجي من جهات مانحة، بعدما حُطّمت، من جديد، أجزاء من السور المحيط بالدير، واقتُرب من عنابر المجانين أكثر فأكثر. حشرت نفسي مع الحضور لأراقب وأوثّق من أجل روايتي هذه.

خلع فيّاض سترته وحمل بطريقة مسرحية حجرًا مشغولاً، ووضع الأساس، بينما كان ثمّة مجانين يبحلقون من شبابيكهم في الاعتداء الجديد على أرضهم. لمحت من بينهم يوسف علّان، فتوجّهت إليه، قال لي:

– هل يرضيك ما يحدث؟ أنتم تقتربون من وطننا... إننا نختنق، هل زعّلنا أحدًا منكم حتّى تفعلوا بنا كل هذا؟

قلت له:

– أنا أيضًا أختنق يا يوسف، أختنق من النكبة المستمرّة المزدوجة، ومن تحوّل بيت لحم إلى سجنٍ، واستعراضات القيادات، وكذبها، وعدم إخلاصها.

شعرت بأن يوسف أشفق عليّ فقال:

– تعال عندنا هنا، اتركك من عالمهم...!

كان الكثير من الأصدقاء قد لاحظوا ما وصفوه بتدهور حالتي، وتوقعوا لي مصيرًا في دير المجانين، بعدما علموا أنني أكتب هذه الرواية، وقال عمّار الجوري: «مَن كتب عن قومٍ صار مثلهم»، وتعهّد ضاحكًا بأن لا ينساني بالزيارة.

أردت الاستفسار من يوسف عن تفاصيل تتعلق بآخر الضحايا المجانين، الذي وُجدت جثته في أواخر شهر تموز 2009.

قال لي يوسف إنّ الشرطة عثرت على جثة زميلهم المجنون، ملقاة على جبل في ارطاس، قرب برك سليمان. نُقلت الجثة إلى مستشفى بيت جالا الحكومي. وقالت الشرطة إن الفحص الظاهري للجثة بيّن وجود كسر وجروح في الوجه والرأس، وإنه بعد البحث والتحرّي من قبل شرطة المباحث تبيّنت هوية صاحب الجثة، وأن الوفاة حدثت بعد مغادرته دير المجانين بساعتين.

قال لي يوسف إن المجنون المتوفّى كان يأتي بنفسه ليتلقى العلاج في الدير، يدخل ويخرج، وفي المرّة الأخيرة، هرب من الدير، متوجّهًا إلى منزله، ومات. كيف؟ هل كان ذلك بسبب سقوطه على الصخور؟ هل هناك شبهات جنائية؟

لم يستطع يوسف تحديد رأي واضح في الموضوع، وقال: في النهاية مَن سيهتم بلحظات المجنون الأخيرة؟ أهله سيرتاحون منه، وسيقولون: ما حدث هو قضاء وقدر، ويا محلى ما يقدّره اللّه.

مازح فيّاض الموجودين، وتحدّث عن التنمية والبناء، وتشييد المؤسسات، وخدمة المواطن، ولم يذكر سيرة المجانين.

هل كان يعلم بوقفة الإمبراطور غليوم في نفس المكان، مفتتحًا ومشيدًا؟ ما الذي تغيّر في الأرض المقدّسة حيث نخبٌ محلية تتوالد، ومانحون يتحكمون ويسيطرون؟

في شهر أيّار، حضر فياض إلى بيت لحم وشارك في المؤتمر الاقتصادي الذي جنّدت له الدول المانحة حلفاءها السياسيّين، والماليين، وحضرته شخصيات عربية وعالمية، مثل توني بلير، ووزير خارجية فرنسا كوشنير، ودستة طويلة من الأسماء الرفيعة وغير الرفيعة، العربية والأجنبية.

ومن سوء حظ فيّاض، أن أولاد مخيّم الدهيشة، التي تمر سيارات الوفود من أمامه، على شارع القدس-الخليل، عادوا لممارسة هواية سابقة: رشق سيارات الجيش الإسرائيليّ بالحجارة، فقد كانوا هم مَن بدأوا، مع بداية الاحتلال، ما أصبح شائعًا لاحقًا في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

عندما مرّت سيارة فيّاض، كانت مجموعة من الأولاد قد نصبت لها كمينًا، ورمتها بالأحذية، مثلما فعل الصحافيّ العراقي منتظر الزيدي الذي رشق الرئيس الأميركي بوش بحذائه.

اعتقلت الأجهزة الأمنية الأولاد، ولم تستطع معرفة سبب ما حدث، أو كشف المتآمرين الذين يقفون خلف الأولاد، ولم يخطر ببال المحققين أن راشقي الأحذية أرادوا إرسال رسائل سياسيّة واقتصادية واجتماعية، بشكل لم يخططوا له، ولم يستطيعوا التعبير عنه بالكلمات، وهم يرون السيارات الفارهة، والمواكب الرسمية تتبختر أمام مخيّمهم البائس.

السطور السابقة لا تحمل رأي المؤلف، لذا يجب الاحتراز، وإنما رأي يوسف علّان، الذي قال عندما سألته، مخاتلاً، عن جدوى رشق الرؤساء بالأحذية:

«سأتخيّل العبد علوي أمامنا وسأردّ بلسانه: أنتمي لشعبٍ، وطئت أقدام الفاتحين والمحتلين رقابه، على الأقلّ منذ أكثر من سبعة آلاف عام.

قريتي «عزيقة» تغيّر اسمها مرّات لا أعرف عددها، هذه المدينة الحصينة في الهضاب المنخفضة، أصبحت في فترة ما من العصر البيزنطي بيت زكريا، ولدى العرب، الذين خاضوا بقربها معركة أجنادين الحاسمة، زكريا البطيخ، ثمّ زكريا، وفي العصر الإسرائيليّ الجديد من أسمائها زخاريا.

رمسيس الرابع وقبله وبعده من فراعنة قادوا حملات تأديبية ضدّها، وسنحاريب دمّر أسوارها وأبراجها الممتدة نحو السَّماء، بشكل لا يمكن تصوّره إلا من خلال البقايا الأثرية في الموقع، وسبى ناسها، وتظهر المكتشفات الأثرية التي كشف عنها أولاً عالم الآثار يارد في العراق، هؤلاء، مع أسرى لاخيش (تل الدوير) مدينة السهل الساحلي البهيّة، وهم يمرّون في حالة ذلّ أمام الإمبراطور العظيم.

في كلّ هذه الغزوات، حاول اليهوذيون سكان عزيقة ومرتفعات السهل الساحلي، المقاومة، وليس أبرز من ذلك ما اكتشف في لاخيش من إشارة يبدو أنها الأخيرة التي جرى تبادلها بين غرفتي عمليات المقاومة في عزيقة ولاخيش قبل الدمار الأخير.

تشي الرقاقة التي يبدو أنها موجّهة لقائد المقاومة في لاخيش من برج مراقبة متقدّم، بالإحساس المقبل بالدمار النهائي: «قل لسيدي بأننا نترقب إشارات لاخيش، طبقًا لكل الإشارات التي أعطاها سيدي، لأننا لا نرى عزيقة».

كانت عزيقة تُحرق هذه المرّة على أيدي البابليين، ولتكون مع لاخيش آخر مدينتين في السهل الساحلي تصمدان في وجه الدمار البابلي النهائي.

هؤلاء الذين اكتشفوا التوحيد، ضمن عملية طويلة ومعقّدة (ففي عزيقة عُثر على أحد النصوص المثيرة التي تربط الإله يهوذا بالإلهة عشتار العارية)، قُدّر لهم أن يخطوا في ما بعد الكتاب الأكثر تأثيرًا في تشكيل وجدان العالم القديم والحديث.

الثورات لم تتوقف في العصر الروماني، وقاد أباطرة روما بأنفسهم عمليات تأديب كبيرة، أشهرها هدم مدينة القدس، وبناء إيليا كابتلوينا، التي وصلها العرب في العصر البيزنطي وهم يسمّونها «إيلياء».

وفي العهد الجديد دفعت عزيقة ثمنًا لا يمكن أبدًا معرفة مدى فداحته، إلّا من خلال البقايا الفسيفسائية البيزنطية الباقية من كنيسة زكريا، البالغة الأهمية، كما تظهر في خريطة مأدبا الفسيفسائية، التي أُقيم عليها مقام ومسجد النبي زكريا.

يمكن تقدير أن التحوّل الذي حدث، من الديانة المسيحيّة إلى الإسلام القوي الجديد، لم يكن ليتم بسلاسة، مع سيطرة الأرستقراطية القرشية، و«اختفاء» سكان عزيقة، ليظهر فيها أُناس جدد.

لم يُرفع الحذاء أبدًا عن رقاب شعبي: الأمويون، الذين حوّلوا القدس إلى غرفة عمليات لمؤامرتهم على الخليفة الشرعي، ارتكبوا المجازر، وقمعوا التمرّدات، والعباسيون ذبحوا الأمويين، ولو كانت مياه نهر العوجا تنطق لتحدّثت عما جرى. وكرّت السبحة، سقطت القدس من الحامية الفاطمية المتهالكة، في أيدي الصليبيين الذين ذبحوا 100 ألف فلسطينيّ (وفقًا للمصادر الصليبية)، ولا أعرف إن مارسوا طقس أكل لحوم البشر، كما فعلوا في المعرّة مثلاً، أو حتى في ما بينهم، أم لا؟

ولا أعرف كم واحدًا من عائلتي حُشر مع المحاصرين في القدس، وسالت دمائه، باسم الصليب هذه المرّة، واستمرّت أنهر الدماء مع كلّ غازٍ وفاتح ومحتل وعميل إقليمي يحكم من مصر أو دمشق لقوى كبرى.

ولا أعرف كم مرّة كان على سكان عزيقة أن يغيّروا دينهم، وسيكون من الصعب معرفة عدد الآلهة التي عبدوها، أو فُرضت عليهم، ولكن كلّ ذلك لم يساعد أبدًا على نهوضهم وتطوّرهم، وعندما دخل الجنرال أللنبي القدس قائلاً: «انتهت الآن الحروب الصليبية»، كان النّاس منهكين مذلين أُميين ينوؤون بثقل تاريخهم الطويل الدموي: من حصار وغزو وسبي وقتل وحرق وتدمير واغتصاب نساء.

بعد كلّ ذلك هل تستكثر علينا يا حضرة المؤلف، أن يرشق واحد منّا، نحن الشعب المذل المهان طوال قرون، الإمبراطور الأميركي بفردتي حذائه؟

فردتان في وجه الوالي، والعشّار، والآغا، والباشا، والبيك، والرئيس، والبصّاص، ورئيس البلدية، والناطق الإعلامي، وعضو المكتب السياسيّ، والأمين العام، والزعيم الملهم، والزعيم الرمز... فردتان في وجه الزمن المائل...».

صفقت ليوسف علّان، متخيّلاً العبد علوي بنظارته وكأنه يلقي خطابه الأخير، قبل أن يلقي نفسه في البركة الرومانية.

تجاهلت وسائل الإعلام الفلسطينية خبر رشق سيارة فياض بالحجارة، الذي نشرته بتوسّع صحيفة الجيروزاليم بوست الإسرائيليّة.

وأنا لن أتجاهل، وأنا ألاحق قصص المجانين، قصّة صديقي عبده.

سماء كاملة

1

نظر من شباك الغرفة الصغير، الذي لا يشبه أيّ شباك آخر، ويطلق عليه عبده «الشّبَك»، وباغتني بسؤال: كيف هو وقع القدم على الإسفلت؟

نظرت إليه مليًّا، أنا الذي أدخل السجن لفترات قصيرة، وأخرج إلى شوارع الإسفلت، بينما كان لا يزال ينظر إلى السَّماء التي تظهر مثل مكعّبات حلوى البقلاوة بسبب الشبك الحديدي الذي يحول دون رؤيتها كاملة، وقلت له:

– الإسفلت ليس شيئًا يمكن للمرء أن ينتظر منه وقعًا ما...

قال:

– لا أريد أن أُصدقك. منذ ٢٥ عامًا لم تلامس قدماي سوى أرضيّات غرف السجن الباردة، بلاط، أسمنت، لم أعد أذكر، عندما دفعني الجندي في الجيب، آخر ما لمسته قدماي، قبل أن أُغيّب كلّ هذه السنوات...

نظر إليّ وعدل جلسته على «البرش»:

– بربّك، ما هو ملمس الإسفلت..!؟

– قد يكون ساخنًا ذا ملمس خشن، لا يخلّف انطباعًا حميمًا، إنه يذوب وتجرفه الأمطار، وله رائحة سيئة.

– أذكر فقط قوّته الاندفاعية... ما كاد الجندي يشدّني من رقبتي حتى شعرت كأنني ورقة في مهبّ ريح لفظتني إلى أرضية الجيب الخشنة...

حاولت إحداث انقلاب في حديثنا المثير للمواجع، ضحكت وأنا أقول له:

– الإسفلت هو «الزفتة» مصدر نعتنا لكل ما هو «زفت»...!

ضحك وهو يقول:

– أشعر بأن الشوق يقتلني إلى الإسفلت، تُرى هل سأعرف كيف أسير عليه عندما يُفتح باب السجن؟ هل سيحتملني؟ هل سيطيّرني؟ أم سيقذفني إلى أرضية جيب آخر؟

2

لا يراها السجين إلّا مكعّبات. عندما ينظر من الشباك المشبك بحديد قويّ، لا يرى سماءً كتلك التي يعرفها النّاس. وعندما يخرج إلى ساحة الفورة (التريّض)، تصطدم عيناه بسياج يحول دون رؤيته للسماء كاملة، هي فقط مكعّبات. يظل يفور.. ويفور في الساحة، ولا يرى سواها، تلك المكعّبات.

لا يكلّ الأسير في محاولته اختلاس النظر إلى السَّماء، لعله يجدها كاملة. في ذهابه إلى عيادة السجن، وخلال اقتياده إلى زنزانة انفرادية لقضاء فترة عقوبة، وعندما يسرع بشوق إلى موعد زيارة الأهل. لكنّه يجد نفسه محاصرًا بالشبك. مكعّبات في كلّ مكان، لها القدرة على إحالة كلّ شيء، لا السَّماء فقط، إلى أجزاء ونتف، ومكعّبات، مختلفة الأحجام... من خلال الشبك الضيّق، يرى وجه الأم، وأنف الأخ، وأصابع الصغير التي تحاول اختراق شبك الزيارة، دون جدوى، وعيني الأب...كلُّها مكعّبات، عالم من المكعّبات.

عندما تُطفأ الأضواء، ويستكين السجين إلى برشه، يصوّب عينيه إلى الشباك المشبك، فتصطدم عيناه بسماء المكعّبات، يحاول تذكر السَّماء التي يعرفها، ويقسم بأنه عندما يخرج فسيحملق طويلاً في السَّماء الرحبة التي عرفها ذات يوم ولم يتخيّل في أسوأ كوابيسه، قدرة أحد، أيّ أحد، على مسخها إلى مكعّبات.

3

عندما فُتح باب السجن، وخرج عبده بعد ثلاثين عامًا، لم يحتمل وقع الإسفلت. أخذ يسير قفزًا، وكأنّ مسامير حادة تلسعه. ثم عجز عن رؤية النّاس كما عرفهم يومًا ما ولا وجد السَّماء هي السَّماء. كانت مثل سماء السجن الطويل، مقسّمة مثل حلوى البقلاوة، والنّاس كلهم، والأشياء كلُّها بقلاوة، ولكن دون حلاوة مذاقها.

لا يعرف أحد ما جرى بالضبط لعبده، لحظة قذفه الإسمنت إلى دير المجانين، عندما كانت الصور تنعكس في ذهنه مكعبات. لم يكن يرى نفسه، وعندما فكر في صورته، وجهه، رأسه، أنفه، كحلوى البقلاوة، كان الإسفلت قد أكمل لعبته مع عبده، وكأنه لم يكتف بموات ثلاثين عامًا.

الرّوس قادمون

بعد مبنى دائرة الصحة، كثرت المشاريع، وتجدّدت شهية قضم وطن المجانين، من قبل العاقلين، فبُنيت دوائر حكومية أخرى، وبقيت قطعة أرض، على شارع القدس-الخليل، كانت تحاذي طريقنا القديمة المؤدية إلى دير المجانين، وحوّلتها سلطات الاحتلال إلى معسكر لجيشها، في الانتفاضة الأولى.

كثيرون وضعوا أعينهم على قطعة الأرض الاستراتيجية هذه، وتردّدت أسماء شخصيات كبيرة ونافذة في السلطة الفلسطينية، بأن بحوزتها صكوك ملكية لتلك الأرض، ولكن كيف؟ ولماذا؟ لم يكن أحد يعلم.

وبرغم الأقاويل العديدة المغلفة بالغموض، والتي تشير إلى فساد متزايد، ذهبت قطعة الأرض باتجاه آخر تمامًا، وأُعلن فجأة أنّ الرئيس أبو مازن منحها للرّوس، الذين أرادوا العودة إلى حلبة السياسة في الشرق الأوسط، من خلال استحداث مركز ثقافي تابع لهم في مدينة بيت لحم، والمموّل هو شركة نفط روسية خاصة، وسط ترحيب فلسطينيّ رسميّ وشعبيّ.

الرّوس يملكون ما بين 3-4% من أراضي فلسطين، وعلاقتهم الدينية والثقافيّة والسياسيّة، قديمة بالأرض المقدّسة، وبعد تأسيس السلطة، تجدّدت جهود روسيا الناهضة ببطء على ركام الاتحاد السوفياتي، لاستعادة أراضيها، خصوصًا تلك التي كانت تسيطر عليها الكنيسة البيضاء، المناهضة للكنيسة الحمراء التي ظلت تحت عباءة الاتحاد السوفياتي.

يوم السبت 11 حزيران 2011، احتُفل بوضع الحجر الأساس لمركز الأعمال الثقافيّة الرّوسية، على مساحة أربعة دونمات.

وصل إلى الموقع وفد روسي رفيع المستوى، قال أعضاؤه إن وجودهم يعكس الاهتمام بالعودة الرّوسية المنتظرة، إلى القيام بدور سياسيّ فاعل في المنطقة.

وألقى سيرغي استيباشن، رئيس الجمعية الإمبراطورية الرّوسية-الفلسطينية، التي تأسّست عام 1882، الكلمة الرئيسة في الحفل، وتحدّث بفخر، عن الجهود الرّوسية للعودة إلى الأراضي المقدّسة.

وقال استيباشن، الذي يشغل أيضًا منصب رئيس ديوان الرقابة المالية الرّوسية: «إن روسيا والجمعية الإمبراطورية الروسية-الفلسطينية، تعودان إلى فلسطين، بالسلام، من خلال هذا المركز، وسيشكل ذلك مدخلاً للعب روسيا دورًا سياسيًا في المنطقة»، هل كانت ذكرى حرب القرم تسكن في مكان منزوٍ في عقله؟ ويخشى أن تظهر وهو يشدّد على كلمة السلام؟

سيرغي هذا أبدى، لدى تولّيه منصبه، حساسية تجاه التاريخ، وحماسة تجاه منصبه، الذي كان أوّل شاغل له سميّه الأمير سيرغي ألكسندروفيتش عمدة موسكو، الذي جاء إلى فلسطين وحضر عام 1882 مراسم وضع الحجر الأساس لكنيسة مريم المجدلية على جبل الزيتون في القدس، برفقة زوجته يليزافيتا فيودوروفنا، وهي شقيقة دوق هسّن في ألمانيا. اعتنقت الأميرة مذهب زوجها الأرثوذكسي إمعانًا في تديّنها، ولم يدر بخلدها وهي تقف على منحدرات جبل الزيتون، أنها سترتبط بهذا المكان، الذي كان يبدو أنه يبحث عن هويته أكثر من غيره، في ظل اضطراب الأمور في الإمبراطورية العثمانية.

في ظل الأوضاع التي كانت تشهدها روسيا القيصرية، واندلاع عمليات «الإرهاب الثوري»، اغتال الطالب المتحمسّ كاليايف، الأمير سيرغي ألكسندروفيتش رومانوف، بإلقاء قنبلة على عربته قضت عليه عام 1905م، وعُيّنت أرملته الأميرة يليزافيتا فيودوروفنا، خلفًا له في رئاسة الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية الروسية، وتضع الروايات ذات الطابع الديني، الأميرة الأرملة، في صورة وفاء يُحتذى، عندما تشير إلى أنها جمعت

أشلاء زوجها المضمخة بالدماء، المتناثرة على ثلج موسكو، وباعت أو وهبت ممتلكاتها، الثمينة ولا شك، وأسّست رهبنة للعناية بفقراء موسكو.

ولم تكن عملية اغتيال زوجها هي آخر الأحزان، ولم يكن آخرَ المطاف لجوؤها إلى اللّه، في بلادٍ كانت على موعدٍ مع واحدةٍ من أكبر ثورات القرن العشرين، قرن التغيّرات الكبرى.

تذكر المدوّنات التي تطرقت إلى سيرتها، أن الثوّار الشيوعيين الذين قرّروا التخلص من جميع أفراد العائلة القيصرية، قبضوا عليها، وألقوا بها حيّة في هوّة منجم فحم في سيبيريا، فلقيت حتفها عام 1918م، لكنّ جنود ألكسندر كولتشاك، زعيم الحركة البيضاء المناهضة للثورة الشيوعية، أخرجوا رفات الأميرة، بمساعدة الجيش البريطاني، الذي انضم إليه كولتشاك.

وكانت الأميرة هذه المرّة، وهي مجرّد رفات، على موعدٍ مع رحلةٍ جديدة، وأخيرة إلى الأراضي المقدّسة، لم تكن سهلة أبدًا، حيث نقلها جنود الثورة المضادة، بسرية ووسط مخاطر، إلى كنيسة مريم المجدلية، لتتمكّن من النوم أخيرًا، في المكان الذي أحبّته.

في تشرين الثاني 1981م، طوّبت الكنيسة الرّوسية البيضاء، الأميرة النائمة على منحدرات جبل الزيتون، باعتبارها شهيدة، وفي عام 1992م، أعلن أساقفة بطريركية موسكو، قُدسية يليزافيتا فيودوروفنا، ليصبح ضريحها في القدس مزارًا.

وفي عام 2011، تحدّث رسميون فلسطينيون أمام سيرغي المتأثر بجلال اللحظة، وممّا قالوه مثلاً: «إن هذا المركز، يعبّر عن أهمية عودة روسيا مجدّدًا إلى الشرق الأوسط من بوابة فلسطين، إن هذه العودة مطلوبة وبإلحاح لتعديل ما هو حاصل في موازين القوى، إنّ غياب روسيا أدّى إلى خلل في العلاقات الدولية».

مَكر التاريخ، لم يكفّ عن الابتسام للأميرة القديسة، بعدما نفضت روسيا عنها تبعات الثورة الشيوعية، وتصالحت مع تاريخها القيصري. لا شيء يمكن أن يؤكد أن الأميرة النائمة في القدس تتابع أو تحفل بما يدور، وإلّا لكانت، من عالمها الآخر، ضحكت كثيرًا على أهواء وتقلبات البشر في عالمنا، التي تبدو في أحيانٍ كثيرة غير مفهومة.

بعد إلقاء الكلمات، شارك المسؤولون الروس والفلسطينيون في وضع الحجر الأساس للمركز الضخم، والحجر عبارة عن لبنة مصنوعة عام 1882، في روسيا، جُلبت من المقر الرئيس للجمعية الإمبراطورية الروسية-الفلسطينية في العاصمة موسكو، والقريب من مبنى الكرملين.

وتحدّث الرّوس بثقة بأنه سيتم إنجاز المركز خلال عام. وهذا ما كان، حيث كان من أسرع الأبنية التي شُيّدت، فالإرادة السياسيّة الروسية موجودة، وكذلك التمويل من المموّل النفطي ميخائيل غورتسوف.

بعدما وُضع الحجر الأساس، وكنت منهمكًا بالتقاط الصور (نيابة عن عمّار الجوري، الذي أوكل إليّ المهمة، بعد إلحاحي، كي لا أُفوّت هذه المناسبة، وأنا أجري وراء روايتي)، وسط وفد صحافي روسي يغطي الحدث الكبير، لم يخطر ببالي كم هو صغير هذا الواقع، الذي يختلط فيه عالما العاقلين والمجانين، ولماذا يتعيّن على بيت لحم أن تكون دومًا، ملتقى طموحات سياسيّة، وأجندات، مهما تغيّرت الظروف، وكرّت السنوات، من نجمة المهد المسروقة التي أخذتها روسيا القيصرية ذريعة لشنّ حرب القرم، إلى قطعة الأرض هذه الباقية من وطن المجانين، وتخطط روسيا لتكون منصّة لها للقيام بدور سياسيّ إقليمي.

ويبدو أنه لست أنا فقط مَن كان يفكر بهذه الطريقة. فجأة، أحسست بيدٍ تربّت كتفي، وعندما التفتت رأيت يوسف علّان، بلباسه المتسخ والرثّ، ولم أسأل نفسي كيف تمكّن من اقتحام حشود الرسميين الروس والفلسطينيين ليقف خلفي، ويقول لي بثقة وبابتسامة صفراء:

– كما ترى، لم يعد هناك فاصل بين الوطنين، والعالمين، كله جنون في جنون...!

أخذت يوسف علّان من يده، وجررته، وأنا أخرج من وسط الرسميين، قبل أن يتنبه أحد ويلاحظ يوسف علّان بلباسه وهيئته، ويرتاب في الأمر.

مشيت ويوسف عائدين إلى المخيّم، وهو يشعل سيجارة من عقب أخرى، مستعرضَين ما مرّ معنا خلال سنوات انتفاضة الأقصى القاسية من قتل، وهدم، وتشريد، وتهويد، واقتتال فلسطيني-فلسطيني.

قال يوسف:

– أصبح الجميع مجانين والبلد مجنونًا، وكل شيء جنون في جنون.

وقلت:

– هكذا أصبحت أرى دنياي الصغيرة.

حاول يوسف علّان إقناعي بالذهاب معه إلى دير المجانين، قال:

– مَن عرفه ومَن لم يعرفه، سار، ومَن سار طار، ومَن طار حار. كتب العبد علوي في خربشاته: كل واحد منا سَطَحار. بما أنّ العالمين أصبحا واحدًا، فلماذا لا تأتي معي؟

– يبدو أن لكل منّا عصافيره التي تزقزق له...! كلّ منّا سَطَحار...!

في تلك الأيّام، برزت على السطح قصة جنون من نوع آخر، وصل المخيّم فلاديمير بريمكوف، ابن الـ23 عامًا، الذي قدّم نفسه بأنه روسي هاجر إلى إسرائيل، وخدم في جيشها، واكتشف عنصريتها، وظلمها، وأنه قرّر الانشقاق، والحصول على الجنسية الفلسطينية.

سكن بريمكوف في المخيّم، وأعلن انتماءه للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وسط توجّس البعض من أن يكون عميلاً إسرائيليًا. عمل بريمكوف ذو الوجه الطفولي، في المركز الروسي، بدوام جزئي، ونتيجة ضغط إسرائيلي كما قال، اعتقلته السلطة الفلسطينية، وحقّقت معه، ثمّ سلّمته للاستخبارات الإسرائيليّة، التي قدّمته للمحاكمة بتهمة الانتماء لمنظمة معادية. وعندما خرج من السجن، لم ييأس، سافر إلى فرنسا، وذهب إلى السفارة الإسرائيليّة في باريس مرارًا ليتخلى عن جنسيته الإسرائيليّة، ولم يخلُ الأمر من مصاحبة وسائل الإعلام له التي اهتمّت به، خصوصًا بعد نشر صحيفة هآرتس العبرية، تقريرًا طويلاً عنه.

اعتبر بريمكوف باريس محطة مؤقتة، ولكنّه أعلن أنّ وجهته هي قطاع غزة، ليستقرّ هناك ويحصل على الجنسية الفلسطينية.

قارن البعض بين بريمكوف وليفنغر، الذي حاول شراء منزل الأسطة في المخيّم، ودافع البعض معتبرين المقارنة ظالمة، تحمّس البعض لبريمكوف، وتوجّس آخرون.

أما يوسف علّان، فضحك كثيرًا وهو يردّد:

– عليك أن تعرف أن وطن المجانين له قدرة جذب لا يمكن توقّعها... أهلاً بالرفيق بريمكوف في وطننا...!!

ولكنّ وطن المجانين ضاق ببريمكوف وطرده، واستعدّ لاستقبال فلاديمير آخر، إمبراطور آخر، جاء فاتحًا لما بقي من وطن المجانين.

بوتين مرّ من هنا

في 25 حزيران 2012، حطَّ الرئيس الرّوسي فلاديمير بوتين في فندق الملك داود بالقدس، احتلّ الفندق، مع حاشية تقدَّر بـ300 من الذكور والإناث، أجرى لقاءات في إسرائيل، التي غمز رئيسها من قناته مرّتين، بسبب الملف النووي الإيراني، ودعم روسيا لنظام بشّار الأسد.

فجر اليوم التالي، وصل بوتين إلى بلدة القدس القديمة، إلى الحائط الغربي (البراق، المبكى)، وأدى بعض الشعائر، وخلال الزيارة قُدّم له كتاب عن نفق الجدار الغربي باللغة الروسية، وعندها طالب بوتين بزيارته والتجوال في الموقع، وهو ما كان، وبحسب المصادر العبرية فقد انبهر بوتين من هول ما رأى واستفسر عن التفاصيل وقال: «هنا نشاهد كيف أن التاريخ اليهودي محفور في حجارة القدس».

بعد ساعات قليلة، وصل إلى بيت لحم التي استعدّت لزيارته قبل أكثر من شهر، وشهد موقع المركز الثقافي الروسي، ورشة عمل عملاقة. تمّت إزالة المطبّات، وزراعة الزهور، وعمل ممرات مشاة، وبناء دوّار كبير على اسم الضيف الروسي.

قال يوسف علّان:

– يا ريت لو أن بوتين يرى أبعد من 300 متر، لكانت المدينة كسبت المزيد من الترتيب...!!

أصبحت منطقة المركز الثقافي، وكأنها جزيرة جميلة منعزلة عمّا حولها، افتتح بوتين وأبو مازن، المركز، وشارعًا باسم بوتين، والدوّار وسط شارع القدس-الخليل.

واستجلبت الزيارة والافتتاح تصريحات استراتيجية. قسطنطين كوساتشوف رئيس الوكالة الفدرالية لشؤون رابطة الدول المستقلة والتعاون الإنساني الدولي، رأى أن افتتاح المركز الروسي «هو حدث ذو بعد جيوسياسيّ وإقليمي. وهو مساهمة في تسوية مشكلة الشرق الأوسط على المستوى الإنساني».

لم يفهم عمّار الجوري، ولا أنا، وقهقه يوسف علّان...!!

زار أبو مازن، بعدما ودّع نظيره الروسي، مخيّم الدهيشة زيارة مفاجئة، لكي يتفقّد أحوال أبنائه اللاجئين، كما بثّت الوكالة الرسمية. أشبع الذين واتتهم الفرصة للسلام على أبي مازن الذي كان يسحّ عرقًا ببذلته الرسمية في أجواء صيفية حارقة، الرئيس بالقُبل، ونُشرت صور يظهر في إحداها يوسف علّان، بملابسه الرثة وهو يقف خلف الرئيس، ويبتسم بخبث.

بعد الزيارة جاء إليّ يوسف علّان وقال: «الجنون هو في نهاية الأمر امتياز، فالمجنون يعيش بدون تكليف أرضيّ أو سماويّ، ليس مطلوبًا منه تسديد فواتير الأرض أو السَّماء، ليس على المجنون حرج، تعال معي يا رجل».

في الأيّام التالية، فكّرت جدّيًا بعرض يوسف علّان، وقلت على الأقلّ سأهرب من بطش مَن كتبت عنهم في هذه الرواية بشكل موارب، ولكنهم سيعرفون أنفسهم، ولن يصمتوا. وكذلك من الذين كان وجودهم أساسيًا في الأحداث الواقعية، ولم أذكرهم جبنًا، وأدرك الآن أنّهم سيدركون أنّ من مصلحتهم إسكات مَن قد لا يسكت حتى يكمل ما بدأه، رغم أنني لا أنوي ذلك أبدًا. وأشعر بالأسف، لأنني لم أكن صادقًا بما فيه الكفاية، وإلّا لكتبت رواية أفضل من هذه بكثير، ولكن عندها ربّما سأشعر بالحزن، وربما سأجن، عندما أعلم أنه لن يقرأها إلّا نفر قليل، قادته صدفه المجنونة، لتقليب أوراقها.

وأنا أسطر الأسطر الأخيرة في روايتي هذه، أشعر بأنني لم أقل كلّ شيء عن مجانين بيت لحم، كتبت عن البعض، وغاب كثيرون، لم أكتب ولا أعرف

لماذا، عن محمّد عبيد، المجنون السوري، الذي أدرك، بعد حرب حزيران 1967، أنه لن يغادر دير المجانين أبدًا، فاعتبر الدير منزله، والمجانين أهله، فكان كلّ ليلة يتمّم على العنابر، ويتأكد من إغلاق الأبواب، ووجود جميع عشيرته من المجانين.

ولم أكتب عن المجنون الشركسي، ابن العائلة الدبلوماسية الأردنية الأرستقراطية، التي كانت ترسل إليه، قبل الاحتلال، كثيرًا من المتطلبات، حتى اللحمة الحمراء غير المغشوشة، ولكنها نسيته بعد الاحتلال.

ولم أكتب عن مجانين عرب كثر نسيهم أهلهم، وعاشوا غرباء في دير المجانين، ولا عن مجانين الجيوش العربية، مجموعة متنوّعة من جنود سوريين وأردنيين وعراقيين، تقطعت بهم السبل خلال حرب حزيران، فوجدوا أنفسهم في دير المجانين. هل كانوا مجانين حقًا، أم أصبحوا مجانين كي لا يقعوا في قبضة العدو؟ انتظرتهم مريم العِسلينيّة على شارع القدس-الخليل، ورقصت لهم، وقدّرت الأقدار أن تلتقيهم في دير المجانين، لترقص وتغنّي لها ولهم، وللمجنونات اللواتي شبشبنها قتلاً.

ولم أكتب عن الإخوة المجانين السبعة. عائلة المجانين العريقة، هل كانوا أيضًا مجانين حقًا، أم هم أرادوا اعتزال الدنيا، فأصبحوا مجانين؟

في الواقع لم أكتب إلا السطر الأوّل في ملحمة مجانين فلسطين والعرب على أرض بيت لحم، على أرض الدهيشة. الأسطر المقبلة لن يكتبها إلّا مجنون عاش في دير المجانين، لا واحد مثلي، لامس السطح الظاهر. لو لم يكتب العبد علوي سطره الأخير في حياته، ولم يترك ذلك للآخرين وللأقدار، لكان أكمل أوراقه بعملٍ مجنون عن المجانين بقلم واحد منهم.

ضحك يوسف علّان من إخفاقي: «هل قرأت عقلاء المجانين لابن حبيب؟».

أجبته بالنفي كاذبًا، بل محاولاً عدم فتح أبواب جديدة في عالم المجانين المتسع، ولكنّه أردف: «اسمع، هذه مجرّد نتف عن أنواع المجانين كما ذكرها حبيبنا ابن حبيب: الأحمق، والمعتوه، والأخرق، والمائق، والرقيع، والمرقعان، والممسوس، والمخَبَّل، والمختبَل، والأنوك، والبوهة، والذُّولة، والموْتة، والثطاة (تقول العرب: من فرط ثطاته لا يعرف قطاته من لطاته –

القطاة: مقعد الردف من الدابة، واللطاة: دائرة في الجبهة)، والعِزْهاة، والأولق، والمهوّس، والموسوس، والهلباجة، والخَذِب، والبِرشاع، والرَّهدن، والملْغُ، والجُعْبُس، والمألوس، والأهوج، والهائم، والمدلّه، والأبله، والمستهَتر، والواله، والهَبَنْقع».

قاطعت يوسف:

– باللّه عليك، لا تُعِدني إلى نقطة البداية، زهقت منك ومن أصحابك المجانين، لنترك للقارئ والقارئة، الحكم على الرواية... وللنقاد الحيرة في تصنيفها، وتقريع المؤلّف، إن لم تعجبهم...!!

تابع، وكأنه لم يسمعني:

– اسمع، أهم شيء قاله ابن حبيب عن أصل الجنون في اللغة، هو الاستتار، تقول العرب: جنّ الشّيء يجن جنونًا إذا استتر، وأجنّه غيره إجنانًا إذا ستره. ألا يقول الأدباء من أمثالك: جنّ الليل، أجنّ الليلُ الشيءَ إذا غطّاه بظلامه. الجنان: القَلْب سُمّي بذلك لاستتاره. وسُمّيت الجنّ لاجتنانهم عن أعين النّاس. والجَنّة البستان لالتفاف الأشجار. والجُنّة الدرع والترس لأنهما يستران. والجَنن القبر لأنه ساتر. والجنين في بطن الأم لأنه مستور، والمجنون هو المستور العقل. أرأيت؟ نحن مستترون من عالمكم، هاربون، مختفون، باطنيون، نحن المجانين. ابن الجوزي تتبّع أخبار الحمقى والمغفلين من الفقهاء، والمفسّرين، والرواة، والمحدثين، والشعراء، والمتأدّبين، والكتاب، والمعلّمين، والتجّار، والمتسبّبين، وطوائف تتصل للغفلة بسبب متين...!!، مَن بقي بعد خارج إطارنا؟! ومنهم مَن سُمّي مجنونًا بلا حقيقة كالشاب والمتصابي والسكران، وكانت العرب تسمّي الشباب شعبة من الجنون.

مشيتُ، ويوسف علّان، من المخيّم، باتجاه دوّار بوتين، في نفس الطريق التي سلكها يومًا، إبراهيم باشا، والإمبراطور الألماني، وسكنها داهش بك. لم يتوقف يوسف عن إطلاق النكات، ونفث الدخان، ورائحة جسده تملأ الأجواء. كان يضحك وهو يحثّني على أن أصبح واحدًا منهم.

قلت لنفسي، وأنا أوازن عرض يوسف علّان، ما الذي بقي ممّا يربطني بعالم العقلاء المجنون هذا؟

وقلت: هل يحتاج المجنون إلى مسوّغات ليقنع نفسه بأنه أصبح مجنونًا؟ وهل يدرك ذلك أصلاً؟

المجنون مجنون، ومكانه مع رفاقه المجانين، وأجد الآن رغبة غير قابلة للتأجيل تجيش في داخلي، تحثّني على تتبّع نداء يوسف علّان.

أليس هو صديقي الوحيد، الذي لم يكذب عليّ ولا مرّة، ولم يبعني ولا مرّة، ولم يفكر، ولم يخطر على باله ذلك ولا مرّة؟

عندما اقتربنا من دوّار بوتين، فوجئنا بلافتات ورقيّة مزروعة بالقرب من شجرة الزيتون داخل الدوّار مكتوبًا عليها: «دوّار المجانين».

التفتُّ إلى يوسف، ففهم سؤالي دون أن أنطقه، فقال ضاحكًا:

– إنّهم الشباب، شباب المجانين، يؤكدون حقهم في وطنهم، وطن المجانين...!

***

بعد عدة أسابيع، كانت الأرض المقدّسة على موعدٍ مع جنونٍ دموي، بدأ حربًا إسرائيلية على غزّة، وامتدّ إلى وطن المجانين، ولكن تلك، جولة جنون أخرى، رواية أخرى من روايات الأرض المقدّسة التي لا تنتهي. ليكتبها مجنون غيري.

الأمن المصري قبض على فلاديمير بريمكوف، وهو يحاول التسلل إلى غزة، عبر سيناء، لينضمّ إلى المقاومة الفلسطينية. وقال المصريون: إنه رجل الموساد.

لم يتمدّد النفوذ الجيوسياسي الروسي في الإقليم، ولكنه تمدّد إلى الأرض المجاورة للمركز الثقافي، فالمنطقة أعجبت بوتين، وبدأت ورشة عمل لبناء مجمع علمي ثقافي فني ضخم، ووُضعت كبسولة تأسيس المدرسة الروسية، تحوي وثيقة عن بناء أوّل مدرسة روسية في فلسطين، منذ عام 1917، والكبسولة هي عبارة عن أنبوبة مصنوعة من معدن ستانلس ستيل ودُفنت في حفرة خاصة على عمق خمسة أمتار تحت أرضية المدرسة تكريمًا لعرف روسي قديم. موقع المدرسة الروسية قبالة المدرسة اللوثرية، الروس مرة أخرى أمام الألمان في وطن المجانين. ومن عدة جهات، تظهر

المستوطنات اليهودية بقرميدها الأحمر، حلم الصحافي النمساوي هرتسل أمام غليوم، مُشكّلةً طوقًا استيطانيًا على وطن العقلاء، الذين شكّلوا طوقًا آخر على وطن المجانين.

في الأيّام التالية، شوهد يوسف علّان يطير، تعجز الشوارع عن حمله:

– سار.. طار.. حار: سَطَحار.. هي الحياة، هي الحياة سَطَحار...، يا صديقي المؤلف الغشيم، غشيم الكتابة والحياة، حتى لو استدعيت روح عُجيل المقدسي. أنت لا تعرف أنه تناسخ في روحي، أنا هو عُجيل، وأنا مَن تحكّم في روح روايتك.

الدهيشة

2012

مجانين بيت لحم – تبشيرٌ ألماني رائد، وطموح إمبراطورٍ مغامر، قدَحا شرارة الدهيشة، وطن مجانين فلسطين منذ الانتداب البريطاني. لاحقًا، سيُعتدى على ذلك الحيّز، في ظروف سياسية جديدة، وضعت المجانين ووطنهم على المحكّ.

تحكي «مجانين بيت لحم» عن وطن المجانين الفعلي، وناسه. هي ترمز إلى الوطن الذي يتآكل تحت وطأة التغيّرات السياسية التي تعصف به. تقتحم موضوعًا يكاد يكون بكرًا في الأدب العربي الحديث، وتقدّم الفلسطينيّين كما هم، بشرًا، من دون نبرة خطابية ولا مناجاة غنائية.

«رواية تتخلّى فيها شهرزاد عن دورها لساردٍ مسكونٍ بالحكاية الشعبية والتراث، يقلّب ألف كتاب وكتاب، ليقدّم شخصياتٍ تنمو وتتطوّر في فضاء من الواقع المتخيَّل والخيال الواقعي» – ربعي المدهون

أسامة العيسة – كاتب وصحافي فلسطيني، مواليد بيت لحم عام 1963. صدرت له عدّة كتب أدبية وبحثية، في القصّة والرواية والآثار وطبيعة فلسطين. أعدّ أبحاثًا لأفلام تسجيلية عن الثقافة والسياسة في فلسطين. حصل على المركز الأوّل في جائزة فلسطين للصحافة والإعلام، فئة القصة الصحافية عام 2011، وجائزة العودة التقديرية للتأريخ الشفوي عن بحث «حكايات من برّ القدس» عام 2008. أمّا روايته «مجانين بيت لحم» فقد حازت على جائزة الشيخ زايد للكتاب عن فئة الآداب 2015.

ISBN 978-9953-26-964-1
9 789953 269641
نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان A.